

صَوْرٌ مِنْ حَيَاةِ الرَّسُولِ

①

أَمِينٌ دُوَيْدَار

أَرْضُ الْحَرَمِ الشَّرِيفِ



دار المعارف

صَوْرٌ مِنْ حَيَاةِ الرَّسُولِ
(١)

أَرْضُ الْحَرَمِ الشَّرِيفِ

أَمِينُ دَارِ

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Beit al-Hikma Alexandria



دارالمعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

۞ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ، وَاحْلُلْ

عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي ، يَفْقَهُوا قَوْلِي ۞

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

وإن من خير الكتب وأجلها قدراً هذا الكتاب الذى تهديه «دار المعارف» إلى شباب الجيل المسلم الذين تتعطش نفوسهم الحائرة إلى معرفة المثل العليا، التى تتطلع إليها أرواحهم، لتكون نبراساً ينير لهم طريق الخير.

ولن تجد أصدق من هذه المثل التى تقرؤها فى سيرة سيد المرسلين الذى عاش حياته يعلم الناس، ويرشدهم إلى طريق الخير والفلاح فى الدنيا والآخرة.

فأطيب الحديث عنك يا سيدى يا رسول الله، وما أجمل التأمل فى سيرتك العطرة، وما أحوج الشباب والشيخ إلى نور

هديك الوضاء، وإلى روحك الطاهرة التي نستمد منها السداد والقوة، لتفتح أمامنا أبواب الأمل والرجاء.
وبعد :

فهذه صورة صادقة. بين يديك أيها القارئ العزيز لسيد البشرية، وإمام المجاهدين، الذي لم يشنه عن دعوته العظيمة ما لقي من الأذى والضرر، في سبيل نشر دعوة الحق والخير والسلام، حتى أتم الله نعمته على البشرية.
عزيزي القارئ : سنو إلى اللقاء بك في الحديث عن هذه السيرة العطرة حتى الجزء الرابع من هذه السلسلة.

[دار المعارف]

إهداء

ولدى العزيز سامي

تعهدتك بالقصة في بكور طفولتك، كما تعهدت أختك من قبل، وتدرجتُ بك فيها كلما تدرجتُ في الإدراك والفهم، وكنت أبغى بذلك أن أعلمك - عن طريق القصة - كل ما أريد لك؛ وما كنت أريد إلا أن تكون إنساناً كاملاً، يدرك أن له في الحياة رسالة أسمى من الطعام والشراب، و من اللهو والمتاع؛ فما الطعام والشراب واللذائذ والشهوات إلا مُتعة الحيوان. أما الإنسان الذي كرمه الله ووضع فيه أسرارهِ، فإن رسالته أن يَغْمُرَ الأرضَ بالحب والخير، والعدل والصلاح، وأن يكون المثل الأعلى دائماً هو الهدف الذي يرمى إليه في كل شيء.

لذلك حاولت أن أرسم لك هذا المثل عن طريق القصة، لأنها أحب الطرق إلى نفسك وأقربها إلى طبيعتك، وبسذلت جهدي أن أصوره لك في الصورة التي تعشقها وتصبر إليها. وكانت غاييتي التي أرمي إليها أن تكون ولدًا صالحًا، وأن يكون

المثل الأعلى هدفك الذى تعمل له وتسعى إليه فى حياتك.
 وكنت قد ادخرت لك سيرة الرسول الكريم، محمد بن
 عبدالله -صلى الله عليه وسلم- أزودك بمعانيها العالوية، حين
 يَشِبُّ شبَابُك ويستوى عودك. ولكن الله -تعالى حكمتُه- أراد
 أن يختارك إلى جواره، وأن ينقلك من دار الفناء إلى دار
 البقاء، وأنت صحيفة بيضاء لم تلوث بإثم، فوقفت حيران
 لا أدرى: هل انتهت مُهمَّتى عند هذا الحد، أو لا يزال من
 واجى أن أتعهد أترابك من الفتيان والفتيات، بما كنت أريد أن
 أتعهدك به؟

يُخِيلُ إلى -يابْنَى- أن مهمتى لاتزال قائمة؛ فإ كنت
 أبغى من تهذيبك بالمثل الصالحة، إلا أن تكون مثلاً صالحاً بين
 أترابك، يَرَوْنَ فيك النموذج الحى للفتى الصالح، الذى يسمو
 بهيمته على الشهوات الباطلة، والأعراض الزائلة، ويدرك أن هذه
 الحياة مزرعة لما بعدها؛ فلا يُطفئ المآل مهما كثر، ولا يستعبده
 الجمال مهما قتن، ولا يخذله المنصب مهما علا، ولا يلهيه متاع
 الدنيا عن نعم الآخرة، ولا يشغله الشيطان عن مراقبة الله،
 الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

فهانذا - إذن - أستأنف السير من جديد، محاولاً أن أسير
 مع أترابك على النهج الذى كنت أسير عليه معك؛ وهذه سيرة

الرسول الكريم أقدمها لهم، في الأسلوب الذي تعودت أن أبسط
لك به كل شيء... وقد جعلت جهدي في تبسيط هذه السيرة
الفاضلة، هدية مني إلى روحك الطاهرة.

فاسأل الله يابني - وأنت في منازل الرضوان منه - أن
يوفقني إلى إتمامها على النحو الذي يرضاه لرسوله، وأن يتقبلها
مني عملاً خالصاً لوجهه الكريم، وأن يتجاوز بها عن سيئاتي،
ويجعلها رُجحاً في ميزان حسناتي !!

٢٦ من شعبان سنة ١٣٧٢ هـ

١٠ من مايو سنة ١٩٥٣ م

الطرية

والدك

أمين دويدار

تمهيد

هذه صفحات من سيرة الرسول الكريم، محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - أردت أن أُلحِث فيها إلى الشباب من أبنائنا، ولحن في مُسْتَهْلَ نهضة جديدة، لعل أستطيع أن أساهم بها في تقويمهم وحسن توجيههم، وفي بنائهم على أساس من الأخلاق والمثل الفاضلة، التي وضعها الإسلام لأبنائه، ورسمها الرسول نماذج حية للناس في أقواله وأفعاله.

وقد حرصت جهدي على أن تكون هذه الصفحات صوراً صادقة من حياة الرسول الكريم، تملأ النفس بما فيها من صدق ووضوح، وتملأ القلب بما فيها من قوة وحياة؛ وأن أسوق الحقائق التاريخية في أسلوب قصصي سهل، يلائم مستوى الشباب ويستوى قلوبهم، ويقف بهم على مواقف العظمة الحقّة في حياته، صلى الله عليه وسلم، لتكون لهم قدوة يقتدون بها في حياتهم، فيشبهون رجالاً صالحين، تسعد الحياة بهم ويسعدون بها، كما سَعِدَت بمن كان قبلهم من أبناء المسلمين الأولين.

إن في الشباب ميلا غريزياً إلى القصة، يدفعه إلى التهام كل ما يقدم إليه عن طريقها. وقد رأيت الذين لا يعلمون يستغلون في الشباب هذا الميل، فيقدمون له ما يشاءون من هو الحديث عن طريق القصة، في ألوان جاذبة وصور خادعة. وقد أسرفوا في ذلك أيما إسراف، واستغلوا ميول الشباب أسوأ استغلال، فهدسوا له في هذه الألوان ماشاءوا وشاءت لهم أغراضهم من سموم، حتى استطاعوا أن يَحُلُّوا في الشباب عناصر القوة، وأن يصرفوه عن الجدل إلى اللهو، وعن القراءة النافعة المغذية، إلى القراءة الهشة العابرة، مجرد التسلية وشغل الفراغ؛ وانسدغ الشباب وراءهم في غير وعى، غير مدرك ما هنالك من خطر عليه وعلى مستقبله. وللشباب في ذلك عذره، فإن تجار اللهو قد حرصوا على أن يقدموه إليه في أبهى صوره، وأخدع مظاهره، حتى بلغوا من ذلك ما أرادوا؛ فقد رأينا الشباب يلتهم التهاماً كل ما تقدمه له تلك الثقافة الرخيصة، ويندفع اندفاعاً إلى تقليد هذه المثل الهابطة، غير مبال بما وراء ذلك من عاقبة. وما زال هؤلاء يفتنون الشباب بألوان من الفتنة، ويخدعونهم بأنواع من الخداع، حتى فتنوه عن دينه وخلقه، وعن تقاليد آبائه وأجداده، وحتى سلخوه من قوميته وبيئته، وتركوه مَسِيحاً مشوهاً، لا هو شرقي ولا هو غربي، ولا هو مسلم ولا هو غير مسلم.

وإن في تاريخنا الإسلامي من المثل الكريمة، ما لو أحسن توجيه الشباب إليه لأق بالمعجزات. وقد رأيت الذين كتبوا في تاريخنا - إلا قليلا - قد أغفلوا مستوى الشباب وميولهم، فلم يقدموا لهم من هذا الزاد ما يلائم مداركهم؛ فمنهم من جنح إلى المنهج العلمي الذي لا صبر للشباب عليه، ومنهم من جنح إلى الخيال وتسهل بالأسلوب، حتى جعله إلى مستوى الطفولة أقرب.

وقد كانت لي قبل ذلك محاولات في كتابة القصة السهلة، ساهمت بها زمناً في خدمة الطفولة، فرأيت الكثير من إخواني يقولون لي: لِمَ لا تكتب للشباب كما كتبت للطفولة؟ وجعلوا - كلما جدت مناسبة - يهتمونني بالتقصير فيما يجب على نحو الشباب؟ حتى رأيت أحداً منهم ذات يوم وقد أعد لي مكاناً في مجلته، لأتحدث منه إلى الشباب في تاريخ الإسلام ورجاله، وطلب إلي أن أرسم لهم - في أسلوب يناسبهم - صوراً تصور بطولة هؤلاء الرجال وعظمة أخلاقهم، وتلفتهم إلى المبادئ السامية التي بنى الإسلام عليها نفوسهم، فسادوا بها العالم، وملثوا بها الأرض عدلاً وحكمة؛ فلم أجد بداً من الإذعان.

وبدأت أكتب هذه الصفحات في سيرة الرسول الكريم؛ فهو أحسن قدوة تُقتدى، وأهدى دليل يُتبع، وفي سيرته صور

شقى من الكمال ينبغى أن يُلقنْها الآباء للأبناء، بل هو المثل الأعلى للكمال الإنسانى، فى كل ماتسع له طاقة الإنسان.. أدبه ربه فأحسن تأديبه، وجعله نموذجًا حيا للشخصية القوية، التى تستطيع بقوة إيمانها أن تصلح ما أفسد الدهر، «فقد استطاع ﷺ فى حياته أن يغيّر طباع قومه وأفكارهم. وأن يقوم المعوج من أخلاقهم، وأن يدفعهم بقوة فى طريق المثل الأعلى، ويرفّعهم إلى مستوى من الحياة أسمى وأزكى؛ ولم يلجأ فى سبيله إلى الوسائل التى يعجز عنها طوق البشر، بل تذرّع بجميع الوسائل الشريفة، مما هو فى متناول الناس جميعًا؛ فكانت حياته درسًا عمليًا للذين يشقون طريقهم بقوة إيمانهم، على رغم ما يحيط بهم من الصعاب، وما يعترض طريقهم من العقبات»*

وقد جعلت منهجى فى كتابة هذه الصفحات أن تكون الحقيقة التاريخية هى الأساس، وأن أحاول عرض هذه الحقيقة فى الأسلوب الذى يستهوى الشباب ويستميله، وفى الصورة التى تجعل المشاهد أمامه صورة حية شائخة، كأنه يراها رأى العين، ويدركها بكل مشاعره فى حقيقتها الواقعة.

ولست أزعم أنى بلغت من ذلك ما أريد، وإنما هو منهج وضعتة لى نفسى، وحاولت جهدى أن أسير عليه. فإذا كنت قد

* المثل الأعلى للأنبياء بتصرف.

أصبحت الغرض الذى رُميت إليه، فذلك فضل الله وحسن توفيقه؛ فهو الذى استعنته فأعاننى، واستهديته فهدانى. وإن كنت قد جِذْتُ عن الطريق وكَبُوتَ دون الغاية، فحسبى أنى كنت صادق النية فيما أخذت به نفسى من هذا القصد؛ فإنما الأعمال بالنيات، وقد تكون نية المرء خيراً من علمه، ﴿والله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.



وبعد - أيها الأبناء - فإنى أقدم إليكم هذه الصفحات من سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنا أضرع إلى الله أن يُلين لها قلوبكم، ويصلح بها نفوسكم، ويجعل لكم فيها زاداً من التقوى يحفظكم من غرور الشباب، ويهديكم إلى طريق الصواب.. ﴿فَن يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾.

وقبل أن أمضى بكم فى سيرة الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - أقف بكم قليلاً، لأحدثكم عن البيئة التى وُلد بها ونشأ فيها، وعن طبيعة أهلها ونظام حياتهم، وعن بعض الحوادث المهمة التى حدثت قبل ميلاده، وكان لها صلة وثيقة بسيرته وتاريخه.

بلاد العرب

فقد ولد - صلى الله عليه وسلم - في «مكة»، ومكة - كما تعلمون- في بلاد الحجاز، وبلاد الحجاز في بلاد العرب؛ وبلاد العرب صحراء واسعة، قليلة الماء قليلة الإنبات، أكثرها صخور ورمال، وجبال وتلال؛ وأكثر سكانها قبائل متفرقة، يعيشون في الخيام، ويتنقلون من مكان إلى مكان، متبعين مساقط المطر ومنابت العشب، يرعون فيها أنعامهم التي يعتمدون عليها في حياتهم.

أما المدن في هذه البلاد فقليلة جداً، ومعظم أهلها يعيشون على التجارة، يسرون بها في قوافل من الإبل، نحو الشمال في الصيف، ونحو الجنوب في الشتاء، عابرين بها مسالك الصحراء البعيدة، متعرضين لسطو الأعراب من البدو، في الذهاب وفي الإياب.

البيت الحرام

ومكة من أشهر المدن في بلاد العرب، بل في بلاد الدنيا جميعاً؛ لأن فيها «الكعبة»، بيت الله الحرام، أول بيت بُنى في الأرض لعبادة الله وحده.. وكانت البيوت قبله تُبنى لعبادة

الأصنام، أولعبادة غيرها من الشمس والقمر، والكواكب والنجوم، والأشجار والأنهار، والحيوان والطير، وما إلى ذلك من كل ما يروّج النفوس بعظمته، أو يملك القلوب بمنفعته.

وهو أول بيت وُضع للناس ليطوفوا به، ويحجوا إليه من مشارق الأرض ومغاربها؛ وأول بيت حرّم الله فيه القتال والخصام والجدال، وحرّم من أجله مكة كلها، وسماها «البلد الأمين».

ثم هو قبلة المسلمين جميعاً، يتجهون إليه في صلاتهم، مهما تباعدت بلادهم واختلفت أقطارهم.. فضله الله على سائر المساجد، وحرّم دخوله على المشركين، وجعله حرّماً آمناً، لا يُلجأ إليه خائف إلاّ أمين، ولا يدخله داخل إلاّ أحسن بآنه من حماية الله في حصن حصين.

من أجل هذا أحبه أهل مكة، وعظموه وقصدوه، وعاشوا في حماه آمنين على أنفسهم وأموالهم؛ تغدو قوافلهم وتروح في الصحراء آمنة مطمئنة، لا يتعرض لها الأعراب كما يتعرضون لسواها؛ بل ربما نصبوا أنفسهم حُرّاساً عليها، حتى يصلوا بها إلى مأمنها، لأنها قوافل أهل الحرم، الذي قدسه الله وعظمه، وجعله مباركاً وهدى للعالمين.

أرض الحرم

إبراهيم وسارة

كان «إبراهيم» - عليه السلام - عبدًا قانتًا لله، مخلصًا في عبادته، حريصًا على طاعته، مسارعًا إلى رضاه. وكان له زوجة صالحة تسمى «سارة»؛ وكان يحبها وتحبه، ويخلص لها ويخلص له.

قضى إبراهيم وزوجه عمرًا طويلًا ولم يُرزقا ولدًا، حتى كبر إبراهيم وصار شيخًا هرمًا، وشاخت سارة وجاوزت سن الولادة. وكان إبراهيم يرجو أن يكون له ولد يؤنس في حياته، ويعينه في شيخوخته؛ وكانت زوجته سارة ترجو مثل ما يرجو.

وكانت لسارة جارية تسمى «هاجر»، جاءت بها من مصر واتخذتها خادمًا لها؛ فوهبتها لإبراهيم وقالت له: إن كبرت يا إبراهيم، وصرت عجوزًا فانية، وانقطع أمل أن يكون لي ولد بعد هذه السن؛ وهذه جاريتي هاجر قد وهبتها لك، عسى أن يرزقك الله منها ولدًا فقرر به عينك...

ودخل إبراهيم بهاجر، فرزق منها ولدًا سماه «إسماعيل».

إسماعيل وهاجر

فرح إبراهيم فرحاً عظيماً بولده إسماعيل، وفرحت به أمه هاجر، وأخذت تحس مكانها في البيت، وتشعر أنها لم تعد خادمة كما كانت؛ بل أصبحت أمّاً تفخر بولدها، وتعتز به كما تعتز الأمهات.. وأحسّت سارة أن خادمتها قد تغيرت لها، وغدت تعتز بمكانها في الأسرة؛ وأحسّت كذلك أن إبراهيم يزداد فرحه بإسماعيل يوماً بعد يوم، وأن عنايته كذلك تزداد بأمه هاجر؛ فأخذتها الغيرة، وحزّ في نفسها أن يكون لخادمتها ولد وليس لها ولد.

وكان إبراهيم حريصاً أشد الحرص على رضا سارة، لأنها شريكة حياته، ورفيقة صباه وشيخوخته.. فلما أحس أن الغيرة قد أخذت تداخلها من جاريتها هاجر، أراد أن يفرق بينهما؛ فأخذ هاجر وابنها إسماعيل، وانطلق بهما يسبح في أرض الله.. ومازال يتنقل من مكان إلى مكان، ومن أرض إلى أرض، حتى حط رحاله بهما في أرض «مكة».

وكانت أرض مكة في ذلك الحين أرضاً موحشة، خالية من الناس والزرع والماء؛ ولكن الله أوحى إلى إبراهيم، أن يترك ابنه إسماعيل وأمّه هاجر في هذه الأرض؛ فاستجاب إبراهيم لأمر

ربه، وتركهما في هذا المكان القفر، وترك معهما جراباً فيه قليل من التمر، وسيقاء فيه قليل من الماء، ثم قفل راجعاً إلى زوجته سارة، في أرض فلسطين.

في أرض مكة

فلما هم أن ينصرف تعلقت به هاجر، وقالت له: إلى أين يا إبراهيم؟ أتركنا في هذه الأرض الخلاء، لا طعام لنا ولا شراب، ولا أنيس ولا مغيث؟ فتأثر إبراهيم وغلبته عيناه، فلم يستطع أن ينظر إليهما، وانطلق يمشي في طريقه.

لكن هاجر لم تتركه، وظلت متعلقة به تصيح: إلى أين يا إبراهيم؟ إلى أين يا إبراهيم؟.. وظل إبراهيم منطلقاً في طريقه، لا يلتفت إليها ولا إلى ولده. فلما رأت أنه لا يجيبها ولا يلتفت إليها، سأله قائلة: الله أمرك بذلك؟ قال: نعم. قالت: إذن فهو لن يتخلى عنا، ولن يضيّعنا.. وانكفأت راجعة إلى صغيرها.

أما إبراهيم فقد ظل مندفعاً في طريقه لا يلتوي على شيء، حتى وصل إلى مُنعطف الطريق؛ وهناك جاشت نفسه بعاطفة الرحمة لهذين الضعيفين: طفله إسماعيل وجاريتة هاجر؛ فالتقى عليهما نظرة دامعة، ثم رفع يديه إلى السماء ضارعاً، وهتف

يدعو الله قائلا : ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي
زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، فَاجْعَلْ أَفْتَدَةً مِنَ
النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ^(١)، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَشْكُرُونَ﴾...^(٢) ثم انثنى في طريقه وقد اطمأن قلبه، وسكنت
نفسه، وزالت مخاوفه، وأيقن أن الله الذى لاتنام عينه،
سيرعاهما برعايته، ويحوطهما بعنايته.

وهكذا سار إبراهيم إلى فلسطين، وهو مطمئن إلى رعاية الله
لطفله وجارته.

حيرة هاجر

أما هاجر فقد عادت إلى ولدها، تضمه إلى صدرها،
وتغمره بحنانها، مستسلمة لأمر الله، مؤمنة بأن الله معها، وأنه
ماساقها إلى هذا المكان القفر إلا لحكمة يعلمها وأمر يدبره. وما
هى إلا لحظة حتى كفكت دموعها، وابتسمت لطفلها؛ ونظرت
إلى جراب التمر فأخذت منه حَفْنَةً، وجعلت تأكل منها فى هدوء
واطمئنان؛ ثم مدت لها إلى سقاء الماء فأخذت منه جُرْعَةً؛ ثم

(١) تانس بهم وتعطف عليهم.

(٢) سورة إبراهيم الآية ٣٧.

قالت : « الحمد لله الذى أطعمنى فأشبعنى، وسقانى فأروانى »
وما زالت هاجر تأكل من ذلك التمر، وتشرب من ذلك
الماء، حتى فرغ التمر والماء وأصبحت ولا طعام عندها ولا شراب.
على أنها مع ذلك لم تجزع ولم تيأس، وظلت صابرة على
الجوع والعطش، وهى فى كل لحظة تنتظر فرج الله ورحمته..
وطال بها الانتظار، وتمادى بها الصبر، واشتد بها الجوع
والظمأ... ولكن، كيف يتسنى لهذا الطفل الضعيف أن يصبر؟
لقد أخذ الطفل يتلوى من الألم، ويئن أنيناً يفطر القلب،
وأمه تنظر إليه حائرة، لاتدرى ماذا تفعل...
وما زال الطفل يئن ويبكى، ونفسه تهافت، وصوته
يتخافت، حتى كادت نفسه تفيض...

هنالك لم تستطع أمه صبراً، ولم تُعلق أن تنظر إلى وليدها
وهو على هذه الحال؛ فانطلقت تجرى هاهنا وهاهنا، لعلها تجد
أحدًا يسعفها بشربة ماء. وكان «الصفّا» أقرب جبل إليها،
فصعدت عليه، وتطلعت حوالىها فلم تر أحدًا؛ فنزلت مُهرّول إلى
بطن الوادى حتى وصلت إلى «المَرّوة»، فصعدت فوقه وتطلعت
فلم تر أحدًا؛ فعادت تجرى إلى الصفّا، ثم إلى المَرّوة، ثم

إلى الصفا، ثم إلى المروة، حتى أتمت سبعة أشواط، وهي تجرى مكروية ملهوفة..

مجدة السماء

فلما انتهت إلى المروة في الشوط السابع، سمعت صوتاً يرن في أذنيها، فتسمعت وأنصتت، فسمعت الصوت مرة أخرى؛ فصاحت قائلة: يا صاحب الصوت، أغثنا إن كان عندك غوث!.. ثم التفتت تنظر إلى الطفل، فإذا هو يفحص برجله من العطش، وإذا جبريل يناديها: مَنْ أنت؟ قالت: أنا هاجر، أم ولد إبراهيم. قال: فلأى من وكلكما في هذا المكان القفر؟ قالت: وكلنا إلى الله. قال: وكلكما - إذن - إلى الرءوف الرحيم.

وحينذاك فحص الغلام الأرض بأصبعه، فإذا الماء ينبثق من بين أصابعه متدفقاً فواراً.

فكبرت هاجر، وانكبت على الماء تحوشه يديها وهي تقول: «زَمْ.. زَمْ.. زَمْ.. زَمْ..»، وجعلت تغرف منه في سقائها، وهو يفور ويفور، ويسيح على ماحوله من الرمال والصخور.

وهكذا سقت هاجر رضيعها، وأزوت ظمأها، وسجدت لله

شكرًا على ما أدركها به من الغوث والرحمة. أما الملك فقد ودع هاجر وطفلهما، بعد أن ألقى في رُوعها أن الله معها، وأنه سيُشملها ويشمل طفلها بخير كثير.



وجعلت هاجر تتطلع إلى الملك وهو معلق في السماء، حتى اختفى عنها.. فلما غاب عن ناظرها أحست بالوحشة، وودّت لو أنه بقى معها فلم يفارقها، وتطلعت نفسها إلى الأنس في هذه الوحدة الموحشة، وتمنت لو أن الله ساق إليها جماعة من الناس، يزيلون عنها وحشة العزلة والانفراد.

في ذلك الوقت كانت قبيلة من قبائل العرب، تسمى قبيلة «جُرهم» تسير عبر الصحراء، متجهة إلى الشمال؛ فرأوا طائرًا يخلق فوق «زمزم»، حيث تقيم هاجر وابنها إسماعيل؛ فقال قائلهم: لاشك أن ها هنا ماء قريبًا، فإن الطيور لا تخلق إلا حيث يكون الماء.. فأرسلوا وادهم ليبحث عن ذلك الماء. لما زال يبحث حتى اهتدى إلى مكان النبع، فانقلب إلى أصحابه فرحًا يصيح بالبشرى، فأقبلوا مسرعين يتسابقون إلى الماء. فلما رأوا عنده هاجر، أدركوا أنها صاحبة الماء؛ فاستأذنوها في النزول عند مائها، فأذنت لهم، فنزلوا.

وهكذا نزلت قبيلة جرهم عند ماء زمزم، فانست بهم هاجر

وأنسوا بها، وطابت لهم الحياة في هذا المكان فأقاموا.. وشب
إسماعيل بينهم، واختلط بهم وبأولادهم، فتعلم منهم لغة العرب.
ونشأ يتكلمها كما يتكلمونها..

فلما كبر إسماعيل وبلغ مبلغ الرجال، تزوج من قبيلة
جرهم، وصار له من بعد ذلك بنون وبنات؛ وتوطدت صلة
إسماعيل بالعرب، حتى غدا كواحد منهم.

وبارك الله في ذرية إسماعيل، فأخذت تتناسل في هذه البقعة
المباركة، وتتوالد فيها جيلا بعد جيل، حتى وُلد منها محمد
رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

بناء البيت

إبراهيم وإسماعيل بينان الكعبة

كان إبراهيم - عليه السلام - يتردد بين الحين والحين على أرض الحجاز، ليطمئن على ولده إسماعيل. فلما استقر إسماعيل في مكة، وصار رجلاً ذا أسرة وعيال، أوحى الله إلى إبراهيم أن يبني بيتاً لعبادته عند ماء زمزم، بمعاونة ولده إسماعيل؛ فتوجه من فوره إلى أرض الحجاز، فوجد إسماعيل جالساً بجوار زمزم، يهرى نبالاً له ليصطاد بها؛ وكان إسماعيل شاباً قوياً مفرماً بالصيد.

فلما رأى إسماعيل أباه قام إليه فرحان، يعانقه عنق الشوق، ويبادلّه قُبْلَ الحنان. فلما فرغاً من تحيات اللقاء، واطمأن كل منهما على حال صاحبه، قال إبراهيم لابنه إسماعيل: إن الله عهد إلينا أن نبني له بيتاً في هذا المكان. قال إسماعيل: وأنا إن شاء الله مُعِينُكَ ومؤازرُكَ على بناء هذا البيت. فسّر إبراهيم وقال: نِعَمُ المَعِينُ أَنْتَ على أمر الله يا بني. ١٠٠

وقام إبراهيم وإسماعيل يتعاونان على بناء البيت : إبراهيم يبني وإسماعيل يحمل الأحجار ويناوله؛ حتى إذا ارتفع البناء عن قامة إبراهيم، وصار أعلى من أن تناله يده، جاء إسماعيل بحجر كبير، فجعله مقاماً لأبيه؛ فوقف عليه إبراهيم، وجعل يبنى ويدور به حول الجدار، منتقلاً من مكان إلى مكان، حتى أتم بناء البيت. فلما تم البيت وارتفعت قواعده، توجه إبراهيم وإسماعيل إلى الله يدعوان :

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ، وَمِنْ قُرْبَيْنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١).

إبراهيم يدعو إلى الحج

وقد تقبل الله منهما، واستجاب دعاءهما، فجعل هذا البيت كعبة للناس، يحجون إليه من فجاج الأرض، وأوحى إلى إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج إليه. قال إبراهيم : وما عسى أن يبلغ صوتي إذا أذنت يارب؟ فقال له ربه : إنما عليك الأذان

(١) سورة البقرة الآيات ١٢٧ - ١٢٩.

وعليها البلاغ.. فارتقى إبراهيم جبلا عاليًا، وجعل ينادى بأعلى صوته: «يأيها الناس، إن الله كتب عليكم الحج إلى بيته فحجُّوا».. فجعل صوته يدوي في الأفاق، فيسمعه كل من أراد الله له أن يحج، فيقول: «لبيك اللهم لييك»!

وأقبل الناس على البيت طائعين، يلبون النداء، ويحييون الدعاء؛ ففرح إبراهيم فرحًا عظيمًا، حين رأى الناس يقبلون من كل حذب، ويجمعون حول البيت أجناسًا ولوانًا. فتمنى لو أن هذا المكان القفر، قد صار بلدًا عامرًا بالخير أهلاً بالسكن، يأنس الناس إليه ويألفونه، ويعيشون فيه إخوانًا، يحب بعضهم بعضًا، ويأمن بعضهم بعضًا؛ فتوجه إلى الله يدعوه بقلب خالص: «رب اجعل هذا بلدًا آمنًا، وارزق أهله من الثمرات مَنْ آمَنَ منهم بالله واليوم الآخر»^(١).

فأوحى الله إلى إبراهيم: أنى جعلت هذا البيت حرماً آمناً، فيجئ إليه ثمرات كل شيء؛ وجعلت مكة بلدًا حرامًا، لا يحل فيها القتال، ولا يُصَاد طيرها ولا حيوانها، ولا يُقطع شجرها ولا يُحْتَلَى خُلاها^(٢)؛ وجعلت أشهر الحج أشهرًا حُرماً، لا زنت فيها^(٣) ولا فسوق، ولا خصام ولا جدال.. وأرسل الله إلى إبراهيم

(١) سورة البقرة الآية ١٢٦.

(٢) لا يَحْتَلَى خُلاها: لا يَمْشِي مابِه من عشب.

(٣) الرقت: فحش القول.

ملكًا من السماء، فعلمه مناسك الحج؛ فجعل إبراهيم يعلمها للناس، كما تعلمها عن الملك، وكما تعلمها الملك عن الله سبحانه.

الهجاج يأتون من كل فج

من ذلك الحين، صار هذا البيت مَثَابَةً للناس^(١) وأمناء يأتون إليه من مشارق الأرض ومغاربها، مُشاةً وركبًا، ويجتمعون في ساحاته إخوانًا سَوَاسِيَةً؛ قد تركوا وراءهم مظاهر الجاه والمال، وتجردوا من زينة الحياة الدنيا، ولبسوا من الثياب أبسطها مظهرًا، وأكثرها تشابهًا، وأقلها كلفة، لافرق في ذلك بين غني وفقير، وعظيم وحقير؛ وجاءوا عبادًا مخلصين لله، يهللون له ويكبرون، ويشكرونه على أن هيا لهم هذا الحرم الآمن، في هذا البلد الآمن، في هذه الأشهر الآمنة، ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ، وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾^(٢)؛ فيهدى الأغنياء من الهدى^(٣) ما يشاءون، ويأكل الفقراء من اللحم ما يشتهون، ويقبل الجميع على الله بقلوب

(١) مثابة : مجتمعا لهم.

(٢) سورة الحج الآية ٢٨.

(٣) الهدى : ما يهدى إلى الكعبة من الأنعام، ليلبيح هنالك ويفرق لحمه على الفقراء.

خاشعة، وعيون دامعة، يتوبون إليه ويستغفرونه، ويرجون رحمته
ويخافون عذابه.

فإذا انتهت هذه الأيام المباركة، عادوا إلى ديارهم وقد
غُسلت ذنوبهم، ومُحيت سيئاتهم، فرجعوا أطيَّارًا أبرارًا كما
ولدتهم أمهاتهم.

من أجل ذلك صار هذا البيت مَهَوَى الأَفئدة، وقبلة
الأنظار، وصارت القبائل من الأعراب تنهافت على الإقامة
حوله، وتتسابق إلى السكن في رحابه، حتى امتلأت بهم مكة،
وعِمَرت بهم ساحاتها، وصار خُدَّام هذا البيت فيها أرفعَ الناس
منزلة، وأعلاهم مقامًا.

سدانة البيت

كانت خدمة البيت شرفاً عظيماً

كان خدام البيت يُسمَّون «السدنة»، وكانت سدانة البيت شرفاً عظيماً، لا يتاله إلا الأكفاء من الأشراف والسادة؛ وكانت القبيلة التي تُسند إليها سدانة البيت، هي سيدة القبائل وأشرفها وأعلاها؛ وكان سدنة البيت هم حكام مكة وأولو الأمر فيها، وهم الذين يملكون مفاتيح الكعبة، ويتولَّون زعامة الحج وقيادة الناس في أداء مناسكه.

من أجل ذلك كانت القبائل التي نزلت بمكة، تتنافس تنافساً شديداً في الوصول إلى سدانة البيت، وتحاول كل قبيلة أن تستأثر دون غيرها بهذا الشرف العظيم؛ وكان الصراع من أجل ذلك دائماً بين القبائل، فكل قبيلة تغلب يكون لأشرافها وحدهم حق السدانة؛ فلا تزال كذلك حتى تغلبها عليه قبيلة أخرى.

وكان بنو إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - هم الذين تولوا سدانة البيت بعد أبيهم، ومازالوا يقومون بها حتى غلبهم

عليها أخوالهم من قبيلة «جُرْهُم» فانتزعوها منهم؛ واستمرت السدانة في جرهم حيناً من الدهر، حتى غيروا وبدلوا في شعائر الحج، وطَفَّأُوا وبَغَّأُوا على الناس، وأفسدوا في أرض الحرم، فسلط الله عليهم قبيلة أخرى تسمى «خزاعة» فغلبوهم على سدانة البيت، وقولوا دونهم أمر مكة. فلما رأت قبيلة جرهم أنها غلبت على أمرها، عمدوا إلى كل ما أهدى إلى الكعبة من نفائس، فألقوها في بئر زمزم، ثم ردموا البئر فطمسوها وأخفوها معالمها، ثم خرجوا من مكة مهاجرين في الأرض.

واستمرت خزاعة دهرًا طويلاً وهي تقوم على سدانة البيت، وتتولى شئون الحكم في مكة، حتى انتقلت منها إلى قبيلة «قُرَيْش». وكانت قريش أشرف القبائل في مكة، وأعلاها نسباً، لأنها من ولد إسماعيل بن إبراهيم، عليها السلام. وكان أول من تولى ذلك من قريش، قُصَيٌّ بن كلاب، أحد أجداد النبي محمد، صلى الله عليه وسلم.

قصي بن كلاب

ويقولون: إن قصياً كان قد مات أبوه وهو صغير، فتزوجت أمه رجلاً آخر يسمى «رَبِيعَةَ بن حَرَام»؛ وكان ربيعة من قبيلة تسمى «قُضَاعَةَ»، وكانت قضاة تسكن عند حدود الشام،

فَنَقَلَ رَبِيعَةُ زَوْجَتَهُ إِلَى بِلَادِهِ، فَأَخَذَتْ مَعَهَا وَلَدَهَا قَصِي بَنِ كِلَابٍ. وَظَلَّ قَصِي يَعِيشُ مَعَ زَوْجِ أُمِّهِ وَهُوَ يَظُنُّ أَبَاهُ، حَتَّى كَبُرَ وَصَارَ شَابًّا وَكَانَ جَلْدًا^(١) قَوِيًّا شَدِيدَ الشَّبهِ بِأَبِيهِ؛ يَمْتَازُ بِطَوْلِهِ الْفَارِعِ، وَعُضْلِهِ الْمَفْتُولِ، وَشَعْرِهِ الْخَشَنَ الْكَثِيفَ، الَّذِي يَمْلَأُ صَدْرَهُ وَذِرَاعِيهِ وَسَاقِيهِ.

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ كَانَ قَصِي يَبَارِي رَلِيقًا لَهُ مِنْ قَضَاعَةٍ فِي رَمَى السِّهَامِ، فَغَلَبَهُ قَصِي، فَاغْتَنَظَ الْقَضَاعِي وَسَبَّ قَصِيًّا وَعَبْرَهُ، وَقَالَ لَهُ: أَمَّا أَنْ لَكَ أَنْ تَرْحَلَ عَنَّا أَيُّهَا الْغَرِيبُ؟ أَذْهَبَ إِلَى قَوْمِكَ فَاعْرِفْ مِنْ أَبُوكَ...! فَآتَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ تَأْثِيرًا شَدِيدًا فِي نَفْسِ قَصِي، فَلْهَبَ مِنْ فُورِهِ إِلَى أُمِّهِ فَسَأَلَهَا: مَنْ أَبِي؟ قَالَتْ: أَبُوكَ رَبِيعَةُ بْنُ حَرَامٍ. قَالَ: لَا، لَيْسَ رَبِيعَةُ أَبِي! قَالَتْ: وَمَنْ أَدْرَاكَ أَنَّ رَبِيعَةَ لَيْسَ أَبَاكَ؟ فَحَكَّى لَهَا قَصِي مَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَفِيقِهِ الْقَضَاعِي.

فَحَزَنْتَ لِلذَلِكَ حَزْنًا شَدِيدًا، وَقَالَتْ لَهُ وَهِيَ تَغَالِبُ دُمُوعَهَا: أَنْتَ وَاللَّهِ يَا بَنِي أَكْرَمَ مِنْهُ أَبَا، وَأَعْلَى نَسَبًا، وَأَشْرَفَ مَنَازِلًا! أَبُوكَ كِلَابُ بْنُ مُرَّةَ بْنِ كَعْبَ بْنِ لُؤَيٍّ بْنِ غَالِبَ بْنِ فَهْرَ بْنِ مَالِكَ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ الْقُرَشِيِّ، وَنَسَبُكَ يَنْتَهِي إِلَى

(١) جَلْدًا: صَلْبًا.

إسماعيل بن إبراهيم، وقومك بمكة عند البيت الحرام، وأخوك هنالك زهرة بن كلاب سيد في قومه..! قال قصي: فوالله لا أقيم ما هنا أبداً، ولا أرضى لنفسي أن أكون نزيلاً على غير أهلي!

وخرج قصي مع الحجاج من قضاة يبغي أرض مكة. فلما وصل إليها ذهب إلى أخيه زهرة بن كلاب، وكان قد كبر وذهب بصره؛ فحياه قصي، فرد عليه التحية ثم سأله: من أنت؟ قال قصي: أنا أخوك قصي بن كلاب. فدهش زهرة وقال: إن قصياً هنالك مع أمه، يرعى إبل قضاة في أرض الشام..! فتأثر قصي وغلبته عيناه، فقال وهو مختنق بدموعه: كان ذلك وهو طفل صغير لا يدرك؛ أما الآن فقد عقل وميز وعرف ما كان به جاهلاً، وأدرك ما كان عنه غافلاً!

فابتسم زهرة ابتسامة المرتاب، وقال: إني لأعرف فيك صوت كلاب بن مرة، ولكني أريد أن أتبين؛ أذن مني.. فدنا منه قصي، فجعل يتحسس يديه، ويتلمس مواضع الشعر في صدره ويديه ورجليه. فلما تبينت له سمات النسب^(١) في أخيه، صاح في فرح واغتباط: أنت والله أخى..! أنت قصي

(١) السمت: علامات القرابة.

ابن كلاب..! لقد عرفت فيك الصوت والشبه..! وجعل
يضمه إلى صدره ويقبله.

قصى يجمع أطراف الشرف

وعاش قصى بمكة، وامتاز فيها بمخلقه وعقله ومروءته، فعلا
شأنه بين الرجال، وعظم شرفه، وذاع صيته.. وكان شريف
مكة وسادن البيت في ذلك الحين رجلٌ من خزاعة، يسمى
«حُلَيْل بن حُبْشَةَ»، وكان له ابنة تسمى «حُيَّ» فخطبها إليه
قصى، فزوجه إياها.

وعرف حُلَيْلُ قصى بن كلاب، فأعجب برجولته وخلقه،
وأحبه حبًّا شديدًا، وأنزله من نفسه منزلة ولده. فلما حضر^(١)
حليل، أوصى بولاية البيت والقيام بأمر مكة إلى قصى بن
كلاب، وبذلك انتقلت السدانة والولاية من قبيلة خزاعة إلى
قبيلة قريش. فلما زالت بها حتى بعث الله فيها رسوله محمدًا
بالمهدي ودين الحق، ليظهره على الدين كله.

(١) حضر: حضره الموت.

دار الندوة

ولما تولى قصى أمر مكة، جمع فيها ما تفرق من بطون قريش، وقسم لهم فيها منازلهم، فنزل بعضهم في بطن مكة^(١) وسهولها، ونزل بعضهم في ظواهرها وأعاليها. وبني إلى جوار البيت دارًا واسعة، سماها «دار الندوة»، وجعلها ناديًا له ولقومه، يجتمعون بها في مسراتهم وأحزانهم؛ ويتبادلون الرأي في شئونهم وأحوالهم، ويتشاورون في أمور الحرب والسلم، والصلح والخصام، والزواج والطلاق، والسفر والإقامة؛ ويقيمون فيها الولائم والحفلات، ويبرمون العقود والمعاهدات.. لما كان يحدث من أمر في قريش إلا ودار الندوة مكانه، وقصى هو صاحب الرأي والمشورة فيه؛ إذ كانوا جميعًا يُجْلُونه ويحبونه، ويتيمنون^(٢) برأيه في الأمور كلها.

رفادة الحجاج وسقايتهم

ورأى قصى أن حجاج بيت الله يأتيون إليه من بلادهم البعيدة، وأقطارهم النائية، بعد سفر طويل مُرهق، كلّت فيه

(١) بطن مكة: أراضيها الواسعة.

(٢) يتيمنون: يتفاءلون ويستبشرون.

دوابهم، وضَمَرَت رواحِلهم^(١)، وَحَفِيَّت أَقْدَامهم؛ فلا يصلون إلى البيت إلا شُعْنًا غُبْرًا^(٢)، أَضْنَاهم السفر، وأَرْهَقهم السير، وأَذَاهم الجوع والعطش؛ ولا سيما الفقراء والمساكين الذين لا يجدون ما ينفقون.

فجمع رجال قريش وجوهها^(٣)، وقال لهم: «يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته، وأهل الحرم، قد خصكم الله بذلك وأكرمكم، وإنه يأتاكم في موسم الحج زُوار بيت الله، وحجاج حرمه، يعظمون شعائره، ويقدسون حُرُماته؛ فهم ضيوف الله وزوار بيته؛ وأحق الضيف بالكرامة ضيف الله، فأكرموا ضيوف الله، واجعلوا لهم طعامًا وشرابًا أيام الحج، حتى يصُدُّروا عنكم، ويعودوا إلى بلادهم وأهليهم».

فاستجابت قريش إلى نداء قصي، وتعاونوا على رفادة الحاج^(٤) وسقايتهم، وفَرَضَ أهل كل بيت على أنفسهم قَدْرًا معلومًا من الطعام والشراب؛ الغنى بحسب قدرته، والفقير على قدر طاقته، يدفعونه جميعًا إلى قصي بن كلاب، فيصنع الطعام

(١) ضمرت: تعبت ركائبهم وهزلت من كثرة السير.

(٢) غُبْرًا: معفرين بتراب السفر ومتابعيه.

(٣) وجوهها: رؤسها.

(٤) الرفادة: إطعام الحجاج.

للناس أيام الحج، يُشترد لهم الخبز واللحم^(١)، ويقدم لهم السويق^(٢) والتمر، ويحمل لهم الماء في حياض من الجلد. فلا يزال الحجاج في كرم قريش وضيافتها، حتى تنتهى أيام الحج، ويصُدُّروا عن مكة عائدين إلى ديارهم.

وهكذا انتهت إلى قصى بن كلاب، كل مظاهر الشرف والرياسة، لا يدخل أحد الكعبة حتى يكون قصى هو الذى يفتحها له، ولا يشرب رجل بمكة إلا من سقايته، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاماً إلا من طعامه، ولا تعقد قريش لواء حرب^(٣) إلا بيده، ولا تقطع أمراً من أمورها إلا فى داره. فهو صاحب الحِجَابَةِ والسَّقَايَةِ والرَّفَادَةِ واللَّوَاءِ والندوة، وصاحب الأمر والنهى فى شئون الدين والدنيا بمكة؛ وكان أمره فيهم كالدين المتبع، لا يعملون بغيره فى حياته ولا بعد موته.

(١) يثرد: يقدم لهم الثريد وهو الفت.

(٢) السويق: حب مجروش، ويطبخ أحياناً باللبن وأحياناً بالعسل وأحياناً بالماء. ولعله

هو المسمى عند البدو الآن «بالدشيشة».

(٣) لواء الحرب: قيادتها.

كشف زمزم

كانت السقاية مهمة شاقة

ظلت سقاية الحاج ورفادتهم في قريش سُنَّة معروفة وعادة مألوفة، منذ عهد قصي، يتوارثها أولاده وحفدته من بعده جيلاً بعد جيل، حتى وليها عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي. وكانت الرفادة شيئاً هيناً سهلاً، إذ كانوا يتعاونون عليها ويتساندون فيها، فيقدم كل بيت ما يستطيع من الطعام.

أما السقاية فكان تديرها شيئاً عسيراً جدًّا، يقاسى ولاية البيت في أمرها مصاعب ومشاق، نظرًا لقلّة الماء في مكة وما حولها؛ فكانوا يطوفون بالعيون والآبار والينابيع، يجمعون منها الماء ويضعونه في حياض من الجلد، ويحملونها معهم إلى حيث يسرون، حتى تنتهي أيام الحج.

فلما تولى عبد المطلب السقاية، أحمه أمرها همًّا عظيمًا، وبات يقضى ليله ونهاره مفكرًا في وسيلة سهلة، ييسر بها للحجاج سبيل الماء بلا عنت ولا مشقة، وكان قد سمع فيما سمع من

أفاصيل الرواة عن بئر زمزم، التي بناها جده إسماعيل ابن إبراهيم، ثم طمسها جُرهم وأخفت معالمها، حين نزحت من أرض الحرم، فتمنى لو قُدِّر له العثور على مكانها، ليكشف عنها، ويعيدها سقاية للحجاج، كما كانت في عهد جده إسماعيل، وظل مشغولاً بهذا الأمر ليله ونهاره.

رؤيا عبد المطلب

وفيما هو ذات ليلة يفكر في أمر السقاية وقد غلبه النوم، رأى كأن هاتفاً في منامه يقول له: يا عبد المطلب، احفر «طيبة».. فسأل عبد المطلب: وما طيبة؟ فانصرف عنه الهاتف ولم يجبه بشيء. فلما كانت الليلة الثانية، أقبل عليه ذلك الهاتف كما أقبل في الليلة السابقة، وقال له: يا عبد المطلب، احفر «بِرة».. قال عبد المطلب: وما بِرة؟ فانصرف عنه الهاتف ولم يجبه بشيء. فلما كانت الليلة الثالثة، عاد إليه الهاتف وقال له: يا عبد المطلب، احفر «المضنونة».. قال عبد المطلب: وما المضنونة؟ فانصرف عنه كذلك ولم يجبه بشيء.

فشغل عبد المطلب شغلاً عظيماً بأمر هذا الهاتف، وجعل يسأل نفسه عن معنى هذه الكلمات المبهمة، التي تلقى له في النوم لإلقاء، دون أن يفهم لها معنى أو يدرك لها حقيقة. فلما

كانت الليلة الرابعة أوى عبد المطلب إلى فراشه، وهو يخشى أن يزوره هذا الهاتف، فيلقى إليه بلغز جديد؛ فاستعاذ بالله، وتوجه إليه بنفس واجفة أن يكشف له عن سر هذا الهاتف، وأن يبين له حقيقة ما يرمى إليه إن كان هاتف خير، ويحفظه من شره إن كان شيطاناً.

ونام عبد المطلب وقد تحصن بحماية الله الذى لا يضر مع اسمه شيء؛ لما كادت عينه تستغرق في النوم، حتى أقبل عليه الهاتف يقول: احفر «زمزم».. فتلمل عبد المطلب في فراشه، وصلاح بالهاتف غاضباً: وما زمزم؟ فلم يغضب الهاتف، ولم ينصرف عنه كما كان ينصرف في كل مرة، بل نظر إليه مبتسماً، وظل يقول في أناة وهذوء: «لا تنزع ولا تُلذِم»^(١)، تسقى الحجاج الأعظم؛ وهى بين الفُرث^(٢) والدم، عند نقرة الغراب الأعصم^(٣)..»

فهب عبد المطلب من نومه فرحان مستبشراً، وجعل يتلفت حواليه، كأنما يبحث عن ذلك الهاتف ليستزيده من الشرح والإيضاح، فلم يجد غير نفسه، جالساً على سريره حيث كان،

(١) تنزع: لا تفرغ من الماء الشهى.

(٢) الفرث: ما يتخلف من كروث الذبائح.

(٣) الأعصم: الذى يكون في ذراعيه أو في إحداهما بياض وسالها أسود.

ووجد نور الصباح يملأ الحجرة، وضوء الشمس يغمر الأفاق من حوله.

حفر زمزم

حينذاك نهض من فراشه عجلان، وانطلق نحو البيت ينظر ما هنالك، فإذا الغراب الأعصم قائم كعادته في مذبح الكعبة، ينبش برجليه وينقر بمنقاره، حيث تذبح الأنعام التي تهدي إلى البيت، ويوزع لحمها على الفقراء والمساكين. وكان هذا الغراب يمتاز من غيره من الغربان، ببياض في إحدى رجليه؛ وكان قد ألفه الناس يأتي إلى هذا المكان، فيأكل مما تخلفه الذبائح من فرث ودم.

فلما رآه عبد المطلب فرح واستبشر، وأيقن أن هذا الهاتف لم يكن شيطاناً، وأن هذه الرؤى لم تكن أضغاث أحلام، وانطلق من فوره إلى داره فأق بفاًس ومِكتل^(١)، واصطحب معه وحيدته «الحارث»، وعاد مسرعاً إلى الكعبة، وأخذ يحفر حيث كان الغراب الأعصم ينقر وينبش.

وجعل عبد المطلب يحفر بهمة ونشاط، لا يبالي بما يلفحه من وهج الشمس، ولا بما يتصبب على جبينه من العرق؛ بل

(١) المِكتل: ما يملأ بالتراب، وهو المعروف الآن باسم «الغلق» و«المقطف».

هو ماض فيما قد دُعى إليه، يضرب الفأس بقوة، ويملاً المكمل بالتراب، ثم يناوله ولده الحارث، فيحمله الحارث بين يديه، ويمضى به غير بعيد، ثم يَكْبَهُ ذات اليمين أو ذات الشمال. فلا يكاد الحارث يُفرغ المكمل، حتى يتلقفه منه عبد المطلب فيملأه بالتراب ثم يرفعه إليه، وهو فيما بين ذلك يَرْتَجِزُ ويغنى :

لَاهُمَّ^(١) قد لُبِيت من دعائى وجئت سَعَى المسرع العَجَلان
ثَبَّتَ اليقين صادق الإيمان يتبعنى الحارثُ غير وان^(٢).
جدلان لم يحفل بما يُعاني^(٣) لا همَّ فلتصدَّق لنا الأمان
مالى بما لم ترَضَهُ يدان^(٤) *

والحارث من ورائه يردد أنغامه وأراجيزه، والمكمل بينهما رائج غاد، والفأس صاعدة هابطة، وصوت عبد المطلب الغليظ ينتشر منبسّطاً في الفضاء، فياضاً بالنشاط والغبطة، ومن ورائه صوت ولده الحارث ينبعث ليناً سهلاً، كأنه الصدى يأتى من البُعد البعيد.

(١) لاهم : اللهم.

(٢) غير وانى : مسرعاً غير مبطل.

(٣) فرحان لا يبالى بالتعب.

(٤) يعال : لا أستطيع أن أغضب أو أخالف امرأ.

* على هامش السيرة.

نذر عبد المطلب

واستيقظت قريش على صوت الفأس يرن في الأرض القوية،
وعلى أناشيد عبد المطلب تتردد في الفضاء. فلما رأوه يحفر بين
يدى الكعبة، ثاروا عليه يريدون أن يمنعوه، وكاثروه بأبنائهم
ومواليهم. ولولا أنه سيد قريش، وأن له فيهم سناً ومنزلة، وأن
رجالاً تدخلوا فيما بينه وبينهم، لخالوا بينه وبين ما يريد.

وعز على عبد المطلب أن يكاثره هؤلاء بأولادهم، وليس له
إلا ابنه الحارث، فاغروقت عيناه بالدموع، وتمنى على الله أن
يَهَبَ له عشرة من الولد، يقومون حوله ويمنعون^(١)، ونذر أن
يذبح لله واحداً منهم، إذ هم بلغوا عشرة من العدد.

ورأى رجال قريش ما ألم بعبد المطلب من الحزن، فتركوه
يحفر حيث كان؛ لما زال يحفر ثم يحفر، لا يكمل ولا يمل حتى
مضت ثلاثة أيام.

وكاد عبد المطلب أن يياس، وبدأ يساوره الشك في صدق
ما أنبأه به الهاتف، لولا أنه رفع الفأس ثم ضرب بها ضربة،
فأصابته شيئاً صلباً، فانتعش عبد المطلب، وأخذ يكشف عن

(١) يمنعون: يحمونه ويدافعون عنه.

ذلك الشيء حتى تبينه، فإذا هو غزالان من ذهب، ودروع
وأسياف وآلات حرب؛ فابتهجت نفسه، وعأوده الأمل من
جديد، فعاد يحفر وهو أكثر همة ونشاطاً.

وما زال يرفع الفأس ويخفضها، وهو يُنشد ويغنى، حتى
ضربت الفأس في حرف البئر الذي بناه إسماعيل.

هنالك كبر عبد المطلب، وصلاح في فرج وابتهاج: هذا
طويئ إسماعيل..! هذه بئر زمزم..! هذه سقاية الحجاج..!
فعرفت قريش أنه أدرك الماء، فأقبلوا إليه مسرعين، يريدون أن
يشاركوه في كل ما عثر عليه.

قال عبد المطلب: أما الذهب والسلاح فليس لي ولا لكم؛
إنما هو للكعبة التي أهدى إليها؛ وأما الماء فاجعلوا بيني وبينكم
في شأنه حكماً، فإن حكم لكم به فهو ماؤكم، وإن حكم لي
فهو مائي الذي دُعيت إلى استنباطه وكشفه، وخُصِصْتُ به من
دونكم جميعاً.

قالوا: لقد أنصفتنا يا عبد المطلب، فنعم الرأي رأيك!

الاحتكام

وكان من عادة العرب في ذلك الزمان، أن يحتكموا إلى
الكهان والعرفان في شئونهم المهمة، فاتفقوا على أن يذهبوا

جميعًا إلى «كاهنة بنى سعد»، وكانت تقيم عند حدود الشام؛ وخرجت قريش بعشرين رجلاً من بطونها^(١)، وخرج عبد المطلب بعشرين رجلاً من بنى عبد مناف. فلما قاربوا حدود الشام، نَفِدَ ما كان معهم من الماء، وضلوا في متاهة جرداء مقفرة؛ وكان القيظ شديدًا والحر بالغًا، وضوء الشمس يسطع على الصخور فيجعلها كجمرات النار. فاضطُّروا إلى النزول حيث كانوا، وجعلوا يقلِّبون وجوه الرأى بينهم للخلاص من هذه المهلكة.

قال قائل منهم: يا قوم، إنه الموت لا محالة...! وإننا إذا واصلنا السير فسنبلك واحدًا بعد واحد، وتذهب آثارنا بددًا^(٢) بهذه الصحراء. فلنقيم هنا حيث نزلنا، وليحفِرْ كل واحد منا قبره بيديه، فمن مات منا دفناه في حفرة؛ حتى إذا لم يبق منا غير واحد، كان ذهاب واحد بددًا خيرًا من ذهابنا جميعًا، ولعل أهلنا أن يعثروا على قبورنا، إذا قُدِّرَ لهم أن يصلوا إلى مكاننا هذا.

فاستحسن القوم هذا الرأى وهموا يريدون أن يحفروا حفائرهم، لولا أن صالح فيهم عبد المطلب: يا قوم، والله

(١) البطون في أيام العرب تشبه العائلات في أيامنا.

(٢) بددًا: تبعثر في كل ناحية.

ما هذا برأى... ! وإنه لعجزُ منا أن نستسلم للموت وفيما بقية
من حياة... ! إنما الرأى أن ننهض من مكاننا هذا، وأن نواصل
السير ما بقيت فينا قوة؛ فلعل الله أن يبدل يأسنا أملاً،
ويشملنا برحمة من عنده، فنجد الماء في مكان آخر... !

ثم ركب ناقته وزجرها فهتت به قائمة؛ لكنها ما كادت
تستوى على قوائمها، حتى رأى عبد المطلب نبأً ينبثق تحت
أقدامها، ويتفجر منه الماء سائغاً عذباً.

فكبر عبد المطلب، وصاح بالركب: أبشروا يا قوم فقد
سقانا الله... ! فاندفع القوم إلى الماء يستقون، ويسقون جالهم
وركائبهم، وأحاطوا بعبد المطلب يتمسحون به ويباركونه،
ويقولون: قد - والله - حكم الله بيننا وبينك يا عبد المطلب!
إنكم يا آل عبد مناف لتَحْمِلُونَ أَنْفُسًا زكية، وقلوبًا طاهرة؛
وإنك يا عبد المطلب لأزكاهم نفساً، وأطهرهم قلباً، وأقربهم إلى
الخير، وأبعدهم عن الشر! وليس على الله من حرج أن يحوطك
بكرامته حيثما كنت!

ثم لوى القوم أعناق رواحلهم إلى مكة^(١) وهم يصيحون
بعبد المطلب: هيا إلى مكة يا سيد قريش؛ إن الذي سقاك

(١) لوى: وجههما إلى مكة.

بهذه الفلاة^(١)، هو الذى سقاك زمزم؛ فوالله لا نخاصمك فيها
أبدًا.. وانقلبوا جميعًا عائدين إلى ديارهم.
ومنذ ذلك اليوم، صارت زمزم حقًا خالصًا لآل
عبد المطلب، يسقون منها الحجيج ماء غدقًا^(٢).

(١) الفلاة : الصحراء.

(٢) غدقًا : كثيرًا.

فداء عبد الله

الوفاء بالنذر

تحققت أمنية عبد المطلب بن هاشم، وبلغ بنوه عشرة رجال، فأيقن أنه قد آن له أن يلى بنذره لله، ما دام الله قد أجاب دعاءه وحقق رجاءه. فجمع أولاده حوله، وقال لهم: إني تمنيت على الله ذات يوم، أن يمنحني عشرة من الولد، يحمى بهم كظهرى، ويشدّ بهم أزدى، ونذرت إن هو منحني هؤلاء العشرة، أن أذبح له واحدًا منهم، تقرّبًا إليه وشكرًا له على فضله. وها أنتم أولاء عشرة من أبنائي، تحوطونى من جميع نواحي، وتمثلون نفسى فخراً، وتزيدون فى اسمى ذكراً. فهل آن لى أن أفى بنذرى لله الذى أقرّ بكم عينى؟ فقالوا جميعاً: نعم..! وقدم كل واحد نفسه ليكون هو القربان.

فاغتبط عبد المطلب أيّما اغتباط، حين رأى أولاده يتسابقون إلى التضحية بأنفسهم فى سبيل مرضاته، وألقى عليهم جميعاً نظرة

شاكراً، وقام من فورهِ فاصطحبهم إلى سادن الكعبة، ليُقرعَ بينهم بِقداحه^(١).

استنباء القداح

وكان من عادة العرب كلما هموا بأمر عظيم، أن يلجأوا إلى القداح يستنبئونها قبل أن يُقدموا عليه، لما أشارت بفعله فعلوه، وما أشارت بتركه تركوه. وهى شئ أشبه بالقرعة التى نلجأ إليها فى أيامنا هذه. وكان لهذه القداح فى حياتهم أثر بالغ، إذ كانوا يؤمنون بها إيماناً شديداً، ويعتقدون أنها تعبّر عما تريد ألهتهم. وكان العرب قد اتخذوا لهم أصناماً آلهة، يعبدونها من دون الله، وشاعت عبادتها بينهم، حتى كان لكل قبيلة صم خاص بها، تقدّم له القرابين، وتذبح له الذبائح، وتستشيرهُ فى كل شأن من شئونها.

فلما ذهب عبد المطلب إلى الكعبة، طلب إلى سادنها أن يدير القداح بين أبنائه العشرة، فأُيِّم خرج القُدَح باسمه فهو الذبيح. فتقدم صاحب القداح فكتب أسماء البنين العشرة، ثم ضرب القداح، فخرج قُدَح عبد الله.

(١) القداح : جمع (قُدَح)، وهى عصا قصيرة مصفولة، بعضها مكتوب عليه وبعضها غُفَل بلا كتابة.

مكانة عبد الله

وكان عبد الله أحب أبناء أبيه إليه، وآثرهم عنده، وكان له بين أهل مكة مَعَزَّة ومكانة؛ إذ كان يسمو على شبابها بخلق هادئ، وعقل رزين، ولسان عذب الحديث، ووجه دائم البشاشة؛ وكان فوق ذلك عفاً نقياً، بعيداً عن كل ما يشين الشباب من نَزَقٍ^(١) وجهالة.

من أجل ذلك كان وقوع القداح عليه خَطْباً جسيماً، أثار أهل مكة جميعاً على عبد المطلب؛ فتقدم إليه شيوخها وشبابها، ورجالها ونسائها، يحاولون أن يَشْنُوهُ عن رأيه في ذبح عبد الله؛ فيأبى عبد المطلب إلا أن يُوفى بنذره كما اختارت له الآلهة.

وتقدم عبد المطلب إلى عبد الله يقوده إلى المذبح، وتقدم عبد الله إلى أبيه شجاعاً باسم الثغر؛ فأحاطت به نساء قريش، وتعلقت به أخت له تحول بينه وبين أبيه، وأخذت تستصرخ القوم ليمنعوا أخاها من الموت. وكان صراخها مؤثراً وسكاؤها مثيراً؛ فتقدم رجال من قريش يقولون: يا عبد المطلب، إنك بهذا تريد أن تَسُنَّ فينا سُنَّةَ سيئة...! لقد علمت يا عبد المطلب

(١) النَزَقُ: الطيش.

أنك شيخنا ورئيسنا، فلو مضيت تذبح ولسدك اليوم، فإنه سيتبعك رجال من قومك فيذبحون أبناءهم، تأسياً بك واقتداء بسنتك؛ فنصبح وقد غدا الذبح في أبنائنا سنة متبعة.. ! فبالله عليك يا عبد المطلب إلا عدلت عن هذا الرأي، فإن فيه فناءً وذهاب قوتنا. فإن كان لابد لك من الوفاء بنذرك، فلنحتكم نحن وأنت إلى عرافة يثرب؛ لما حكمت به فهو الحكم بيننا وبينك.. !

فلان عبد المطلب أمام هذا القول، وأرجأ ذبح عبد الله حتى تحكم العرافة بينه وبين رجال قومه؛ وغدا الجميع عمتين^(١) رواحلهم، يُغَدُون^(٢) السير في طريقهم إلى يثرب.

حكم العرافة

فلما وصلوا إلى هنالك، عرضوا قضيتهم على العرافة، فقالت لهم: أنظروني^(٣) ثلاثة أيام حتى أثبتن وجه الصواب في قضيتكم. فلما كان بعد الثلاثة الأيام ذهبوا إليها، فقالت لهم: كم الدية^(٤) فيكم؟ قالوا: عشر من الإبل. قالت: فأتوا بعشر

(١) عمتين: راكبين.

(٢) يغدون: يسرعون.

(٣) أنظروني: أمهلوني.

(٤) الدية: ما يدفع عوضاً عن القتل.

من الإبل ففروها، وقربوا صاحبكم، ثم اضرِبوا عليها وعليه القداح؛ فإن خرجت القداح عليها فاذبحوها، وإلا فزِيدوا الإبل عشراً، ثم اضرِبوا القداح عليها وعلى صاحبكم؛ فإن خرجت عليها فاذبحوها، وإلا فزِيدوا الإبل عشراً؛ وهكذا لا تزالون تزيِدونها عشراً بعد عشر، حتى تقع القداح على الإبل، فسقِ وقعت على الإبل، فاعلموا أن ريسكم قد رضى بها فداء لصاحبكم.. فرجع القوم وقد رضيت نفوسهم بهذا الحكم، واطمأنت له قلوبهم.

فلما رجعوا إلى مكة جاءوا بعشر من الإبل، فضرِبوا عليها وعلى عبد الله بالقداح، فخرجت القداح على عبد الله؛ فزادوا الإبل عشراً، ثم ضربوا القداح فخرجت على عبد الله، فزادوا الإبل عشراً.. ثم ما زالوا يضربون بالقداح ويزيدون عشراً بعد عشر، حتى بلغت الإبل مائة؛ ثم ضُربت القداح فخرجت على الإبل. فصاح القوم في ابتهاج: ها قد رضى ريك يا عبد المطلب!

ولكن عبد المطلب - فيما يقولون - أبى أن يطمئن حتى تضرب القداح ثلاث مرات؛ فضرِبَت القداح ثلاثاً فخرجت على الإبل. فاطمأن عبد المطلب وأمر بالإبل فُنَحِرَت جميعها، وتُرِكَت طعاماً لأهل مكة، لا يُصَدُّ عنها إنسان ولا حيوان ولا طير.

وكان فداء عبد الله عيدًا لأهل مكة، قَضَوْا فيه أيامًا حافلة
بالطعام، مليئة بالسُرور والبهجة، وكان عيدًا سابعًا شاملًا، نَعِم
فيه كل حي بمكة حتى الطير والحَيوان والوحش.
وأراد عبد المطلب أن يستكمل بهجة هذا العيد بهاءه،
فذهب من قُورِه إلى سيد بني زُهرة، وَهَبَ بن عبد مناف،
فخطب إليه ابنته «آمنة» على ولده عبد الله.

رحلة القافلة

الصهر الكريم

كان بيت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وبيت وهب بن عبد مناف بن زُهرة، من أعلى البيوت في قريش، إذ كان عبد المطلب بن هاشم سيد بنى هاشم، وكان وهب ابن عبد مناف سيد بنى زهرة؛ وكان كلا البيتين مَوْسُومًا بالشرف والكرامة، والطهر والعفاف، ورعاية الدين والفضيلة. فكان زواج عبد الله بن عبد المطلب، من آمنة بنت وهب، زواجًا موفقًا ميمونًا، اتحد فيه عنصر طيب بعنصر طيب، وانضم به أصل كريم إلى أصل كريم، وأصنهر بيت عريق في شرف الآباء وطهر الأمهات، إلى بيت يكافئه في الشرف والطهارة؛ فكان من الطبيعي أن تكون ثمرة هذا الصهر ثمرة طيبة مباركة، وأن يكون نسل هذا الزواج نسلًا طاهرًا كريمًا: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾^(١).

(١) سورة الأعراف الآية ٥٨.

كان كلا الزوجين سعيدًا بصاحبه، يبادلّه عواطف الحب والتقدير، وينظر إلى الحياة معه نظرة فياضة بالسعادة، ملؤها الأمل الحلو، والرجاء الباسم، والتطلع إلى المستقبل البعيد في طمأنينة وثقة. ولكن الله الذى يدبر شئون الخلق على مقتضى حكمته، لم يشأ لهذين الزوجين أن يندفعا مع الآمال إلى بعيد، فقدر عليهما أن يفترقا إلى الأبد، وهما لا يزالان فى ثياب العُرس.

رحلة الشتاء والصيف

وكان لقريش رحلتان للتجارة: رحلة فى الشتاء إلى بلاد اليمن وما وراءها، ورحلة فى الصيف إلى بلاد الشام وما يجاورها. وكانت القوافل فى كلتا الرحلتين تقوم من مكة، محمّلةً بمتاجاتها من الصوف والشعر والوبر والجلود، وتعود محملة ببضائع الشام والعراق ومصر واليمن وبلاد الحبش. وكان عبد المطلب يحب أن يأخذ أبنائه بالمران على أساليب التجارة، فكان يرسلهم واحدًا بعد واحد، فى رحلة الشتاء والصيف. فلما كانت هذه الرحلة، وقع اختياره فيها على ابنه عبد الله.

كانت الرحلة فى هذه المرة قاصدة إلى بلاد الشام، وكان الوقت صيفًا، والحر شديدًا، والسفر مُضنيًا؛ وكانت ظروف عبد

الله كلها تدعو إلى الإقامة، ولكن عبد الله لم يشأ أن يخالف أمر أبيه، واندفع مع القافلة في الصحراء المترامية الأطراف، متعرضاً لأخطارها ومشقاتها، وترك وراءه عروسه الحبيبة، تقاسى مرارة الفراق العاجل، والوحشة المباغتة، والوحدة التي جاءت مبكرة على غير انتظار.

وانطلقت القافلة في طريقها إلى الشام، تقطع الفياق البعيدة، وتخوض الرمال الواسعة، وتصلطى وقدة الشمس التي تُذيب الرموس، وحرارة العطش التي تفتت الأكباد، وتعانى من قسوة الصحراء ما تعانى، حتى وصلت إلى أسواق الشام؛ فباع ما شاء الله لها أن تبيع، واشترت ما شاء الله لها أن تشتري، ثم قفلت راجعة من حيث جاءت، حتى وصلت في طريقها إلى مدينة «يَثْرِب».

وكان عبد الله قد مرض في أثناء الطريق، وأنهك قواه طول السير في الصحراء، فأوى إلى أخوال أبيه في المدينة، ليستريح ويستريح، ويقيم عندهم أياماً حتى يُبْل من مرضه. أما القافلة فقد تركت رفيقها عبد الله عند أخواله، وواصلت سيرها إلى مكة، لتصل إليها في الموعد المعتاد.

عودة القافلة

وكان أهل مكة يحتفلون برجوع القافلة أيما احتفال، فتخرج جميع الشبان لترافق القافلة من بعيد، ويجتمع الكهول والشيخوخ في دار الندوة، يتنسمون الأخبار ليطمئنوا على أموالهم ومتاجرهم، وتستعد النساء في البيوت لاستقبال العائدين من الأبناء والأزواج والإخوة؛ ويصعد الأطفال على شرفات المنازل ورموس الجبال، يتطلعون إلى العير المحملة بجديد الثياب، ولذيل الطعام والشراب، وهم يُمنون أنفسهم بيوم حافل بالمتع واللذائذ؛ وتتهيا النفوس والقلوب للقاء الأحبة، بعد طول الفراق وكثرة الأشواق.

وكان آل عبد المطلب قد تهيئوا لهذا الأمر، كما تهيأ له غيرهم من الناس، فجلس عبد المطلب في دار الندوة مع الجالسين من رجال قريش، وخرج أبناؤه يستقبلون القافلة مع الخارجين من شباب مكة، وتسابق الأطفال إلى الشرفات العالية يتطلعون في فرح ونشوة، وجلست آمنة بنت وهب تنظر وتتشوف، وقد أعدت بيتها وهيأت نفسها للقاء الحبيب الغائب.

ودخلت القافلة مكة، يحيط بها جمع حاشد من الشباب، وهلل الأطفال وزغردت النساء، واندفع كل حبيب إلى حبيبه

يعانقه ويقبّله، وأخذ عبد المطلب يدور بعينيه في القادمين يحاول أن يرى ولده عبد الله فلا يراه... أين عبد الله يا قوم...؟ قال قائلهم: لقد مرض عبد الله في الطريق، وتخلف عند أخواله في يثرب، ليستريح عندهم أيامًا ثم يعود.

أين عبد الله؟

وفوجئ عبد المطلب بما لم يكن يتوقع، ولكنه لم يلبث أن تمالك نفسه، وأمر ولده الحارث بأن يذهب على الفور إلى يثرب، ليحمل إليه أخاه عبد الله! فما لبث الحارث أن أعد راحلته، وانطلق بها إلى يثرب مسرعًا... لكنه لم يكد يصل إلى هناك، حتى استقبله الناعي على بابها، ينعى إليه أخاه عبد الله!

وعلم الحارث أن عبد الله قد مات، ودفن هناك عند أخواله، فعاد إلى مكة كاسف البال مكلوم الفؤاد، فالتقى إلى أبيه بالنبا المشتوم؛ فاضطرب عبد المطلب له اضطرابًا شديدًا، وتحير كيف يُلقى هذا النبا الفاجع إلى آمنة بنت وهب. وأطرق برأسه إلى الأرض، ومكث برهة يفكر... ولكن، ماذا...؟ أليس كلنا ميتين؟ إذن فلا بد مما ليس منه بد...!

موقف عصيب

وقام الشيخ متحاملاً على نفسه، يمشي الهويناً في وُجُوم
واكتئاب، ورجال قریش يحيطون به؛ حتى إذا وصل إلى بيت
آمنة، أخذ يتكلف الابتسام، ويتظاهر بالبشر، ثم وقف أمامها
حيران لا يدري كيف يبدأ ولا كيف ينتهى... ونظرت آمنة إلى
وجه الشيخ فأدركت كل شيء، وأرادت أن تنقذه من حيرته،
فتقدمت نحوه وهي تقول: أطل الله عمرك يا أبا... أفيك
العِوض وفيك الرجاء كله... ثم ارتحلت في حُسنه باكية.
فجعل الشيخ يضمها إلى صدره في حنان بالغ، ودموعه تنهل
من عينيه فياضة غالبية.

وأحسن عبد المطلب أن الحزن قد غلبه على أمره، وخرج به
عن وقاره، فأنفلت مسرعاً إلى الكعبة، يشكو إلى الله بئس
وتحزنه، وترك آمنة غريقة في دموعها وأشجانها، وحوها نساء
بني هاشم، يحاولن تعزيتها وتخفيف لوعتها.

مولد الرسول ﷺ

أحلام آمنة

لم يستبِدَّ الحزن بآمنة بنت وهب. ولم يَكْجِمِ طويلاً على صدرها؛ فسرَّعان ما جَلَّتْ عنها غَشِيَةُ الحزن التي أَلَتْ بها، وأحسَّتْ بَرُوحَ من السكينة يغشاها، فيملاً قلبها بالطمأنينة والرضا لما جرى به القضاء. وأخذت نفسها تفتتح للحياة من جديد، وعادوها المرح والنشاط كما لو لم يكن قد حدث شيء. بل إنها كانت تُحسُّ بفيض غامر من السعادة يفيض عليها، فيجعل الدنيا أمامها أكثر بهجة مما كانت. وهذا ما كانت تعجب له أشدَّ العجب، وتدافعه أشدَّ المدافعة فلا تستطيع.

وأعجبُ ما كانت تَعَجَّبُ له آمنة، أن المواتف كانت تتوارد على نفسها بأنها ليست وحيدة، وأن موت عبد الله لم يكن شراً يراد بها، وأن الغد القريب ينتظرها بخير كثير. وكانت إذا أوت إلى فراشها من الليل سبحت في جو من الأحلام السعيدة، وتراءت لها في النوم ألوان شتى من النور البهّي، ترسَّمْ أمامها

أبدع المناظر؛ وأحاطت بها أطياف باسمه من الولدان والمحور،
تتغنى بأحسن الأغاني، وتُنشد أعذب الألحان؛ حتى إذا طلع
النهار واستيقظت أحست بفيض من النشاط والأنس يغمرها إلى
الليل.. فهي دائماً أبداً في غمرة من النشوة والرضا، لا تعرف
لها مصدرًا، ولا تدرى لها سببًا.

وفي إحدى الليالي أوت آمنة إلى فراشها كعادتها؛ فرأت
كأن طيفًا لطيفًا يدنو منها، ثم يهتف بها في همس: لقد حملتِ
يا آمنة، وعما قريب تكونين أمًا..!

بين الشك واليقين

وانتظرت آمنة أن تحس ما تحسه الحوامل من أسباب
الضعف والوهن، ولكنها لم تجد في نفسها ضعفًا ولا وهنًا.
ومرت الأيام تَلَوَّ الأيام وآمنة تترقب أعراض هذا الحمل
فلا تجدها.. لقد كانت تغدو في كل يوم وهي أكثر نشاطًا منها
في اليوم الذي قبله، حتى لقد أنكرت ما أنبأها به الهاتف،
وظنت أنها أضغاث أحلام.

ولكن ذلك الهاتف كان حريصًا على ألا يترك للشك مجالًا
إلى نفسها، إذ كان يعاودها من حين إلى حين، فيلقى إليها في
كل مرة نبأ جديدًا... فقد أنبأها ذات ليلة بأنها حملت بسيد

هذه الأمة، ومرة أنبأها بأنها ستكون أمًا لخير أهل الأرض،
ومرة أخرى أمرها بأن تسميه «محمدًا»...!

وغدت آمنة في حيرة، أتصدق ذلك أم تكذبه؟... من
أجل ذلك كانت تلجأ إلى الأذنين من صواحبا وذوات قرباها،
فتتفصى إليهن ببعض أخبارها، وتستأنس بأرائهن في الحمل
وما يجذب من أعراضه وأحواله؛ وتنظر في حالها منه فيغلب
عليها الشك، ثم تذكر الهواتف والرؤى وما تراه في أحلامها من
البشائر والآيات، فيغلب عليها اليقين.

وما زالت كذلك بين الشك واليقين، حتى أحست بشائر
الحمل واستبانت حقيقته. هنالك صدقت أن هذه الهواتف لم
تكن إلا هواتف صدق، وأن تحملها هذا لا بد أن يكون له
شأن؛ فكتمت أمرها عن صواحبا، وخافت على جنينها أن
تصيبه عين حاسد.

نور يضيء المشرق والمغرب

وفي إحدى الليالي رأت فيما يرى النائم، كأن نورًا قد خرج
منها فأضاء ما بين المشرق والمغرب، حتى رأت على ضوئه قصور
«بُصْرَى» من أرض الشام.. وما زالت آمنة تتوالى عليها البشائر
والآيات، حتى أتمت شهور الحمل، وولدت رسول الله، صلى

الله عليه وسلم. وكان ذلك في يوم الاثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأول، والعاشر من أغسطس سنة ٥٧٠، وهو العام الذي حدثت فيه حادثة الفيل: إذ جاء أبرهة وأصحابه ليهلكوا الكعبة، فأرسل الله عليهم طيرا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول.



وَتَحَدَّثَ أَمَنَةُ بِنْتُ وَهَبٍ عَنْ نَفْسِهَا فَتَقُولُ: «لَقَدْ عَلِقْتُ بِهِ»^(١) لما وجدت له مشقة حتى وضعت؛ فلما فصل مني^(٢) خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب؛ ثم وقع على الأرض معتمداً على يديه، رافعاً رأسه إلى السماء.

وتقول زوجة أبي العاصي ممن حضرن ولادة أمنة: «لقد شهدت ولادة أمنة بنت وهب، ليلة ولدت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لما شيء أنظره في البيت إلا نور. ولقد رأيت النجوم تدنو ثم تدنو، حتى لقد خشيت أن يَقَعَنَّ عَلَيَّ».

ويحدث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن نفسه فيقول: «من كرامتي على الله أني وُلِدْتُ نَحْتُونًا، ولم ير سَوَاتِي أَحَدٌ».

(١) علقت به: حملته.

(٢) فصل مني: ولد.

فرحة عبد المطلب

وأرسلت آمنة جاريتها إلى عبد المطلب، تخبره بأن قد ولد له غلام؛ فجاء مسرعًا ينظر.. فلما جاء حدثته آمنة بما كانت ترى منذ حملت به، وما قيل لها فيه، وما أمرت أن تسميه. ففرح به عبد المطلب فرحًا شديدًا، ونظر إليه فأعجبه، ونزل من نفسه منزلة عظيمة؛ فجعل يقول: «لَيَكُونَنَّ لابني هذا شأن.. ١»، ثم حمله بين يديه، وانطلق به إلى الكعبة، فقام يدعو ويشكر الله، عز وجل، ويقول:

«الحمد لله الذي أعطاني هذا الغلام الطيب الأرداني»^(١)
أعني بالبيت ذي الأركان حتى أراه بالغ البنيان»^(٢)

فلما كان اليوم السابع، وهو يوم العقيقة عند العرب، ذبح جُزُوراً^(٣) وأطعم المساكين والفقراء، ودعا رجالاً من قرش فحضرُوا وطعمُوا، وهنَّأُوا بالطفل السعيد، وتمنَّأُوا له رفعة الشأن وبركة العمر؛ فلما أكلوا قالوا: «يا عبد المطلب، أرايت ابنك هذا الذي أكرمتنا على وجهه»، ما سمَّيته؟ قال: سمَّيته

(١) الأردن: الثياب، وطهارة الأردن كناية عن البراءة من العيوب.

(٢) بالغ البنيان: مكتمل الرجولة.

(٣) الجوز: الجمل أو الناقة.

«محمدًا». قالوا : لما رَغِبْتُ به عن أسماء أهل بيته ؟ قال : أردت أن يحمد الله في السماء، وأن يحمد خلقه في الأرض.

* * *

وكان أول من أرضع رسول الله نُؤَيَّةُ، جارية عمه أبي لهب؛ ومع أنها لم تُرضعه سوى أيام فقد ظل يحفظ لها هذا الجميل، وما زال يكرمها ويبرها حتى ماتت وهو بالمدينة، فلما ماتت سأل عن ابنها مسروح - وكان أخا له في الرضاعة - ليصله مكانها، فعلم أنه مات قبلها.

الرَّضَاع

مراضع البادية

كان من عادة الأشراف من أهل مكة، أن يعيشوا بأطفالهم إلى البادية، يقضون فيها مدة الرضاع في حضانة المراضع من نساء البدو، بعيدين عن جو المدينة وهوائها الوَحْمِ الثقيل؛ إذ كانوا يعتقدون أن جو البادية أصح، وأنقى وأحسن أثرًا في نمو الأطفال وزكائهم^(١).

وكانت المراضع من نساء البادية يأتين إلى مكة من آن إلى آن، يلتمسن الرضاع من الأطفال؛ وكانت الأمهات من نساء السادة يُلقين بأولادهن إلى هؤلاء المراضع، ويُغدقن عليهن من الأجر والبر، بمقدار ما طُبعت عليه نفوسهن ونفوس أزواجهن من الكرم والسخاء.

وكانت المراضع يبيحن أول ما يبيحن عن ذوى الأباء من أبناء الأغنياء والسادة، طمعًا فيما ينالهن من بر الأباء ونفحاتهم؛

(١) الزكاة : ١٥٠.

أما يتامى الأطفال - ولا سيما الفقراء منهم - فلم يكونوا في موضع الرغبة من هؤلاء المراضع.

وكان رسول الله ﷺ قد ولد يتيمًا، ليس له إلا جده عبد المطلب وأمة آمنة، فلم تكن حاله تلك مما يُغري به المراضع من نساء البادية. وكان قد وفد على مكة ركب من المراضع، من بادية بنى سعد بن بكر بن هَوَازن، يلتمسن الرضعاء من أطفال الأشراف والسادة من قريش، فعرضت عليهن آمنة رضيعتها فكلهن زَهْدُن فيه، لأنه يتم ليس له أب يطمعن في بَرّه.

حليمة

وكان من بينهن امرأة تسمى «حليمة بنت الحارث»، وكانت قد قَدِمَتْ مع زوجها وطفل لها رضيع، في حال تدل على شدة الفقر والجذب في بادية بنى سعد.. كانت حليمة بادية الضعف والهزال، وكان زوجها ظاهر البؤس والفاقة، وكان طفلها لا يكف عن الصراخ لحظة، من شدة ما به من الجوع. وكانت قد قَدِمَتْ على أُنَّان لها قَمَرَاء^(١) مهزولة، لا تكاد تحملها قوائمها من الضعف؛ حتى لقد كانت حليمة وأُنَّانها موضع

(١) أُنَّان قراء: حمارة بيضاء.

السخرية من زميلاتها في الركب، لشدة ما كانت عليه من التعثر
والرَّثْث^(١) في أثناء غُدُوهم إلى مكة. وكان زوجها قد قدم معها
على ناقة ضامرة مُسِنَّة، لا يَبْضُ ضرعها بقطرة من اللبن^(٢).
فلما حط الركب رحاله في أرض مكة، ذهبت حليلة
كما ذهب غيرها إلى أمانة. فلما علمت بأن طفلها يتيم لا أب له
ولا مال، زَهِدت فيه كما زهدت صواحبها، وقالت كما قلن:
وما عسى أن يصنع لنا جده وأمه؟

وحصلت كل مُرضع منهن على رضيع لها من أبناء السادة؛
إلا حليلة، فإنها رجعت من دونهن بغير طفل.. قال لها
زوجها: ما بالك يا حليلة قد عدت من دون صاحباتك صِفْرَ
اليدين؟ قالت: لقد كان حظي اليوم نَكِيدًا؛ لما وجدت من
الرضعاء سوى طفل يتيم قد مات أبوه، وليس له إلا جده
وأمه، فزهدت فيه كما زهدت صواحبى، وقلت: وما عسى أن
يصنع لنا جده وأمه، وحالنا كما تعلم في هذه السنة الشديدة؟
لكننى والله مازلت مشفقة على هذا اليتيم مُذْ رأيتُه، ومازالت
نفسى تراودنى أن أعود إليه فأخله، حَذَبًا عليه وتعلقًا به،
لا رغبة فيما يعود علينا بسببه من بر..!

(١) الرثث: البطء.

(٢) ناقة مهزولة عجوز، جفت أنداؤها من اللبن.

قال لها زوجها : وما علينا إذا نحن أخذنا هذا اليتيم
يا حليلة ؟ فلأن ترجعى ومعك هذا اليتيم، خير من أن ترجعى
دون صواحبك فارغة اليدين. قالت حليلة : إني والله به
لَعَالِقَةٌ^(١)، ولكنك تعلم شدة ما بنا من حاجة إلى المعونة والبر
قال زوجها : اذهبي إليه فخذيه، فلعل الله أن يجعل لنا فيه
بركة... !

النسمة المباركة

فلذبت حليلة إلى آمنة فأخذته منها. فما هو إلا أن وضعت
في حجرها وضمتها إلى صدرها، حتى حَفَلْ ثديها وأقبلا عليه
بما شاء من لبن، فوضع حتى شبع؛ ثم أخذت وليدها الآخر
فوضعت على ثديها، فوضع كذلك حتى شبع. وهكذا رضع
الطفلان حتى امتلأا شَبَعًا وِثْيًا، وكانت حليلة من قبل لا تحب
في ثديها ما تسد به رفق وليدها المسكين.

وجلست حليلة تحكى لزوجها ما رأت، وهو يعجب لما
تحدثه به ويقول : لعل الله قد عطف على رضيعك يا حليلة،
فأطعمه ببركة هذا اليتيم الذى عطف عليه... !

وكان الجوع قد اشتد به وبزوجته، وأرهقها العطش وشدة

(١) تعنى أنها شديدة التعلق به والرغبة فيه.

الحر؛ فقام إلى ناقته يعتصر منها رشفة لبن يتبلغان بها، فما راعه
إلا ضرع الناقة حافلاً ممتلئاً؛ فما هو إلا أن يمسه بيده حتى يذّر
منه اللبن درّاً غزيراً، فيشرب وتشرب زوجه حليلة، حتى يكاد
الرّئي يخرج من أظفارهما.

هنالك صلح الزوجان فرحاً واغتباطاً: لقد - والله -
حصلنا على نسمة مباركة..! وأقبلا على الطفل يُشبعانه ضماً
وتقبيلًا.

وقامت حليلة إلى أتانها فركبتها، وقام زوجها إلى ناقته
فركبها، واندفعا في الطريق ليلحقا بالركب، وكان الركب قد
خلفهما وأمعن في السير إمعاناً شديداً. وكان عجباً من العجب
أن هذه الأتان الهزيلة، التي كانت لا تكاد تخطو حتى تعثر،
ولا تكاد تنهض حتى تقع، قد انطلقت الآن في طريقها
كالسهم؛ فهي تطوى الأرض طياً، وتنهبها نهباً، ومن ورائها
الناقة العجفاء^(١) تلاحقها ملاحقة شديدة، وتسوقها سوقاً عنيفاً.

فما هي إلا برهة يسيرة، حتى أدركت حليلة صواحبا في
الركب، وزاحمتن بأتانها العرجاء حتى خلفتهن ورائها، وهن
يتضاحكن منها ويقلن لها: ارفقي بنا يا ابنة أبي ذؤيب! أهذه
أتانك العرجاء التي كنت تركبينها في الغدو؟.. فتضحك حليلة

(١) العجفاء: الهزيلة.

وتقول : إنها والله لهى .. ! فيقلن متعجبات : لا والله ، إن لها
لشأنا .. !

بركة فى كل شىء

وتقبل حليلة إلى بادية بنى سعد، وترى من بركة هذا اليتيم
ما لم يكن يخطر لها ببال : خير يذُرُّ عليها من كل ناحية،
وبركات تجلُّ عندها فى كل شىء .. هذه أغنامها تخرج إلى
المراعى المجلبة مع أغنام غيرها من الحى فتعود غنمها حافلات
الضروع ممتلئات البطون، وتعود أغنام سواها جياعا ضامرات؛
حتى ليظن الناس أن غم حليلة ترعى فى المكان الخصب، وأن
أغنامهم ترعى فى المكان الجذب؛ فيعودون على رعيانهم باللوم
والتقريع، يقولون : لم لا ترعون حيث ترعى غم بنت أبى
ذؤيب؟ فيقسم الرعيان أنهم لا يرعون إلا حيث ترعى غنمات
حليلة.

وهكذا ظلت حليلة عامين كاملين، وهى فى كل يوم ترى
عجبا من بركة هذا اليتيم، حتى أتمت مدة رضاعه، وأصبحت
ولا بد لها أن تعود به إلى أمه. فجاءت به إليها وهى أشد
ما تكون رغبة فى بقاءه معها.

فلما رآته آمنة سرت به سرورا عظيما، واغتبطت أيما اغتباط

حين رآته غلاماً جَفراً^(١) قد زكا ونما، حتى لكانه ابن أربع وهو لم يجاوز الستين بعد. فبرّت حلّمة وأرضتها، وشكرت لها ما رأت من عنايتها وإخلاصها.

قالت حلّمة: لقد - والله - شَبَّ غلامك شاباً ما يَشِبُّه الغلمان، وإن لأخشى عليه وباء مكة؛ فهلا أذنت لنا أن نعود به مرة أخرى إلى البادية، حيث الهواء الصحو، والجو المنطلق، والفضاء الرحيب، حتى يم ثَمَامُه ويشتد عُودُه؟ قالت آمنة: لا عليك أن تفعل يا ظَنُر^(٢)، فهو طفلي وطفلك حيث كان.. فشكرت لها حلّمة، وعادت به إلى البادية، وهى لا تملك نفسها من الفرح والاعتباط.

(١) جَفراً: نامياً رابياً.

(٢) الظنر: الموضع. ومعنى العبارة: إنها موافقة على أن تعود به حلّمة إلى البادية.

البادية

العودة إلى البادية

رجعت حليلة برضيعها سعيدة مسرورة، ورجع رضيعها كذلك سعيدًا مسرورًا بعودته إلى البادية، فقد ألفت عيناه فضاءها الرحب، الذي لا تحده حدود ولا تقيد قيود، وألفت نفسه حياة البساطة، التي تلائم طبيعة الأطفال بما فيها من حرية وانطلاق. لما كادت ظئره حليلة تصل به إلى البادية، حتى انطلق فيها بملء حرته، يَدْرُجُ مع الأطفال حيث يدرجون، ويمرح حيث يمرحون، على رمالها السهلة، وبطاحها الواسعة، وأرضها المنبسطة.

وأزخت له ظئره العنان كما ترخيه لأولادها، فكان يخرج معهم إلى المراعى حيث ترعى الأغنام، وأخته « الشَّيْء » تحضنه^(١) وتراعيه؛ فتحمله أحيانًا إذا اشتد الحر وطال الطريق، وترسله أحيانًا فيدْرُج وراء الخراف والنعاج يَحْوشِها بعصاه، وقدماء

(١) تحضنه: من الحضنة وهي رعاية الطفل والقيام بهشونه.

الصغيرتان تغوصان في الرمال السهلة الكثيفة، فيكبو فوقها. ثم ينهض، ثم يكبو ثم ينهض.. حتى تدركه أخته الشبابة فتأخذه بين ذراعيها، وتضمه إلى صدرها، وتطيع على خديه قبل الحنان الخالص، ثم تعود به إلى الظل، حيث يجلس الرعيان الصغار، في قبة^(١) شجرة من الأشجار القليلة، أو تل من التلال العالية، أو صخرة من الصخور البارزة، هارين من حرارة الشمس القاسية ووطأتها الشديدة.

رعيان الغنم

هنالك يجلسون جميعاً، غارقين في صنوف شتى من اللهو؛ يعملون أكواماً من الرمال، أو يقيمون بيوتاً من الحجارة، أو يقومون بتمثيل بعض مظاهر الحياة في البادية، في بساطة لليلة، وسداجة بريئة، فلا يزالون كذلك حتى يُحسّوا ألم الجوع، فيصيحوا بإخوتهم وأخواتهم ليسعفهم بالطعام. فرعان ما يُقبل الرعيان الكبار إليهم، يحملون الطعام في مناديلهم، فيفرشونها على الأرض، ويبسّطون عليها الطعام، ويستدير الجميع حولها حلقاً؛ ثم يقبلون على طعامهم هذا الخشن، فيلتهمونه التهاماً، في شهية مفتوحة، ونفس راغبة، فإذا ما انتهوا من ذلك استلقوا

(١) القبة: الظل.

على الرمال، واستسلموا للنوم، فكان الرعيان الصغار أسرعهم له استجابة، فما أسرع ما يُلقى بهم في أحضانه، ويطير بهم في جو من الأحلام السعيدة؛ فلا يزال ينتقل بهم من عالم إلى عالم، حتى يوقظهم من الشمس، أو صوت الكلاب الحارسة، وهي تنبح أحد القادمين من الغادين أو الراحين.

حينذاك يُهبُّ الرعيان سراعًا، يتفقدون أغنامهم، فيرون بعضها لا يزال راقداً، وبعضها قد استدرجته طراوة المساء، فأخذ يسرح فيما حواليه، يلتقط ما عسى أن يجده من أصواد الحشيش والعشب، أو لحاء الشجر وفروعه وأوراقه. . حتى إذا امتدت الظلال، وهدأت وقدة الشمس، وهبت نسمات المساء عليه باردة، أخذوا عصيهم وصاحوا بأغنامهم فهبت من مراقدها، فيجولون بها جولة أو جولتين، ثم يعودون بها مع الغروب إلى الحى، فيلقاهم أهلهم بالبشر والسرور إن كانت شباعًا، وباللوم والتفريع إن كانت جياحًا.

ليالى البادية

ويُسط الليل رداءه على البادية، فيأوى كل إلى كِنِّه^(١)، ويجتمع ما تفرق من شمل القوم حول الطعام، فيتناولون عشاءهم

(١) الكن: السكن.

من لبن الأغنام أحياناً، ومن لحومها أحياناً، قانعين في أكثر الأحيان بلقيحات من خبز الشعير، أو بشيء من حب الشعير الجاف يَسْفُونه سَفًا، ثم يُسِفُونه بالماء في قناعة ورضا.

فإذا ما انتهى العشاء، تَحْلُقُ^(١) الرجال حول النيران يَسْمُرُونَ، وتجمع الأطفال يلعبون ألعابهم الساذجة، في نور القمر الزاهي، أو في ضوء النجوم اللامعة؛ فأحياناً يمثلون غارة قوم على قوم، فتقوم بينهم معركة شديدة، ينتصر فيها فريق وينهزم فريق، وأحياناً يمثلون هجمة الذئب على الغنم، يقومون فيها بدور الكلاب والرعيان في مقاومة الذئب، حتى يفر الذئب هارباً؛ وأحياناً يتحلقون حول واحد منهم، أو حول واحد من قُصَّاص الحى، يستمعون إلى حكاياته وأمثاله.

وهكذا تمر الأيام والليالي تَبَاعًا، والبادية على حالها تلك، لا يكاد يتغير من حالها شيء، إلا ما يكون من تغير الجو في الفصول، من حر الصيف إلى برد الشتاء إلى اعتدال الربيع، وإلا ما يكون لذلك من أثر في رجال البادية ونسائها من نشاط أو فتور.

أما الأطفال فهم في شغل عن الحرب والبرد، بما هم فيه

(١) تحلق الرجال: استداروا.

من لهو وعبث، وما مهيئ لهم في فضاء البادية الرحيب من حرية وانطلاق. فهم أحرار طلقاء دائماً في الليل والنهار، والنوم واليقظة، والغدو والروح، لا تخضعهم لسلطانها تقاليد القبيلة ولا أحكام البادية ولا يجذ من نشاطهم تحكم الآباء فيهم، ولا خوف الأمهات عليهم.

حرص حليمة على رضيعها

على أن حليمة كانت من دون النساء في هذه البادية، شديدة الرعاية لوليدها محمد، شديدة العناية به والخوف عليه؛ تخشى عليه الليل والنهار، وتخشى عليه الحر والبرد، وتخشى عليه الأحداث، وتخشى عليه كل شيء.. كانت تحبه حباً شديداً، وكانت ترى من حاله أنه غلام ليس كالغلمان، وكانت ترى من ترجمته ما يزيد لها تعلقاً به وحرصاً عليه؛ وكانت تحس أن الناس جميعاً يحسدونها عليه، ويريدون أن يتخطفوه منها. لذلك كانت تلاحقه بعينها حيثما كان، وتحوطه من رعايتها وعنايتها بأكثر مما تحوط به أولادها.

أفزعها الحر ذات يوم، فخرجت تطلبه في وقت الظهيرة والناس من حولها قائلون^(١). والبهيم^(٢) والأغنام قد أوت إلى.

(١) قائلون: مستريحون في وقت القيلولة.

(٢) البهيم: صفار الغنم.

الظل، تستجير به من وهج الشمس، فوجدته مع أخته الشباء مقبلاً على الحى؛ فجعلت تلوم ابنتها وتقول فى ألم وغىظ: فى هذا الحر يا شباء..! فقالت أخته: لا تجزعى يا أمى، فوالله ما وجد أنخى حرًا.. لقد وجدت غمامة تُظله حيثما ذهب، إذا وقف وقفت، وإذا سار سارت، حتى انتهى إلى هذا الموضع.

حفظ الجميل

لقد ظل محمد يحفظ لها هذا الجميل دائماً؛ فما نسى يوماً أنها ظِئْرُهُ التى أَرْضَعَتْهُ من ثدييها، وغذته بلبنها، وأن لها عليه حقَّ الأم على ولدها؛ بل لم ينس أن يحفظ هذا الجميل لقبيلتها بنى سعد بن بكر بن هوازن، فظل دائماً يذكر أنه نشأ فى باديتهم، وترى بين ظهرائهم^(١)، وكان له منهم إخوة وأخوات، وآباء وأمّهات، وأهل وعشيرة.

حضرت إليه حليلة ذات يوم وهو يتجر فى مال خديجة، فشكت إليه حالها وما تلاقيه من شدة العيش فى البادية، فكلم لها بخديجة، فمَنَحَتْها بعيراً وأربعين شاة، وردتها مكرمة إلى أهلها. واستأذنت عليه مرة أخرى وهو رسول الله ﷺ، فأذن لها..

(١) بين ظهرائهم : بينهم.

فلما دخلت عليه قام لها متهللاً يقول : «أمى ! أمى !» ثم بسط لها زداه وأجلسها عليه، ثم جعل يلاطفها، فس صدرها مساً رفيقاً، وهو يبتسم لها ابتسامة الابن البار لأمه الحنون؛ كأنها يريد أن يُشعرها بأنه لن ينسى لهذا الصدر ما غمره به من حنان، وما أفاض عليه من بر. ثم سألها عن حاجتها فقضى لها ما أرادت.

ولما انتصر، صلى الله عليه وسلم، على المشركين في غزوة حنين، وغم كثيرًا من أموالهم، وسب كثيرًا من نساءهم وفراشهم، أتى إليه وفد من قبيلة «هوازن»، يرجون أن يعفو عنهم، ويرد إليهم أموالهم وأولادهم ونساءهم. وكان فيهم عمه من الرضاة، فاستشفعوا به إليه. فتقدم بين يديه يعلن خضوع القوم وإسلامهم، ويقول فيما يقول : «يا رسول الله، إنما في هذه الحظائر من كان يكفلُك من عماتك وخالاتك وحواضنك. وقد حضنك في حجورنا، وأرضعنك بشدينا.. لقد رأيتك مرضعاً لما رأيت مرضعاً خيراً منك، ورأيتك فطماً لما رأيت فطماً خيراً منك، ثم رأيتك شاباً لما رأيت شاباً خيراً منك، وقد تكاملت فيك خلال الخير، ونحن مع ذلك أصلك وعشيرتك.. فامنن علينا، من الله عليك..!»،

وكان النبي ﷺ قد جعل ينتظر قدومهم عليه حتى يش من

قدومهم، فقسم بين المسلمين أموالهم وسباياهم؛ ولكنه مع ذلك لم يشأ أن يردهم خائبين، لأنهم أسلفوا إليه الجميل في صغره. فقال لهم: «لقد استأنيت بكم»^(١) حتى ظننت أنكم لا تقدمون، وقد قسمت السبي وجرت فيه السهائم، فما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وأسأل لكم الناس.. فإذا صليت بالناس الظهر فقولوا: نستشفع برسول الله إلى المسلمين، ونستشفع بالمسلمين إلى رسول الله.. فإن سأقول لكم: ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وسأطلب لكم إلى الناس».

فلما صلى الظهر الناس، قام وفد هوازن فقالوا كما علمهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فرد عليهم ما كان له ولبنى عبد المطلب، وجعل يرغب الناس ويترضاهم حتى ردوا عليهم نساءهم وأبناءهم. وضرب النسي بذلك أروع الأمثال في حفظ الجميل لمن أولى الجميل.

(١) استأنيت: انتظرت ومهلت.

شق الصدر

قلب حليلة

ظل محمد في بادية بني سعد حتى بلغ أربع سنين، يحيا حياة الأعراب في البادية، ويتكلم لغتهم، ويلبس ملابسهم، ويشارك الأطفال في جدهم ولعبهم، وغدوهم ورواحهم، يغدو في الصبح مع إخوته حين يغدون بالغنم إلى مراعيها، ويرجع معهم في المساء حين يعودون بها إلى حظائرهم. وكانت ظنهم حليلة لا تفتأ توصي به إخوته كلما خرج معهم، وتحذروهم أن يتهاونوا في رعايته وحفظه، أو يذهبوا به بعيداً حتى ينقطعوا عن الحى.

كان قلب حليلة دائماً ممتلئاً بالخوف عليه، وكانت نفسها مفرقة جازعة، فهي لا تكف أبداً عن مراقبته، ولا تفر عن السؤال عنه ساعة بعد ساعة، كأنها كانت تحس أن شيئاً سيحدث له كلما غاب عنها. ولو استطاعت حليلة أن تحبسه في دارها مخافة الأحداث لفعلت، ولكنها لا تستطيع، لأن حياة

البادية لا تعرف القيود ولا الحدود؛ إنما هي حياة الحرية
الواسعة والانطلاق الحر، تستمد طبيعتها من فضاء البادية
الرحب، وجوها المنطلق، وآفاقها الفسيحة.

الحادث الخطير

وكان ما خافت حليلة أن يكون؛ فبينما هي ذات يوم في
دارها مشغولة ببعض شأنها، إذ أقبل ولدها يشتد^(١) نحو الحى
وهو يصيح: ذاك أخى القرشى قد قتل...! فخرجت حليلة
تشتد ملهوفة، وهى تصيح بأعلى صوتها: «يا ضعيفاه...!
يا وحيداه...! يا يتباه...! استضعفوك فقتلوك...!» حتى
وصلت إليه، فوجدته قائماً مُتَقَعًا لونه، فصاحت به: «يا بنى،
ألا أراك حيًا بعد...!» وانكبت عليه تضمه إلى صدرها،
وتغمره بحنائها، وهى لا تستطيع أن تمنع نفسها من البكاء.

الرسول ﷺ يصف الحادث

ويصف، صلى الله عليه وسلم، هذا الحادث لأصحابه
فيقول: «... بينا أنا ذات يوم مُتَبِّد من أهلى فى بطن واد،

(١) يشتد: يجرى.

مع أتراب^(١) لي من الصبيان، تتقاذف بيننا بالجلّة^(٢)، إذ أتانا رَهْطٌ^(٣) ثلاثة، معهم طَسْتُ من ذهب مُلِّي ثَلَجًا، فأخذوني من بين أصحابي. فخرج أصحابي هُرَابًا... مسرعين إلى الحى، يُؤذنونهم ويستصرخونهم^(٤) على القوم.

«فَعَمَدَ أَحَدُهُمْ فَأَضْجَعَنِي عَلَى الْأَرْضِ إِضْجَاعًا لَطِيفًا، ثُمَّ شَقَّ مَا بَيْنَ مَفْرَقِ صَدْرِي إِلَى مُنْتَهَى عَانَتِي^(٥)، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ لَمْ أَجِدْ لِلذَّكَ مَسَاءً ثُمَّ أَخْرَجَ أَحْشَاءَ بَطْنِي، ثُمَّ غَسَلَهَا بِذَلِكَ الثَّلَجِ فَأَنْعَمَ غَسْلَهَا، ثُمَّ أَعَادَهَا مَكَانَهَا.

» ثُمَّ قَامَ الثَّانِي مِنْهُمْ، فَقَالَ لِمُصَاحِبِهِ : تَنَحَّ. فَتَنَحَّى عَنِّي؛ ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَوْفِي فَأَخْرَجَ قَلْبِي - وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ - فَصَدَعَهُ^(٦)، ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْهُ مَضْغَةً سَوْدَاءَ فَرَمَى بِهَا؛ ثُمَّ قَالَ بِيَدِهِ^(٧) كُنْئَةً مِنْهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا، فَإِذَا أَنَا بِخَاتَمٍ فِي يَدِهِ مِنْ نَوْرِ يَحَارُّ النَّاضِرُونَ دُونَهُ، فَخَعَمَ بِهِ قَلْبِي فَاِمْتَلَأَ نَوْرًا - وَذَلِكَ نَوْرُ النَّبِوَةِ وَالْحِكْمَةِ - ثُمَّ أَعَادَهُ مَكَانَهُ، فَوَجَدْتُ بَرْدَ ذَلِكَ الْخَاتَمِ فِي قَلْبِي دَهْرًا.

ثُمَّ قَالَ الثَّالِثُ لِمُصَاحِبِهِ : تَنَحَّ. فَتَنَحَّى عَنِّي؛ فَأَمَرَ يَدَهُ

(٥) العانة : ما تحت السرة.

(٦) صدعه : شقه.

(٧) قال بيده : أهوى بيده.

(١) أتراب : رفقاء.

(٢) الجلّة : البحر.

(٣) رهط : جماعة.

(٤) يُؤذنونهم يستجلونهم.

ما بين مَفْرِقِ صدرى إلى منتهى عانتى، فالتأم ذلك الشق بإذن الله. ثم أخذ ييدى فأنهضنى من مكانى إنهاضًا لطيفًا، ثم قال للأول الذى شق بطنى: زَنَّهُ بعشرة من أمته. فوزنوني بهم فَرَجَحْتُهُمْ^(١). ثم قال: زنه بمائة من أمته. فوزنوني بهم فَرَجَحْتُهُمْ. ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزنوني بهم فَرَجَحْتُهُمْ. فقال: دعوه، فلو وزنتموه بأمته كلها لرجحهم...

قال: «ثم ضمونى إلى صدورهم، وقبلوا رأسى وما بين عيْنى، ثم قالوا: يا حَبِيبُ، لا تُرَغِّ^(٢).. إنك لو تدرى ما يُراد بك من الخير لَقَرَّتْ عيناك..»

قال: «فبينما نحن كذلك إذا أنا بالذى قد جاءوا بجذافيرهم، وإذا أمى - وهى ظئرى - أمام الحى، تهتف بأعلى صوتها وتقول: يا ضعيفاه...! فانكبوا على فقبلوا رأسى وما بين عيْنى، وقالوا: حبذا أنت من ضعيف...! ثم قالت ظئرى: يا وحيداه...! فانكبوا على فضمونى إلى صدورهم، وقبلوا رأسى وما بين عيْنى، ثم قالوا: حبذا أنت من وحيد...! ما أنت بوحيد، إن الله معك وملائكته والمؤمنون من أهل الأرض...! ثم قالت ظئرى: يا يتباه استضعفت من بين

(١) رَجَحْتُهُمْ: زدت عليهم.

(٢) لا ترغ: لا تخف.

أصحابك فقتلت لضعفك.. ! فأنكبوا على فضموني إلى
صدورهم، وقبلوا رأسي وما بين عيني، وقالوا: حبذا أنت من
يتيم.. ! ما أكرمك على ! لو تعلم ماذا يراد بك من الخير.. !
فوصلوا بي إلى شفير الوادي..

«فلما بصرت بي أمي - وهي ظئري - قالت: يا بني،
ألا أراك حيًا بعد.. ! فجاءت حتى انكبت على وضمتني إلى
صدرها. فوالذي نفسي بيده، إن لي حجرها وقد ضمتني إليها،
وإن يدي في يد بعضهم. فجعلت أتلفت إليهم، وظننت أن
القوم يبصرونهم، فإذا هم لا يبصرونهم.

«يقول بعض القوم: إن الغلام قد أصابه ألم^(١) أو طائف
من الجن، فانطلقوا به إلى كاهننا حتى ينظر إليه ويداويه.
فقلت: يا هذا، ما بي شيء مما تذكر؛ إن إرادق سليمة
وفؤادي صحيح، ليس بي قَلْبَةٌ^(٢).. فقال أبي من الرضاع:
ألا ترون كلامه كلام صحيح؟ إن لأرجو ألا يكون بابي
بأس.. !

«فاتفقوا على أن يذهبوا بي إلى الكاهن؛ فاحتملوني حتى
ذهبوا بي إليه. فلما قصوا عليه قصتي قال: استكوا حتى أسمع من

(١) ألم: جنون.

(٢) قَلْبَةٌ: علة.

الغلام، فإنه أعلم بأمره منكم. فسألني فاقصصت عليه أمرى ما بين أوله وآخره. فلما سمع قولى وثب إلى وضمنى إلى صدره، ثم نادى بأعلى صوته: يا للعرب! يا للعرب! اقتلوا هذا الغلام واقتلوه معه؛ فواللآت والعزى لئن تركتموه فأدرك، ليذلن دينكم، وليستفهن عقولكم وعقول آبائكم، وليخالفن أمركم، وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله قط!

فانترعتنى ظئرى من حجره، وقالت: لانت أعتة وأجن من ابنى هذا، فاطلب لنفسك من يقتلك فلما غير قتاليه..! ثم احتملوه فردوه إلى أهلى. فأصبحت مفزعاً مما فعل به، وأصبح أثر الشق ما بين صدرى إلى منتهى عاتى كأنه الشراك^(١).

مخاوف حليلة

كانت هذه الحادثة حداً فاصلاً بين رسول الله ﷺ والبادية، فقد أصبحت ظئره حليلة منذ ذلك اليوم واجفة القلب هالعة الفؤاد، لا تطمئن على فطيمها لحظة، ولا تدرى كيف يتسنى لها أن تحافظ عليه بعد ذلك، وقد رأت بعينها ما رأت، وسمعت بأذنها ما سمعت. وزادها فزعاً وهلعاً قول ذلك الكاهن المجنون

(١) الشراك: السير من الجلد.

الذى كاد يفتك به، لولا أنها استطاعت أن تخلصه من يديه،
وتنجو به هاربة إنها لا تأمن أن يعود إليه جنونه، فيفتك
بالغلام حين يظفر به في أية فرصة؛ وإنها لتخشى عليه كذلك
هؤلاء الرجال الأجانب، الذين انقضوا عليه في الوادى فكادوا
يقتلونه.. إنها لا تدرى من أمرهم شيئاً، ولا تدرى لم اختاروه
هو من دون أصحابه! هل استضعفوه لأنه يتم ليس له أب
يحميه؟ أو كانوا يريدون أن يخطفوه ليبيعوه، فأحيط بهم
فاستعصى عليهم؟ أو هم لصوص فتاكون سفاكون، لاهم لهم
إلا إراقة الدماء وقتل الأنفس؟.. إن أخشى ما تخشاه أن
يكونوا طلاب ثار عند بنى عبد المطلب، فجاءوا إلى هذا الغلام
يأخذونه بثأرهم، ويفجعون فيه أهله وعشيرته، وإنها لا تأمن أن
يعودوا إليه مرة أخرى، فيقتلوه أو يخطفوه.

وهكذا ظلت حليلة نبياً للهواجس والظنون، حتى أصبحت
الخاوف تترأى لها في كل ناحية، وتتمثل لها في كل شيء.
فجعلت هي وزوجها ينظران ويتدبران الأمر في شأن هذا
الصبي... قال زوجها: إني لأخشى أن يكون هذا الغلام قد
أصيب، فانطلق بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف.

قالت حليلة: فاحتملناه فلم تُرَج أمه إلا به.. فقدمنا به
عليها، فقالت: ما رَدَّكمَا به يا ظئر وقد كننا عليه حريصين؟

فقلنا : لا والله... إلا أن الله قد أدّى عنا وقضينا الذى علينا، وقلنا - نخشى الإتيان والأحداث - نرده إلى أهله. فقالت : ما ذاك بكما^(١) فاصدقانى شأنكما.. فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره.

قالت : «أخشيتما عليه الشيطان؟ كلا والله، ما للشيطان عليه من سبيل! والله إنه لكائن لابنى هذا شأن. ألا أخبركما خبره؟ قلنا : بلى. قالت : تحملت به لما حملت حملا قط أنحف منه، فأريت فى النوم حين تحملت به كأنه خرج منى نور أضاءت له قصور الشام. ثم وقع حين ولدته وقوعاً ما يقعه المولود، معتمداً على يديه، رافعاً رأسه إلى السماء.. فدعاه عنكما».

(١) أى : ليس هذا هو السبب الذى دفعكما إلى رده.

وفاة آمنة

وحشة الغريب

عاد محمد إلى مكة، فعاد إلى الأرض التي نبتت فيها أصوله، وتعمقت فيها جذوره، وتفرعت فيها بطانته وأهله. فكان حَرِيًّا أن تَقَرَّ بذلك عَيْنُهُ، وتفتتح له نفسه؛ ولكنه ظل فترة من الزمن يشعر بالنفور من ذلك الجو الجديد ويعيش فيه عيشة المستوحش الغريب.

نعم، كان كل شيء جديدًا عليه في ذلك الجو، إذ لم يكن قد أَلِفَ غير مناظر البادية، في امتداد أطرافها، وسعة آفاقها، وانبساط أراضيها؛ وفي صمتها البالغ، وهدوئها الشامل، وسكونها الدائم؛ وفي هذا العدد القليل من سكانها الذين يعرفهم ويعرفونه، ويألفهم ويألفونه؛ وفي هذه المساكن الساذجة، التي يتخذونها من الخيام تارة ومن أكنان الجبال تارة، يأوون إليها إذا آذاهم البرد أو أرهقهم الحر...

أما هذه القصور الشاهقة، وهذه الأبنية المتلاصقة؛ وأما

هذه الجموع المتركمة، وهذه الأنفس المتراحة؛ وأما هذه الحدود وهذه القيود، فشئ جديد عليه، لم تألفه نفسه الحرة، ولم يستسغه فؤاده المنطلق؛ فكان من الطبيعي أن يستشعر الوحشة في هذا الجو الغريب، وألا يأنس إليه ويمتزج به إلا بعد لاي^(١).

من أجل ذلك ظل فترة طويلة وهو يعيش بخياله في جو البادية، يحن إلى حياتها السهلة ومعيشتها الساذجة، ويستشعر الحنان والحب في عطف ظئره حليلة، ورعاية أخته الشفاء، ولا يتخيل الأنس والسعادة إلا في زمالة أتراب^(٢) البادية، ولا المرح واللذة إلا في اللعب معهم والحديث إليهم.

ولكن، أين هو الآن؟ إنه بين أهله وذويه، وفصيلته التي تؤويه... في حضن أمه الحبيبة، حيث الحنان الطبيعي الذي لا يماثل حنان، وحيث الحب الخالص الذي ينبعث فياضاً بلا حساب؛ وفي رعاية أهله وعشيرته، من الآباء والأمهات، والأعمام والعمات، والأخوال والحالات، والإخوة والأخوات... هو إذن في مكانه الطبيعي الذي لا ينبغي أن يكون إلا فيه.

(١) بعد مشقة ووقت.

(٢) الأتراب: الزملاء في السن.

الامتزاج بالوطن

وقد أحاطته هذه العشيرة بالعطف والرعاية، وغمرته من جميع نواحيه بالحنان البالغ، فلأت كل ما كان يحسه من فراغ، وأنسته كل ما كان يجده من وحشة، فما أسرع ما استجاب لها واندمج فيها، وما أسرع ما استبدل أهلا بأهلا وأحبًا بأحباب. وبسطت عليه حياة مكة سلطانها، فصار مكيًا كامل مكة، وتبينت له فيها معالم لم يكن يراها، فظل يعرفها واحدة بعد واحدة حتى عرفها جميعًا.

هذه هي الكعبة، بيت الله الحرام، الذي يهج إليه الناس من مشارق الأرض ومغاربها.. وهذه هي دار الندوة، تجتمع قريش ومُتتداهاء، ومُعقِد أفراحها وأتراحها وقضاياها.. وهذه رحلة الشتاء إلى الجنوب، وهذه رحلة الصيف إلى الشمال، تذهب فيها العير محملة بمحاصلات الحجاز، وتعود محملة بمحاصلات الشام والعراق واليمن وبلاد الحبش، فتحتفل لها قريش أيما احتفال... وهذه وفود الحاج تأتي إلى مكة في موسم الحج، فتمتلئ بها الدور والقصور، وتغص بها الطرق والرحاب، وتعمر الأسواق بالسلع والبضائع، وتنشط حركة البيع والشراء، والأخذ والعطاء.. وهذه، وهذه، وهذه... من مظاهر الحياة في مكة،

ما زال يعرفها ويألفها حتى امتزجت بها نفسه، واصطبغت بها حياته.

إلا الأصنام

لكن شيئًا واحدًا لم تألفه نفسه، ولم يستطع أن يمتزج به أو يأنس إليه.. هو هذه الأحجار التي يعظمها أهل مكة، والتي يسمونها آلهة يعبدونها ويقدسونها، ويقربون لها القرابين، وينحرون لها الدبائح، ويلجأون إليها فيما جلّ وهان من شئونهم... لقد نفرت نفسه منها نفورًا شديدًا، فلم يشارك القوم في تعظيمها ولا في عبادتها، ولم يتقدم لها يومًا من الأيام راغبًا ولا راهبًا. وأخذ عقله الصغير يفتتح فيعجب من فعل هؤلاء القوم، ويسأل: كيف استساغوا لأنفسهم أن يستسلموا لهذه الحجارة وهم يصنعونها بأيديهم...! أمى التي تطعمهم إذا جاعوا، وتسقيهم إذا عطشوا، وتشفيم إذا مرضوا؟.. أمى التي ترزقهم ما ينعمون به من طيبات الرزق، وتكفيهم ما يحل بهم من مصائب الدهر؟.. إن هى إلا حجارة صماء لا تسمع ولا تبصر، ولا تنطق ولا تعى، ولا تملك من أمرها نفعا ولا ضرًا. ولكن القوم يستسلمون لها، ويتأثرون بها تأثرًا شديدًا.

وأصر على ألا يشارك القوم فيما يفعلون لهذه الأحجار فهجر
الأصنام وقَلائها^(١)، وخاصمها ونفر منها. ولم تكن سِنَّهُ بحيث
تَلَفَتْ إليه أنظار القوم، فظنوه طفلاً لم يبلغ بعد سن الإدراك
والفهم.

محمد يزور يثرب

وحين بلغ السادسة من عمره، ذهبت به أمه إلى يثرب،
ليزور أخواله بنى عَدِيّ بن النجار، وصَحْبته في هذه الرحلة
حاضنته أم أيمن، وهى «بَرَكَة» الحبشية، جارية أبيه التى خلفها
له مع ما خلف من ميراث قليل.

فلما نزل على أخواله أحسنوا وفادته وأكرموا مشواه، فأقام
عندهم شهراً، جاب فيه رحاب المدينة، ورأى كثيراً من معالمها،
وخالط كثيراً من أطفالها وأنس إليهم وأنسوا إليه. ولا شك أنه
وجد فى أطفال المدينة هذه الرقة التى امتاز بها أهلها، فامتزجت
نفسه بنفوسهم، وتوثقت بينه وبينهم صلات الإخاء والحب.

وانطبعت فى ذهنه صورة حية للمدينة، ببساتينها وحدائقها،
ونخيلها ومزارعها، ويتاييها الجارية، وآطامها^(٢) العالية، ومياهها

(١) قلائها : كرمها.

(٢) آطامها : قصورها. والواحد أطم.

العذبة، فلم ينسها قط. وظلت هذه الصورة الجميلة مطبوعة في نفسه، حتى هاجر إليها وهو رسول الله؛ فكان يذكر لأصحابه كثيرًا من معالمها، ويذكر معها كثيرًا من أحداث الطفولة وذكرياتها، ومن أترابه الذين خالطهم وأنس إليهم في ذلك العهد البعيد.

نظر إلى أطم بنى عدى بن النجار فعرفه، وقال: «كنت لاعب أنيسة - جارية من الأنصار - على هذا الأطم؛ وكنت مع غلمان من أحوالى نطير طائرًا يقع عليه...» ونظر إلى الدار التى نزل فيها، وهى دار النابغة، فقال: «ها هنا نزلت بنى أمى...» وفى هذه الدار قبر أبى، عبد الله بن عبد المطلب. وأحسنت العوم فى بئر بنى عدى بن النجار.

وفى هذه الرحلة رأى محمد قبر أبيه. ولا شك أنه بكى حين رأى أمه تبكى عند هذا القبر. ولعل هذه أول مرة أحس فيها لذع الحزن فى فؤاده؛ ولعلها كذلك أول مرة عرف فيها معنى اليم، حين رأى نساء بنى عدى يُواسينَ أمه ويُعزّينها فى فقد عبد الله، وعيونهن تذرف الدمع، وأصواتهن يخنقها الكباء؛ وحين رأى الرجال يُحْصُونَهُ بمزيد من العطف والرحمة.

إنها مظاهر تلفت الذهن الذكى وتدفعه إلى التساؤل. وما أكثر تساؤل الأطفال فى مثل هذه الحالات، وما أرفع

إحساسهم وأرق عواطفهم...! وما أسرع إدراكهم للحقائق حين يحاول الكبار أن يُؤمّوها عليهم، فلنا أنهم لا يدركون...! ثم ما أكثر ما يتبرع الأطفال بعضهم لبعض، بكشف ما خفي من هذه الأسرار، وما استتر من هذه الأخبار...!

الحادث الأليم

ثم رجعت به أمه عائدة إلى مكة. فلما قطعت به من الطريق نحو مرحلة، فاجأها الموت عند قرية «الأبواء»، فدفنت هنالك...! ورجع محمد وحيداً، تفيض عيناه بالدمع، ويمتلئ قلبه بالأسى والخسرة...!

لا شك أن هذا الحادث لم يمر به مرّاً خاطفاً، بل ترك في نفسه أعمق الأثر وأقواه. نعم إنه كان لا يزال طفلاً، ولكنها هي أمه... أمه الحبيبة التي لم يكن له سواها بعد فقد أبيه، والتي كانت له منبع الرحمة والحنان والحب، والتي كان يجد في ظلها برد الراحة والسكنية، والتي كان يستطيع أن يثبثا شكواه، مما يُلم به من ألم أو يناله من هم...! لقد كان طفلاً مُرهف الإحساس، جياش العواطف، تغنيه اللمحة عن النظرة، وتغنيه النظرة عن الإشارة، وتغنيه الإشارة عن الكلمة، ويدرك من

بعيد ما لا يترك غيره من قريب.. فكان قلب أمه وحده، هو الذى يستطيع أن يتجاوب مع إحساسه المرفف. ودكاته اللماح.

إن هذه الحادثة لم تذهب من خياله قط، وكان لها فى نفسه أبعد الأثر وأبقاه، فظل ذكرها حياً فى فؤاده، وكان وهو رسول الله يذكرها، فتفيض نفسه بالرحمة والحنان، وتأخذ الرقة لها فيرجو أن يشملها الله برحمته، ويسأله المغفرة لها جزاء ما قدمت له من بر، وما أفاضت عليه من حنان؛ ولكن ﴿الله لا يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ به، ويغْفِرُ ما دُونَ ذلك لمن يشاء﴾^(١)؛ فياسى لذلك رسول الله، ويبكى حتى يُبكي أصحابه.

عن عبد الله بن مسعود قال: «خرج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ينظر فى المقابر، وخرجنا معه؛ فأمرنا فجلستنا، ثم تجطى القبور حتى انتهى إلى قبر منها، فناجاه طويلاً؛ ثم ارتفع نحيب رسول الله ﷺ باكياً، فبكينا لبكاء رسول الله، صلى الله عليه وسلم. ثم إن رسول الله ﷺ أقبل علينا، فتلقاه عمر ابن الخطاب فقال: يا رسول الله، ما الذى أبكاك؟ لقد أبكنا وأفزعنا.. فجاء فجلس إلينا فقال: «أفزعكم بكائي؟» قلنا:

(١) سورة النساء الآية ٤٨.

نعم. قال : « إن القبر الذي رأيتموني أناجي، قبرُ أمانةٍ بنتِ
وهب، وإلى استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي؛ واستأذنت ربي في
الاستغفار لها فلم يأذن لي فيه.. فأخذني ما يأخذ الولد للوالدة
من الرقة؛ فذلك الذي أبكاني! ».

يتيم عبد المطلب

رعاية اليتيم

رجع محمد من رحلته إلى يثرب يتيم الأبوين، قد فقد أمه كما فقد أباه، ولم يكن قد جاوز السادسة بعد، ولم يكن له مال موروث يستطيع أن يعيش منه؛ فكل ما تركه له أبوه خمسة جمال، وقطعة صغيرة من الغنم، وجاريتته أم أيمن؛ تلك الفتاة الحبشية التي كانت تسمى «بركة»، والتي لم تكن قد تزوجت بعد ولا أنجبت ولدها أيمن.

ولكن الله عطف عليه قلب هذه الجارية، فحضنته^(١) وورعته، وكانت له أمًا مكان أمه؛ وقلب جده الشيخ عبد المطلب، فحبه وأحاطه، وكان له أبًا مكان أبيه. ونزل محمد من هذين القلبين الكريمين منزلة البُنة الحقة، يجد لديها من الإعزاز والإكرام، ومن الرعاية والعناية، ومن الإيثار والحب، فوق ما يجده الأبناء من آبائهم وأمهاتهم.

(١) حضنته: قامت بتربيته وخدمته.

كان عبد المطلب سيد قریش، وكان لقریش تقاليدھا في تربية أبنائھا، وأخذھم منذ الطفولة باحترام الآباء وھيبتھم، والوقوف معهم على حدود الأدب والوقار؛ فلم يكن الولد يستطيع أن يجالس أباءه إلا حين يبلغ سن الرجولة، وكانت مجالس الآباء خالصة لهم، لا يغشاھا الأبناء ما داموا صغارا، فإذا بلغوا مبلغ الرجال جاز لهم أن يخاطبوا الآباء، وأن يشاركوھم في مجالسهم وأحاديثهم؛ لكن مع الأدب والوقار الكامل والاحتشام الذي لا يجعل لولد رأيا فوق رأي أبيه، ولا حكما بعد حكمه. وكان هذا أدبا سائدا في قریش، وتقليدا يشب عليه الصغار منذ يدركون ويعقلون.

وكان من عادة عبد المطلب بن هاشم أن يتخذ له مجلسا بجوار الكعبة، يتحدث فيه إلى رجال قریش ويتحدثون إليه، فكان يُقرش له فراش في ظل الكعبة، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد منهم إجلالا له؛ إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه كان يأتي وهو غلام جفرا^(١)، حتى يجلس على فراش جده، فيأتى أعمامه ليؤخروه عنه، فكان عبد المطلب يمنعهم إذا رأھم، ويقول: «دعوا

(١) غلام جفر: ظافر الصحة والفور.

ابنى، إنه ليؤنس ملكا..! ثم يجلسه معه على فراشه، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يفعل.

وكان يقربه منه ويدنيه، ويدخله عليه إذا خلا وإذا نام، ويرق له رقّة لم يرقّها لولده؛ وكان لا يأكل طعامًا إلا قال: على بابى..! فيؤنّ به إليه.

قلب عبد المطلب

وكان ينظر نحوه بعاطفتين: عاطفة الأبوة المشبوبة، التي كانت تملأ قلبه حبًا، وتملأ نفسه حنانًا ورقّة؛ فهو ابن ولده عبد الله، أحب أبنائه إليه وآثرهم عنده، والذي كان موته ضربة قاصمة هوّت عليه فادّته^(١)، وتركت في قلبه جرحًا غائرًا عميقًا. لما هو أن وُلد له محمد، حتى وجد فيه صورة ابنه عبد الله، فأفرغ عليه كل ما في قلبه من حب وحنان، حتى لم يكن يسميه إلا ابنه.

وكان مع هذه العاطفة عاطفة أخرى تزيد من فعلها وتذكّرها، هي عاطفة الإعجاب والزّهو بما كان يبدو عليه، صلى الله عليه وسلم، من آيات العناية الربانية؛ فقد كان كل شيء فيه يدل على أنه طفل لا كالأطفال، وأنه كائن له في مستقبله

(١) آدته: أرمقته وحلته فوق ما يطيق من الألم.

شأن أى شأن. وقد أحس عبد المطلب هذا وتنبأ به من أول يوم ولد فيه محمد، لما كان يتحدث عنه قَطُّ إلا بصيغة الإعرزاز والإعجاب، والثقة بالمستقبل العظيم الذى ينتظره.

سمو الطفولة

وَمُجْمَع الروايات التاريخية على أن عبد المطلب كان حَفِيًّا^(١) بابنه محمد، وأنه كان يُوليه من العناية والرعاية مالا يُوليه أبناءه الذين من صُلْبِه، وكان يتفقدّه ويلاحظه فى كل أحواله. وكأَنَّما كان يحس أن الأجل مقصر به عن بلوغ ما يرجوه من رعاية هذا الغلام المُعْجَب، فكان لا يترك فرصة تمر حتى يُوصِي به كل من يثق به من أهله.

وبما كان يزيد عبد المطلب تعلقًا به وحرصًا عليه، ما كان يراه من إعجاب الناس به، وبما كان يبدو عليه من آيات السموة فقد كان، صلى الله عليه وسلم، مثلاً يلفت الأنظار فى كمال أدبه، وفى سمو خلقه، وفى عُزوف نفسه عن اللهو الباطل، وفى تنزهه عن التدنّى فيما يتدنّى إليه الأطفال، من التهافت على الطعام والشراب، أو التطلع إلى ما يجلبه الآباء والأمهات... لقد كان فى كل ذلك مثلاً يلفت الأنظار، ويدعو إلى الاهتمام بشأن

(١) حَفِيًّا: بآدى الاهتمام به

هذا الطفل الذى يسمو على الطفولة، ويتعالى على نوازعها ومقتضياتها علواً كبيراً.

نعم، كان فى ذلك موضع العجب والاهتمام من كل من يراه؛ لما كان محمد إلا طفلاً يتيمًا، قد نشأ فى قوم غلبت عليهم الجهالة، وفشا فيهم الشرك، وأسرفوا على أنفسهم فى المتع والملاذ، ﴿وقالوا: ما هى إلا حياتنا الدنيا ثموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر﴾^(١). فكان من الطبيعى أن ينشأ كما ينشأ الطفل المهمَل، بعد أن فقد الأب الذى يُعنى بتأديبه وتهذيبه، والأم التى تُعنى بتعليمه وتدريبه.

ولكن الله، تعالت حكمته، أراد له هذا اليم الميكر، ليكون هو الذى يحوطه بعنايته ويكلؤه بعينه، ويكمله بما يرضى له من الأخلاق والآداب؛ ويُشبع عليه من آيات فضله ما يجعله آية للناس، وغموضاً حياً للبشر الكامل، الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه، وصنعه فأتقن صنعه، وأعدّه لما أراد به من الكرامة؛ ﴿والله أعلم حيث يجعل رسالته﴾^(٢).



(١) سورة الجاثية الآية ٢٤.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٤.

كان أمر هذا اليتيم موضع العجب حقاً، وكان عطف الأنظار من كل من رآه؛ فكان ذلك مما زاد جدّه الشيخ تعلقاً به وحيطة له، واهتماماً بشأنه.

قال قوم من بنى مُذَلِّج لعبدالمطلب: احتفظ به، فلما لم نر قدماً أشبه بالقدم التي في المقام منه. فقال عبدالمطلب لأبي طالب: اسمع ما يقول هؤلاء.. فكان عبدالمطلب يحتفظ به، ويحرص أشد الحرص على أن يكون هو الذي يرعاه ويحوطه.

ومعنى هذا: أن هؤلاء القوم حين رأوا رسول الله ﷺ وهو لا يزال غلاماً حَدَثًا، لفت أنظارهم ما رأوا فيه من الآيات، وأدهشهم ما يجدون من حاله، وما يرون من عجائب صنع الله فيه؛ فأخذوا يتأملونه ويفحصونه، فرأوا أن قدمه أشبه شيء بقدم جده الأعلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام. والعرب كانوا ولا يزالون من أقدر الأمم على معرفة الأقدام وقيافة الأثر^(١).

وكما كانت هذه الظواهر والآيات تزيد عبد المطلب تعلقاً ببيته، كانت تزيده كذلك خوفاً عليه، فكان لا يَقْضِل عنه لحظة، ولا يَقْتَنُ يتفقدته كلما غاب عنه، ولا يبدأ له بال ولا يظمن له قلب حتى يكون بجانبه.

(١) القيافة: تتبع الأثر وملاحظته والاهتداء به.

قال عبدالمطلب لأم أيمن : يا بركة، لا تغفلى عن ابني،
فإني وجدته مع غلمان قريباً من السّدره، وإن أهل الكتاب
يزعمون أن ابني نبيّ هذه الأمة.

ويقول الرواة : إن حليلة قدمت به مكة وهو ابن خمس
سنوات، فأضللها^(١) في الناس، فالتهمته فلم تجده؛ فأتت
عبدالمطلب فأخبرته، فالتهمه عبدالمطلب فلم يجده، فقام عند
الكعبة يدعو ويقول :

لا هُمّ، أدّ راكبي عمداً أدة إلى واصطنّع عندي يداً^(٢)
أنت الذي جعلته لي عضداً أنت الذي سميته عمداً
ولعل هذه الحادثة قد حدثت في موسم الحج، حين تزدهم
مكة بالناس، ويصعب السير في مسالكها على الصغير والكبير.
وسواء أصبحت هذه الرواية أم لم تصح، فهي دليل على مبلغ
المكانة التي كانت لمحمد في قلب جده عبدالمطلب.

تبادل العواطف

وكان من الطبيعي أن يبادل محمد هذه العاطفة، وأن يحبه
أكثر مما يجب أحداً من أهله. فما أسرع انجذاب الطفل إلى من

(١) أضللها : تاه منها.

(٢) اللهم تفعل على برد ولدى محمد إلى.

يحنو عليه، وما أشد تعلقه به واندفاعه إليه.

ولما مات عبدالمطلب بن هاشم، أحس محمد ألم الفاجعة. وأدرك عظم المصيبة، وعرف أنه فقد القلب الكبير الذى يحنو عليه، وعدم الركن الشديد الذى يأوى إليه؛ فجعل يبكيه بكاء الحزين الحائر، الذى لا يدرى متى يَقْرُ قَرَارُهُ، ولا ماذا يكون مصيره.

قالت أم أيمن: «رأيت رسول الله ﷺ يومئذ يبكي خلف سرير عبدالمطلب» وسُئِل رسول الله، صلى الله عليه وسلم: أتذكر موت عبدالمطلب؟ قال: «نعم، أنا يومئذ ابن ثمانى سنين».

في كفالة أبي طالب

اختيار أبي طالب

لم يشأ عبد المطلب أن يترك شأن يتيمة هَمَلًا بعد موته، وهو العزيز الأثير عنده؛ فما هو إلا أن أحس دُنُوَّ أجله حتى أرسل إلى ولده أبي طالب، فأوصاه بأن يضم محمدًا إليه ويجعله في كفالته. ولا بد أنه شدد على أبي طالب في هذه الوصية، وكرر عليه القول بأن يرعاه حق الرعاية، وأن يُؤليه من عنايته ما يؤليه أولاده؛ فهو ابن أخيه وشقيقه عبدالله بن عبدالمطلب، وهو فوق ذلك جوهرة نفيسة يجب الحرص عليها والعناية بها، حتى تبلغ الشأو الذي قدره الله لها.

ولم يكن أبوطالب يجهل من أمر محمد شيئًا، ولا كان في حاجة إلى أن يوصيه به أحد؛ فقد كان يشهد من آيات الله فيه ما كان يشهده أبوه عبد المطلب، وكان يحس من شأن مستقبله العظيم ما كان يحسه كل من يطلع على شئونه وأحواله. فما هو إلا أن دعاه عبد المطلب إلى كفالته، حتى استجاب

راضى النفس قريّر العين، على رغم ما كان عليه من قلة المال وكثرة العيال.

ولسنا ندرى لم اختار عبد المطلب أباً طالب من دون أبنائه، ليكون هو الذى يلى أمر يتيمة من بعده، مع أنه كان يعلم ما عليه أبو طالب من كثرة الولد وضيق ذات اليد.. لأنه كان شقيق عبد الله، فهو أقرب إخوته رَجماً إلى ابن أخيه وأقواهم به صلة؟ أم لما كان يرى فيه من عواطف الرحمة والحنان، ودوافع النخوة والمروءة؟ أم لهذا وذاك وغير هذا وذاك من الأمور؟

لقد كان لعبد المطلب عِدَّة من الولد، كلهم إخوة لعبد الله، وكلهم أعيان لرسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ وكان فيهم من هو أكثر مالا وأقل عيالا من أبي طالب، ومن هو أوسع منه سعةً وأرحب مكاناً ومن هو أقدر أن يكون هو الكفيل إذا كان الغنى بالمال هو كل شيء.. ولكن عبد المطلب - فيما يبدو - كان يرمى إلى هدف بعيد؛ فلعله كان يرمى إلى أن تكون اليد التى تحوط عمداً هى أقوى يد وأحنأها^(١)، وأن يكون القلب الذى يرعاه هو أشجع قلب وأرحمه، فلم يكن يعنيه فى ذلك

(١) أحنأها: أكثرها حنوًا.

الأمر كثرة المال ولا قلة، فما المال إلا عَرَضٌ^(١) يأتي ويمزول، وعارية تذهب وتجيء، إنما كان يعنيه أن يجد القوى الأمين من أهله، ليكل إليه أمر ذلك اليتيم الذي ملك عليه قلبه، والذي كان يتمنى لو امتد به الأجل فظل يراه ويصونه، حتى يبلغ به الشأو العظيم الذي ينتظره.

الركن الأمين

كان أبو طالب هو الركن الأمين الذي أثر عبد المطلب أن يؤوى إليه يتيمة، وكان هو من دون إخوته جميعاً موضع الطمأنينة والثقة من نفسه؛ فأسلم إليه أمر محمد، ومات وهو مطمئن القلب إلى أنه قد أسلمه إلى اليد الحانية الأمانة، وإلى القلب الرؤوف الرحيم.

وكذلك برهن أبو طالب على أنه كان عند حسن الظن به، وأنه كان أهلاً لهذه الثقة التي أولاه لها أبوه عبد المطلب. فما هو إلا أن ضم إليه عمداً حتى أقبل عليه يغمره بعطفه ورعايته، ويخلطه بنفسه وأهله، وأنزله بين بنيه منزلة الإكرام والإيثار، ويسط عليه حمايته منذ كان صبياً، حتى صار شاباً، ثم

(١) العرض: شيء لا دوام له ولا يبق على حال.

صار رجلاً، ثم صار زوجاً له زوجة ونون... وحين أكرمه الله برسالته، وعاداه من عاداه من أهله وقومه، وقف أبو طالب دونه يحول بينه وبين أعدائه، فلم يستطع أحد أن يناله بسوء؛ ولقى أبو طالب في سبيل ذلك ما لاقى من معاداة قومه، ومن عَنَتِهِمْ^(١) واضطهادهم، ولكنه صبر على كل ذلك صبر الكرام، ولم يشأ أن يُسلم ابن أخيه أو يُتخلى عنه لحظة.

وجعل أبو طالب يحفظ رسول الله ويحوطه، ويُغضده^(٢) وينصره إلى أن مات. فلما مات بكى عليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وحزن لموته أشد الحزن، وجعل يستغفر الله له جزاء ما فَعَلَهُ به من بر، وما أحاط به دعوته من حماية. وما زال يستغفر له ويرجو له رحمة الله، حتى نُفِيَ عن ذلك.

عن علي بن أبي طالب، رضى الله عنه، قال: «أخبرت رسول الله، ﷺ، بموت أبي طالب، فبكى وقال: «اذهب فاغسله وكفنه ووارِه^(٣). غفر الله له ورحمه!.. قال علي: ففعلت ما قال، وجعل رسول الله يستغفر له أياماً، ولا يخرج من بيته، حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية: ﴿وما كان

(١) العنت: ما يلاقيه الإنسان من المشقة.

(٢) يغضده: يسنده ويعينه.

(٣) واره: ادفنه.

لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ، وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى، مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾».

وكم تمنى رسول الله لو أن الله هدى عمه أبا طالب إلى الإسلام وشرح به صدره، وأدخله في رحمته الواسعة التي كتبها لعباده المؤمنين، الذين آمنوا برسوله وعزُّوه^(٢) ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه. وكم ألح عليه رسول الله ﷺ في ذلك، وكم حاول - حتى وهو في نزع الموت - أن يظفر منه بكلمة الشهادة ولكن الله لم يشأ أن يهديه إلى الإسلام، لحكمة يعلمها وأمر يدبره..

ويقول أهل العلم بالتأويل^(٣): إن الله أنزل على رسوله ﷺ في شأن أبي طالب قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَهُمْ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٤)، لما رأى من همه به، وشدة حرصه على هدايته وإسلامه.



وليس عجباً أن يهتم رسول الله ﷺ بإسلام عمه هذا

(١) سورة التوبة الآية ١١٣.

(٢) عزُّوه: عظموه.

(٣) التأويل: التفسير.

(٤) سورة القصص الآية ٥٦.

الاهتمام وأن يحرص على هدايته هذا الحرص؛ فقد رباه صغيراً،
وحماه كبيراً. ووقف دونه كالطُود^(١) العظيم، يحوطه بالحب
والعناية، ويغمره بالعطف والرعاية، ولعله كان هو الحصن
الأمين الذى آواه الله إليه ومن به عليه فى قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ
يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ..﴾^(٢) فكان من الطبيعى أن يحفظ له رسول
الله ﷺ فى نفسه هذا الجميل، وأن يُكَنِّ له فى قلبه كل
عواطف الشكر والرحمة والمحبة، وأن يبذل كل ما يستطيع من
جهد ليقدم له كل ما يستطيع من خير ونعمة.. وليس فى هذه
الدنيا كلها خير أعم ولا نعمة أتم من نعمة الإيمان، الذى به
تم السعادة فى الدنيا والآخرة.

لقد كان رسول الله ﷺ مثلاً عالياً فى الوفاء وعرفان
الجميل، وكان عمه أبو طالب مثلاً عالياً فى رعايته وإكرامه
وبره، حتى لقد قيل: إنه كان يحبه حباً شديداً لا يحبه ولده،
وكان لا ينأى إلا إلى جنبه، ويخرج فيخرج معه، وصَبَّ^(٣) به
صَبَابَةٌ لم يُصَبَّ مثلها بشيء قط.
وكان يلمس البركة تحل فى طعام أولاده، إذا أكل معهم

(١) الطود: الجبل العظيم.

(٢) سورة الضحى الآية ٦.

(٣) صب به: تعلق به وأحبه.

رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فكان إذا أراد أن يُغَدِّيمَ قال لهم: «كما أنتم حتى يحضر ابني». فيأتى رسول الله ﷺ فيأكل معهم، فكانوا يُفَضِّلُون من طعامهم؛ فإن لم يكن معهم لم يشبعوا. فيقول أبو طالب: «إنك لمبارك...»

النفس العالية

وكان، صلى الله عليه وسلم، عَزُوفًا على النفس، لا يتهافت على الطعام تهافتَ الأطفال، ولا يقبل عليه إقبالهم؛ فكان إذا اجتمع بأبناء عمه على الطعام، انكبوا عليه يتخاطفونه ويلتهمونه، ويجولون بأيديهم في نواحيه؛ وجلس هو متعففًا يأكل مما يليه، قائمًا بالقليل الذي تصل إليه يده، وأحيانًا يكف يده عن الطعام فلا يأخذ منه شيئًا. وكان أبو طالب يلاحظ منه ذلك، فكان يعزل له طعامه، ويخصه بالطيبات، ويؤثره على بنيه بالملاطفة وحسن الرعاية.

قال ابن عباس: «كان أبو طالب يقرب إلى الصبيان صحفهم^(١) أول البكرة^(٢)، فيجلسون ويتنهبون^(٣)، ويكف رسول الله يده فلا ينتهب معهم. فلما رأى ذلك عمه عزل له طعامه

(١) الصفحة: مايقدم فيه الطعام كالطبق ونحوه.

(٢) البكرة: أول النهار.

(٣) ينتهبون: يخطفون.

على حدة. وكان أبناء أبي طالب يُصْبِحُونَ عُمْصًا رُمْصًا^(١)،
ويُصْبِحُ رسول الله ﷺ، صَقِيلًا كَحِيلًا^(٢).

وقالت أم أيمن: «ما رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم،
شكا - صغيرًا ولا كبيرًا - جوعًا ولا عطشًا. كان يَغْدُو فيشرب
من زمزم، فَأَعْرِضَ عليه الغداء فيقول: «لا أريد». أنا
شبعان.»

وقال، صلى الله عليه وسلم، يومًا لأصحابه، وقد أرادوا أن
يواصلوا الصيام كما يواصل: «إني لست كهيتيكم، إني أبيت
عند ربي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي».

راهب بصرى

وحين بلغ، صلى الله عليه وسلم، الثانية عشرة، سافر عمه
أبو طالب إلى الشام في تجارة، فتعلق به رسول الله ﷺ فأخذه
معه، فلما وصلوا في طريقهم إلى «بُصْرَى» من أرض الشام،
دعاهم راهب هذه القرية إلى طعام عنده في صومعته^(٣).

وكان عند ذلك الراهب علم من الكتاب، وكان يقرأ في
التوراة والإنجيل أن نبيًا سيبحث في بلاد العرب، وأن هذا النبي

(١) عيونهم ملوثة بالعمص.

(٢) كحيل: نظيف العينين.

(٣) الصومعة: بيت من بيوت النصارى للعبادة.

قد آن أوانه. وكان مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل صفة هذا النبي وعلاماته، حتى إنهم ليعرفونه كما يعرفون أبناءهم. ويقولون: إنه حين رأى رسول الله ﷺ جعل يتفرس فيه ويتأمله، ثم سأل عن أشياء من حالات نومه ويقظته، فوجدها كما عنده في الكتاب. ثم نظر في ظهره فرأى شامة سوداء بين كتفيه كأنها الخاتم؛ فعرف أنها علامة النبوة، وأيقن أنه هو النبي الذي يمدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، والذي بشر به موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام.

رغى الغنم

الحس الدقيق

كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، دقيق الحس مرهف الشعور، وكان على صغر سنه يدرك ثقل الحمل على عمه أبي طالب، ويدرك ما هو عليه من قلة المال وكثرة العيال، فكان من أجل ذلك دائم التفكير في الوسيلة التي يستطيع بها أن يخفف هذا الحمل عن عمه.

كان يود أن يقوم بنصيب في حمل هذا العبء. ولكن ماذا يستطيع أن يفعل وهو لا يزال صبيًا صغير السن، غصًا طرئ العود، لا يقوى على ما يقوى عليه الرجال من مشاق الكفاح في سبيل العيش، ولا سيما في هذا البلد القفر الذي يعتمد جُلُّ أهله في حياتهم على التجارة؛ والتجارة في مثل هذا البلد عمل شاق عسير، يتطلب السفر البعيد الشاق في متاهات الصحراء ودروبها الوعرة، ويتطلب فوق ذلك الذرية الطويلة والمرونة الواسعة، في البيع والشراء والأخذ والعطاء، كما يتطلب أن

يكون المرء على شيء من المكر وسعة الحيلة، حتى لا يقع في أحابيل المكر من التجار وما أكثرهم.

وليست مكة كذلك بلدًا زراعيًا، فيستطيع أن يزاول مهنة الفلاحة بالأجر عند الناس، أو في أرض عمه إن كان له أرض.. لو كان في يثرب لاستطاع أن يشتغل فلاحاً في الأرض، أو أباًراً^(١) للنخل، أو بستانيًا في أحد بستانيها الكثيرة، أو صانعاً في إحدى صناعاتها التي يتخذها أهلها من النخيل والأعناب؛ ولكنه في مكة، ومكة بلد قفر بواد غير ذي زرع، تحيط به الجبال من جميع نواحيه. وهي جبال صخرية جرداء، لا ينبت فيها شجر ولا نبات؛ إلا بعض أعشاب ضئيلة ذاوية، وشجيرات قليلة شائكة، تنبت متفرقة هنا وهناك في بعض أوديتها البعيدة، فيخرج إليها أهل مكة يُسيمون^(٢) فيها جملهم، ويرعون أغنامهم. على أنها مع ذلك شيء قليل لا يُسمن ولا يغني عن جوع.

فلم يكن بُدّ إذن لمن يريد أن يعمل من صبيان مكة، إلا أن يكون راعياً يرعى الغنم، أو يُسيم الجمال والأنعام؛ لأن هذا هو العمل السهل الذي يلائم أسنان الصبيان، ويناسب جهودهم وقدرتهم.

(١) الأبار: الذي يقوم بشئون النخل من تقليم وتلقيح وتدنية وغير ذلك.

(٢) يسيمون: يرعون.

رعى الغنم

من أجل ذلك عمل رسول الله ﷺ أولَ ماعمل في رعى الغنم، رغبةً منه في معاونة عمه أبي طالب، فكان يرعى الغنم لأهل مكة على قراريط، وكان يرعى غنم أهله بأجباد. و«أجباد» واد من وديان مكة مما يلي الصفا، لعله كان كثير المرعى، ولعله كان أول واد ذهب إليه رسول الله ﷺ يرعى فيه غنم أهله لقربه من عمران مكة، أو لعله كان أكثر المراعى عُلوًا بنفسه، لكثرة تردده عليه والمحذابه إليه.

ولله الحكمة البالغة إذ جعل هذه المهنة - مهنة رعى الأغنام - هي مهنة الأنبياء، يبدعون حياتهم برعى الأغنام، ثم يختمونها برعاية الخلائق.

حدّث جابر بن عبد الله قال: «كنا مع النبي، ﷺ، نجني الكبّاث^(١)»، فقال: «عليكم بالأسود منهم فلإنه أطيبه فإني كنت أجنيه إذ كنت أرى الغنم»، قلنا: وكنت ترعى الغنم يا رسول الله؟ قال: «نعم، وما من نبي إلا وقد رعاها».

وأخبر أبو إسحاق أنه كان بين أصحاب الغنم وأصحاب

(١) الكبّاث: متفجع من لمر الأراك. والأراك هو الشجر الذي يؤخذ منه السواك.

الإبل تنازع، فاستطال عليهم أصحاب الإبل. قال: فبلغنا -
والله أعلم - أن النبي، ﷺ، قال: «بُعِثَ موسى، عليه
السلام، وهو راعى غنم، وبُعِثَ داودُ، عليه السلام، وهو راعى
غنم، وبُعِثَ وأنا أُرعى غنم أهلى بأجباد».

رعيان مكة

ولاشك أنه، عليه الصلاة والسلام، لم يكن يرعى الغنم
وحده، بل كان له أصحاب يرافقونه ويرعون معه، منهم من
يرعى غنم أهله، ومنهم من يرعى غنم سادته، ومنهم من يرعى
أجيرًا عند أصحابها من أغنياء مكة. وكانوا يحكم المهنة رفقاء،
يتصافون أحيانًا ويتخاصمون أحيانًا، ويمتثلون أحيانًا ويلعبون
أحيانًا، وربما دفعهم الخصام إلى التنابد بالألقاب، أو التناول
بالشم والسباب، أو التفارب بالأيدي والعصى؛ وربما دفعهم
اللهو إلى بعض عادات الجاهلية، وإلى الإسفاف والتدنُّ من
الإنثم... إلّا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقد شب يكلؤه^(١)
الله ويحوطه، ويحفظه من أمور الجاهلية ومعاييبها، فما رُئى قط
منازعًا ولا مخاصمًا، ولا حقودًا ولا حسودًا؛ بل نشأ أحسن قومه
خلقًا، وأكرمهم مخالطة، وأفضلهم جوارًا وأرغبهم فى الجدد

(١) يكلؤه: يحفظه ويصونه.

وأزهدهم في اللهو، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال.

كان الله يحفظه

وكان صلى الله عليه وسلم، يحدث عما كان الله يحفظه به في صغره وأيام جاهليته، فيقول: «لقد رأيتني في غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض مايلعب الصبيان، كلنا قد تعرّى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة؛ فلما لأقبل معهم كذلك وأدبر، إذ لكني لاكم ماأراه لكمة وجيعة، ثم قال: شدّ عليك إزارك...! (قال): فأخذته فشددته علىّ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري علىّ من بين أصحابي».

وحدث علىّ بن أبي طالب قال: «سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: "ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهيمون به؛ إلا ليلتين كلتاها عصمني الله عز وجل، فيها: قلت ليلة لبعض فتيان مكة ولحن رِعاءً في غم أهلها: أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة أسمعُ فيها كما يسمعُ الفتيان. فقال بلى. (قال): فدخلت حتى أتيت أول دار من دور مكة، فسمعت عَزْفاً بالغرايل والمزامير، فقلت: ما هذا؟ قالوا: تزوج فلان فلانة؛ فجلست أنظر.. وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني

إلا مس الشمس؛ فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟
 فقلت: ما فعلت شيئاً؛ ثم أخبرته بالذي رأيت.. ثم قلت له
 ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمع؛ ففعل، فدخلت؛ فلما
 جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة؛ فسألت،
 فقيل: نَكَح^(١) فلان فلانة؛ فجلست أنظر.. وضرب الله على
 أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي
 فقال: ما فعلت؟ فقلت: لا شيء؛ ثم أخبرته الخبر.. فوالله
 ما هممت ولا أعدت بعدهما لشيء من ذلك، حتى أكرمني الله عز
 وجل بنبوته^(٢).

(١) نكح: تزوج.

محمد في قومه

كان مثالا للكمال الإنساني

نشأ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بين قومه في مكة، يعيش فيها كما يعيش الناس؛ يأكل كما يأكلون، ويشرب كما يشربون، ويلبس كما يلبسون، ويخضع لأحكام البيعة وتقاليدها في الأخذ والعطاء، والبيع والشراء، والسفر والإقامة؛ ويشترك القوم في أفراحهم وأتراحهم، وفي شغلهم وفراغهم، وفي كل ما تمليه ظروف الحياة عندهم من حرب وسلم، وبناء وهدم، وصلاح وخصام.

غير أن رسول الله ﷺ كان يمتاز على كل من يعيشون في بيئته بطابع خاص لا يشاركه فيه غيره، هو طابع الكمال في كل شيء؛ ذلك أن الله جلت قدرته تولاه منذ طفولته بالحفظ والصيانة، فعصمه من عبث الجاهلية وفسادها، وطهره من أدرانها وخبائثها، فكان صورة ماثلة للكمال الإنساني، ونموذجاً حياً للفضيلة في كل ما يأتي وما يدع.

كان شاباً فيه حماسة الشباب ودوافعه ونزعاته، ولكنه لم يكن يتنزل إلى ما يتنزل إليه الشباب من عبث وهوى، ولم يكن يرضى لنفسه أن يهبط إلى المستوى الذى يدنس الرجولة أو ينافى الكرامة.. كان فى مكة بيوت كثيرة للهوى، فيها الخمر والميسر، وفيها الغناء والسمر، وفيها العبث والمجون، وفيها كل ما يُرضى جموح الشباب من لذة ومتاع.. وكان للشباب فى تلك البيوت مآرب شتى، عطفوا إليها نفوسهم، وتسعى لها أرجلهم؛ إلا محمد ابن عبد الله، فقد عَزَفَ بطبعه عن كل ذلك، وتعالى بنفسه عن مواطن الريبة ومواضع الخسة؛ فما رُئِيَ يوماً قط لاهياً ولا عابثاً، ولا ألقاً ولا فاحشاً، ولا معاقراً خمرًا ولا قَمَرًا^(١)، ولا متدنساً فى نَزْوَةٍ من نَزَوَاتِ الشباب الجاحمة، بل كان سَمْتُهُ^(٢) الجِدَّ والعِفَافَ، وطابعه الوقار والكمال، مع سَمَاحَةٍ فى الطبع، وطلاقة فى الوجه، وحلاوة فى اللسان، جعلته محبباً إلى كل من يعاشره أو يجادته أو يلقاه.

سموه «الأمين»

وعرف له أهل مكة هذا السُّمْتُ الوقور، وهذا الخلق الرضى، فأحبوه وأكبروه، ووصفوه بأحسن ما يمكن أن يوصف

(١) القمر: لعب القمار.

(٢) السمت: الهيئة التى يكون عليها الشخص ويتميز بها من غيره.

به إنسان من صفات الكمال، فلقبوه «بالأمين»؛ وأصبح هذا اللقب وصفاً مميزاً له دون غيره، حتى صار علماً عليه لا ينأذى ولا يُذكر إلا به. فقد عرفوه منذ نشأ فيهم، وهو الصادق الذي لا يكذب، والوفى الذي لا يغدر، والناصح الذي لا يغش، والأمين الذي لا يخون؛ كما عرفوه طاهر النفس، واسع الحلم، رحيم القلب، جَمّ التواضع، وعرفوا فيه كرم العشرة، وحسن الجوار، وبرجاجة العقل، وعلوَّ الهمة، والزهد فيما يتكالب الناس عليه من متاع الدنيا، والبعد عن كل ما يحيط من أقدار الرجال؛ ولمسوا فيه من صفات الخير ما لم يألّفوه في أحد من أقرانه ولا من أهل بيته.

نعم، رأوه شيئاً آخر غير ما يرون في بيئتهم؛ فقد كانوا قوماً غلاظ الأكباد غُلّفَ القلوب، يتهاكون على اللذات، ويتجاهرون بالمنكرات، ويستبيحون المحرمات؛ قد فشا فيهم الربا والخمر والميسر، وشاع بينهم السلب والنهب وحب الانتقام. ولم يكن لهم وازع من خلق ولا دين يسكب جماحهم، ويردهم عما يرتعون فيه من غى وضلال. بل كانوا يعبدون الأصنام، ويؤمنون بالخرافات والأوهام، ويقصدون العبادات والتقاليد، مهما تنافت مع العقل أو تعارضت مع الفضيلة.

عصمة الله

وقد عصم الله رسوله ﷺ من هذه الموبقات، وطهره من هذه الأرجاس، فلم يسجد قط لصنم من الأصنام، ولم يعبد قط وثناً من الأوثان، ولم يشارك القوم قط فيما كانوا يقومون به لهذه الآلهة الكاذبة، من تقديم القرابين، وإقامة الصلوات، وإحياء المواسم والحفلات، ولم ينحرف قط في شيء مما كانوا ينحرفون فيه عن سنن الحق والعدل.

عن ابن عباس قال: «حدثني أم أيمن قالت: كان «بُؤَابَةُ» صنماً تحضره قريش تعظمه؛ تنسك له النساء^(١)، ويحلقون رؤوسهم عنده، ويعكفون عنده يوماً إلى الليل - وذلك يوماً في السنة - وكان أبو طالب يحضره مع قومه؛ وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد مع قومه، فيأبى رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ ذلك؛ حتى رأيت أبا طالب غضب عليه، ورأيت عماته غضبن عليه. يومئذ أشد الغضب، وجعلن يقلن: إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آهتنا. ! وجعلن يقلن: ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً، ولا تكثر لهم جمعاً. ! (قالت): فلم يزلوا به حتى ذهب؛

(١) النساءك: مظاهر العبادة والتفديس.

فغاب عنهم ما شاء الله، ثم رجع إلينا مرعوبًا فزعًا؛ فقلن له عياته : ما دهاك ؟ قال : « إني أخشى أن يكون بي لم^(١) ». فقلن : ما كان الله لِيَيْتَلِيكَ بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك؛ فما الذي رأيت ؟ قال : « إني كلما دنوت من صنم منها، تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي : وراءك يا محمد، لا تمسه..! » (قالت) : فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ^(٢) ».

وعن زيد بن حارثة، رضى الله عنه. قال : « كان صنم من لحاس يقال له «أسافٌ ونائلة» يتمسح به المشركون إذا طافوا بالكعبة؛ فطاف رسول الله يومًا وطففت معه. فلما مررت بالصنم مسحت به؛ فقال، صلى الله عليه وسلم، : « لا تمسه..! » (قال زيد) : ثم طفنا فقلت في نفسي : لأمسسه حتى أنظر ماذا يكون. فمسحته، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : « ألم تنه^٢؟ » (قال زيد) : فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب، ما استلم صنما قط، حتى أكرمه الله تعالى بالذي أكرمه وأنزل عليه! »

(١) لم : مس من الجن.

(٢) تنبأ : حتى صار نبيا.

كان يشارك في معالي الأمور

ومع أن رسول الله ﷺ كان يخالف قومه في كثير من عاداتهم وأخلاقهم، فإنه كان يعيش بينهم كواحد منهم، يآلفهم ويألفونه، ويحبهم ويحبونه، ولم تكن أخلاقهم تلك الجافية، ولا عاداتهم المردولة، تجعله يشذ في معاملتهم، أو يتأفف من معاشرتهم؛ ولم تكن مخالفته لهم في الطبع تمنعه أن يشاركهم فيما لا ينافي الفضيلة من أعمالهم وتقاليدهم.

شارك في حرب الفجار

فقد حضر مع قومه «حرب الفجار»، وهي حرب قامت بين قريش وهوازن؛ وكان سببها أن رجلاً من قريش غدر برجل من هوازن، فقتله في الأشهر الحرم، وهي الأشهر التي حُرِّم فيها القتال. وكان العرب يقدسونها ويمتنعون فيها عن القتال. وقد ساهم فيها رسول الله ﷺ مع قومه، وهو بين الخامسة عشرة والعشرين؛ فكان أحياناً يجمع السهام التي يرمى بها الأعداء، ويردها على أعمامه ليصيبوا بها أعداءهم، وأحياناً كان يرمى السهام معهم كما يرمون. وقد دامت هذه الحرب أربع سنين، فلم تنته إلا بعد أن تصالحت قريش وهوازن على أن يعدوا

القتلى من كلا الفريقين، ثم يدفع الفريق الأقل عددًا في القتلى
دِيَّةَ العدد الذى يزيد على قتلاه.

وقد حدث، صلى الله عليه وسلم، أصحابه عن حرب
الفجار.. فقال: «قد حضرته مع أعمامى، ورميت فيه بسهم،
وما أحبُّ أنى لم أكن فعلت».. وفى رواية أخرى يقول: «كنت
أُنْبِلُ على أعمامى»؛ أى أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها.

وشارك فى حلف الفضول

وشهد رسول الله «حِلْفَ الْفُضُول» وهو فى سن العشرين.
وهو حلف تداعت فيه قريش إلى نُصرة المظلوم؛ فاجتمع رجال
بنى هاشم وبنى عبد المطلب وبنى أسد وبنى زهرة وبنى تميم، فى
دار رجل من أشرافهم يقال له عبد الله بن جُدعان، فتعاهدوا
على ألا يجدوا بمكة مظلومًا إلا نصروه وكانوا معه، حتى يُرد إليه
حقُّه؛ فكان هذا الحلف أكرم حلف وأشرفه سُمع به فى العرب
وقد حدث، صلى الله عليه وسلم، أصحابه عن ذلك الحلف
فقال: «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحبُّ
أن لى به ثَمَرُ النِّعَم»^(١)، ولو دُعيت به فى الإسلام لأَجَبْتُ.

(١) حمر النعم: نوع من الإبل ممتاز، كان يضرب به المثل فى الجودة والقيمة، كانه
أحسن شيء يقتنى عند العرب.

وشارك في بناء الكعبة

وشارك رسول الله ﷺ قومه في بناء الكعبة، وهو في الخامسة والثلاثين. وكانوا أرادوا أن يجددوا بناءها، حين أصابها السيل فصَدَّعَ جوانبها وهَدَمَ أركانها، فاشترك في ذلك رجالهم ونساؤهم، فكان، صلى الله عليه وسلم، يزامل عمه العباس في نقل الحجارة.. فلما بلغوا موضع الركن - وهو الحجر الأسود - أرادوا أن يضعوه في مكانه، فاختلفوا: أيهم ينال ذلك الشرف العظيم؟ وكان للحجر الأسود في نفوسهم منزلة من الإجلال والتقديس لا تدانيها منزلة؛ واشتد بينهم الخلاف حتى هموا أن يتحاربوا، لولا أن رجلاً حازماً منهم دعاهم إلى أن يحكموا بينهم في هذا الأمر، أول من يدخل عليهم من باب المسجد؛ فارتضوا ذلك الرأي واتفقوا عليه، ووقفوا ينظرون أولَ داخل عليهم من ذلك الباب، فكان هو رسول الله، صلى الله عليه وسلم. ففرحوا جميعاً واستراحوا لرؤيته، وقالوا: «هذا الأمين.. رضينا»..!

وكان، صلى الله عليه وسلم، قد عرف بينهم بسداد الرأي وصواب الحكم، فقصَّوا عليه قصتهم وأخبروه بما كان من أمرهم فقال صلى الله عليه وسلم: «هَلُمُّوا إِلَى ثَوْبَا»^(١). فجاءوه

(١) هلموا: احضروا لي ثوباً.

بالثوب، فأخذ الثوب فبسطه على الأرض، ثم أخذ الحجر فوضعه في وسط الثوب، ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً». فوضعه بيده في مكانه ثم بنى عليه.

حدث ابن عباس عن أبيه أنه كان ينقل الحجارة إلى البيت حين بنت قريش البيت.. قال: «... وأفردت قريش رجلين رجلين، الرجال تنقل الحجارة، والنساء تنقل الشيد^(١)». (قال): فكنت أنا وابن أخي، وكنا نحمل على رقابنا وأزرننا تحت الحجارة، فإذا غشيئنا الناس ائترزنا، فبينما أنا أمشي ومحمد أمامي، خرّ وانبطح على وجهه، فجئت أسمى وألقيت حجري، وهو ينظر إلى السماء. فقلت: ما شأنك؟ فقام وأخذ إزاره وقال: «إني نُهيت أن أمشي عرياناً». (قال العباس): وكنت أكتمها من الناس مخافة أن يقولوا: مجنون».

وشارك في أعمال التجارة

وكان، صلى الله عليه وسلم، يشارك قومه في غير ذلك من الشئون، ويعمل كواحد منهم في كل ما تمليه ظروف الحياة وطبيعة البيئة.

(١) الشيد : المونة.

وكانت التجارة مهنة شائعة في مكة، يشتغل بها كثير من أهلها؛ فاشتغل رسول الله ﷺ بالتجارة، كما يشتغل غيره من الأحرار، وكان له فيها شريك يسمى السائب بن أبي السائب. وكان صلى الله عليه وسلم، يستريح إليه ويثنى على أخلاقه، ويضربه لأصحابه مثلاً للرفيق الصالح والشريك السمح، فيقول: «نعم الشريك السائب، لا يُشارى ولا يمارى!»...

وجاءه السائب يوم فتح مكة، فأكرمه وأحسن استقباله، وعرف له مكانته، وتلقاه فرحاً به وهو يقول: «مرحباً بأخى وشريكى! كان لا يدارى ولا يمارى»^(١).

وما زال، صلى الله عليه وسلم، يشتغل بالتجارة وغيرها من شئون الحياة، حتى أكرمه الله بكرامته، واختاره من بين قومه ليرسله إلى الناس شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

(١) لا يمارى : لا يجادل ولا يخاصم.

خديجة

مكانة خديجة

كان محمد مثلاً عاليًا بين أهل مكة، ترونو إليه عيونهم، وتهفو إليه قلوبهم، ويقع منهم جميعًا موقع الإكبار والإعجاب والحب؛ فقد عرف بين شباب مكة بالرزانة والجد والاستقامة، وعرف بين رجالها بالخزم وعلو الهمة وسداد الرأي؛ وكان فوق ذلك جَمُّ التواضع، لطيف العشرة، حلو الحديث؛ يحادث الصغار ويتودد إليهم، ويجالس الكبار ويتواضع لهم، ويخالط المساكين ويعطف عليهم؛ فلم يكن أحد في مكة، إلا ويكبر محمدًا ويحبه ويُعجب به.

وكانت خديجة بنت خُوَيْلِد مثلاً بين نساء مكة، في الجمال والشرف وطهارة النفس؛ وكانت كثيرة المال وافرة الثراء، لها تجارة واسعة ترسلها إلى الأسواق مع ما ترسله قريش من قوافلها؛ وكانت قافلتها أحيانًا تُعَدِّل قوافل قريش بأجمعها. وكانت تستأجر الرجال من أهل مكة ليتجروا لها، فتختار لذلك

من تثق به وتطمئن إليه، على نصيب معين من الأجر تدفعه لهم.

رغبتها في محمد

وكانت خديجة تعرف محمدًا وتلاحظه منذ نشأته، لأنه من بنى عمويتها، يلتقى نسبها معًا في قُصَى بن كلاب؛ وكان قلبها يهفو إليه، وعينها تتبعه كلما مر غاديًا أو رائحًا؛ وكان يروقه من خلقه القوى، وطبعه الرضى، وشمته المعجب. فلما اكتمل شبابه واستوى عوده، رغبت إليه في أن يخرج في مالها تاجرًا، فقبل منها ذلك، وأخذ يتجر لها في أسواق مكة وما حوالها، وكان يشاركه في ذلك رجل آخر - لعله هو السائب بن أبى السائب - وكانت خديجة تكرمها وتبرهما، وتُحفهما بالطافها كلما حضرا إليها.

روى مَعْمَرُ عن الزُّهْرِيِّ قال: «لما استوى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبلغ أشُدَّهُ، وليس له كثير مال، استأجرت خديجة إلى سوق حُباشة - وهو سوق بِتِهَامَة - واستأجرت معه رجلا آخر من قريش.... قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "ما رأيت من صاحبة أجير خيرًا من خديجة.. ما كنا نرجع أنا وصاحبى إلا وجدنا عندها مُحْفَةً من طعام تُخبئه لنا".»

وروى حزام بن حكيم أنه رأى رسول الله ﷺ وهو يتجر في سوق حُباشة، واشترى منه بَرًّا^(١) من بَرِّتهامة.

كانت تجزل له العطاء

ولا شك أن خديجة ارتاحت إلى رسول الله ﷺ، ولست فيه ما كان يبلغها عنه من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم خلقه؛ فنزل من نفسها منزلة الإعجاب والرضا، ورغبت في أن تدوم بينه وبينها هذه العلاقة، فجعلت تجزل له الأجر وتضعفه، لإبقاء على مودته وحسن صحبته. وكان، صلى الله عليه وسلم، قانعاً، متجعلاً بالحياء والرضا على كل حال، ولكنه مع ذلك كان يسره إرضاء عمه أبي طالب. وكانت خديجة يسرها كذلك أن ترضيه.

روى عن عبد الله بن محمد عن عُقَيْل: «أن أبا طالب قال لرسول الله يوماً: يا ابن أخي، قد بلغنى أن خديجة استأجرت فلاناً بَبْكَرين^(٢)، ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته، فهل لك أن نكلمها؟ قال: «ما أحببت». فخرج إليها أبو طالب فقال: قد بلغنا أنك استأجرت فلاناً بَبْكَرين، ولسنا

(١) البر: نوع من الثياب.

(٢) البكر: الفقى من الإبل، والأنثى بكرة.

نرضى لمحمد دون أربع أبكار. (قال) فقالت خديجة : لو سألت ذلك لبغض بعيد فَعَلْنَا، فكيف وقد سألت لحبيب قريب ؟.. (قالوا) فرجع أبو طالب راضياً يقول لابن أخيه : هذا رزق ساقه الله إليك .

السفر إلى الشام

وحين بلغ، صلى الله عليه وسلم، خمساً وعشرين سنة، رغبت خديجة في أن يكون هو الذى يسافر بتجارتها إلى الشام؛ ولكنها كانت تعلم أن عمه أبا طالب حريص أشد الحرص على ألا يبعد به كثيراً عن نطاق مكة، ضنين به على كل سفر يُطَوِّح به في البعد عن هذا البلد الأمين.

فأخذت تتلطف وتحتال، حتى أقنعت أبا طالب بأن يأذن لابن أخيه في الرحلة إلى الشام، مع غلامها مَيْسَرَة؛ على أن تعطيه ضعف ما تعطى رجلاً من قومه. وكانت سِنُونُ مجدبة، وأزمة شديدة، فلم يلبث أبو طالب أن استجاب، وعرض على ابن أخيه أن يذهب في تجارة خديجة إلى الشام؛ فقبل صلى الله عليه وسلم، ما عرضه عليه عمه، وخرج في ماله ذاك، وخرج معه غلامها ميسرة، وأعمامه يوصون به وببالغون في التوصية. وانطلقت القافلة تسير في الصحراء المترامية، وتمعن في

دروها الوغرة، والشمس ترسل أشعتها شواظاً من نار، يشوى
الوجوه ويلهب الأجسام، وكلما أعيأها السير وأجهدا الحر نزلت
منزلاً لتستريح؛ حتى إذا كانت في أحد المنازل مرة، نزل، صلى
الله عليه وسلم، في ظل شجرة، قريباً من ضومعة راهب، فاطلع
الراهب إلى ميسرة فقال: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه
الشجرة؟ فقال ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم.
فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي.

وحين وصلت القافلة إلى الشام باع، صلى الله عليه وسلم،
سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد أن يشتري، ثم أقبل
قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة. فلما قدم على خديجة باعت ما جاء
به، فربحت ضعف ما كانت تربح، وأضعفت لرسول الله ضعف
ما سّمت له.

إرهاصات النبوة

وحدث ميسرة سيده بما رأى من إرهاصات النبوة،
وبما رأى من محمد أثناء رحلته من كرم الخلق، وصدق الوفاء،
وحسن الصحبة، وعظم الأمانة، وبما لم ير مثله من صاحب قط
في أثناء رحلته.

وكانت خديجة امرأة شريفة لبيبة، حازمة جَلْدَة^(١)، تحسن
تصرف الأمور في إحكام وروية وصبر؛ وكانت أوسط قريش
نسبًا، وأعظمهم شرفًا، وأكثرهم مالًا؛ وكان أشرف قومها
يحرصون على زواجها، ويبذلون في ذلك الأموال، ويعبدون
الوعد، ويؤمنون الأمان؛ ولكن خديجة كانت تردهم جميعًا، وتأبى
عليهم ما يريدون من ذلك.

وكان الله، سبحانه قد كتب لها الكرامة وأراد بها الخير،
فألقى في نفسها أمنية كريمة، وبعث في قلبها عاطفة شريفة،
أحست بها نحو رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فلما أخبرها
ميسرة بما أخبرها به ذهبت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، تسأله
فيما أخبرها به ميسرة. وكان ورقة بن نوفل قد قرأ كتب
النصرانية، وعلم مما قرأ فيها أن نبيًا سيظهر في أرض العرب قد
آن أوانه، وأن إرهابات النبوة^(٢) توشك أن تظهر بين يدي^(٣)
هذا النبي. وأدرك ورقة أن ما عليه محمد من سمو الصفات،
وما يبدو فيه من جلائل الآيات، جدير بأن يجعله أهلاً لهذه
النبوة؛ فأوحى إلى خديجة بأن محمدًا يوشك أن يكون هو هذا

(١) الجلد: القوي الذي لا يضعف أمام الشدائد.

(٢) إرهابات: مقدماتها وبادرها.

(٣) قبيل ظهوره.

النهي، فزاده ذلك في نفسها مكانة إلى مكانته، وتحدث قلبها برغبة مُلحة في أن تكون زوجًا له.

قالت نُفَيْسَةُ بنت مُنِيَّة : « فأرسلتني دسيسًا إلى محمد بعد أن رجع في غيرها من الشام، فقلت : يا محمد، ما يمنعك من أن تتزوج ؟ فقال : « ما بيدى ما أتزوج به ». فقلت : فإن كُفِيتَ ذلك، ودُعِيتَ إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تحجب ؟ قال : « فن هي » ؟ قلت : خديجة. قال : « ومن لي بذلك » ؟ قلت : عليّ : قال : « فأنا أفعل ». فذهبت فأخبرتها، فأرسلت إليه أن ات ساعة كذا وكذا ».

وقد روى أنه ذهب إليها، فقالت له : « يا ابن العم، لقد رغبت فيك لقربائك وسيطتك^(١) في قومك، وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك ». ثم عرضت نفسها عليه. فلما قالت ذلك لرسول الله ﷺ سرّ به، وذكره لأعمامه فسروا به كذلك. وأرسلت خديجة إلى عمها عَمْرٍو بن أسد ليزوجها، فحضر، ودخل رسول الله ﷺ في عمومته، فزوجه أحدهم.

وقيل : إن الذي زوجه عمه أبو طالب، وإنه خطب في ذلك خطبة فقال : « الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم

(١) سطنك : مكانتك.

وزرع إسماعيل.. ! وجعلنا حَصَنَةً بيته وسُوَّاسَ حرمه^(١)، وجعلنا لنا بيتًا محجوجًا وحرماً آمناً، وجعلنا حكام الناس. ثم إن ابن أخى هذا، محمد بن عبد الله، لا يُوزَنُ به رجلٌ شرقاً ونبلاً وفضلاً، وإن كان في المال قُلٌّ، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، وعارية مستردة^(٢). وهو - والله - بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل ! وقد خطب إليكم رغبة في كرميتكم خديجة، وقد بذل لها من الصَّدَاق^(٣) كذا وكذا».

فأجابه عمرو بن أسد بقوله: «هذا البُضْعُ لا يُجَدِّعُ أنفه».. ومعناها في اصطلاح العرب، أن عمداً قطعة منهم وليس غريباً عنهم، وأنه كفاء كريم لا يمكن أن يُرَدَّ أو يهان.

زوجان سعيدان

وتزوجها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأصدقها عشرين بَكْرَةً، فولدت له القاسم - وبه كان يُكْنَى أبا القاسم - ثم ولدت له زينب، ثم رقية، ثم فاطمة، ثم أم كلثوم - وكان ذلك قبل النبوة - ثم ولدت له في الإسلام عبد الله، فسُمي الطيبَ والطاهر.

(١) سواس الحرم: سدة البيت وخدام الحرم.

(٢) يعنى أن المال لا يبقى على حال، بل ينتقل من شخص إلى آخر.

(٣) الصَّدَق: المهر.

وكان عمر رسول الله ﷺ حين تزوج خديجة خمساً وعشرين سنة؛ وكان عمرها أربعين، وقيل خمساً وثلاثين، وقيل خمساً وعشرين؛ وروى عن ابن عباس أنها كانت في الثامنة والعشرين ولم تتجاوزها.

ومهما يكن من شيء فقد كان زواجاً موفقاً سعيداً، كان فيه محمد نعيم الزوج، وكانت خديجة نعمت الزوجة، وعاشا معاً زوجين هانئين؛ حتى إذا أكرم الله محمداً برسالته، كانت خديجة له رِداءً وعوناً، وحصناً يعتصم به من عوادي الدهر؛ يستلهم منها الأمن عند الخوف، ويستمد منها القوة عند الضعف، ويجد فيها السكينة عند القلق والاضطراب.. صدقته حين كذبه الناس، وآمنت به حين كفر الناس، وأغنته بما لها، وغمرته بإخلاصها، وملأت نفسه عزماً وقوة، وملأت قلبه طمأنينة ورضاً، وملأت حياته هدوءاً وسكينة؛ فاندفع في طريقه الوعر^(١)، يقاوم أعداء الحق، ويجهاد أنصار الباطل، ويكشف ظلمات الكفر والظلم، حتى ظهر نور الحق، وجاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجا.

(١) الوعر: الشاق.

صدق الوفاء

من أجل ذلك كان، صلى الله عليه وسلم، بعد وفاة خديجة، دائم الذكر لها والحنين إليها، يترحم عليها، ويتحدث بأيامها، ويبر صَوَّاحِبَهَا^(١)، ويتهلل لمن يراه من أهلها؛ حتى إن عائشة، رضى الله عنها، كانت تغار منها بعد وفاتها، وتغضب حين يذكرها النبي أو يُثنى عليها.

روى مسلم عن عائشة قالت: «ما غرَّت على نساء النبي، صلى الله عليه وسلم، إلا على خديجة، وإن لم أدركها. (قالت): وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذا ذبح الشاة... فيقول: «أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة». (قالت): فأغضبته يوماً فقلت: خديجة... فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "إني رزقت حبها"».

وكذلك روى البخاري عنها قالت: «ما غرت على أحد من نساء النبي، صلى الله عليه وسلم، ما غرت على خديجة، وما رأيتها. ولكن النبي، صلى الله عليه وسلم، يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة، ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها إلى صديق خديجة؛ فربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا إلا خديجة...»

(١) يبر: يعطى أصدقاءها ويصلهم.

فيقول: "إنها كانت... وكانت.. وكان لي منها ولدا"»
وروى البخارى ومسلم عن عائشة، قالت: «استأذنتُ هالة بنت خويلد - أخت خديجة - على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فعرف استئذان خديجة، فارتاع - أو فارتاح - لذلك، فقال: «اللهم هالة بنت خويلد...!» فغرت؛ فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين^(١)، هلكت في الدهر فأبدلك الله خيراً منها؟»

وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: «كان النبي، صلى الله عليه وسلم، إذا ذكر خديجة أثنى عليها بأحسن الثناء. (قالت): فغرت يوماً. فقلت: ما أكثر ما تذكرها..! حمراء الشدقين، قد أبدلك الله خيراً منها..! قال: "ما أبدلني الله خيراً منها، وقد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وآستنى بمأها إذ حرمنى الناس، ورزقني الله ولدها إذ حرمنى أولاد النساء..!"».



لقد تركت خديجة في حياة النبي، صلى الله عليه وسلم، أعظم الأثر؛ فلم يكن عجباً أن يمتلئ بحبها هذا الامتلاء، وأن ينى لذكرها هذا الوفاء، وأن تفيض عواطفه كلها ذكرها بالحمد

(١) حمراء الشدقين: كناية عن سقوط أسنانها.

والثناء. ولقد عرف الله، عز وجل، لخديجة قدرها، فحيّاها من فوق سبع سمواته، وشرها على لسان جبريل بيت من لؤلؤ في الجنة، يسوده الهدوء والسكينة، وتغشاه السعادة والطمأنينة، جزاء ما أسبغت على حياة رسوله ﷺ من راحة ونعيم، وما أمدته به من أسباب العزم والقوة، حتى استطاع أن يبلغ الرسالة، ويؤدي الأمانة، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور.

روى البخارى ومسلم عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال :
« أتى جبريل النبی، صلى الله عليه وسلم، فقال : يا رسول الله،
هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام - أو طعام أو شراب -
فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وشرها
بيت في الجنة من قصب^(١)، لا صخب فيه ولا نصب ».

(١) من قصب : من لؤلؤ.

بشائر النبوة

الرسول الخاتم

أشارت الكتب السماوية التي أنزلها الله على رسله وأنبيائه؛ إلى رسول يكون آخر الرسل وخاتم الأنبياء، يرسله الله إلى الناس كافة، ليجمعهم على دين واحد وشرعة واحدة، إذ أن كل رسول قبله كان يرسل إلى قومه خاصة، ليعالج ما فسد من أمورهم، بالطريقة التي تلائم حالها، وتناسب استعدادهم.

فقد بُعث نوح إلى قومه خاصة، وبعث إبراهيم إلى قومه خاصة، وبعث لوط إلى قومه خاصة، وبعث هود إلى عاد، وبعث صالح إلى ثمود، وبعث شعيب إلى أصحاب الأيكة^(١)؛ وكلما فسدت أحوال قوم وضلوا عن طريق الحق، أرسل الله إليهم رسولا منهم يهديهم إلى الطريق، فإذا لجأوا في الضلال، وتمادوا في العصيان، أرسل إليهم رسولا بعد رسول، كما صنع

(١) الأيكة: المكان الذي يكثر فيه الشجر.

مع بنى إسرائيل، إذ أرسل إليهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس.

فلما نضج العقل البشرى، وارتقى العلم بالشعوب، وارتبطت الأمم بعضها ببعض.. أراد - سبحانه - أن يرسل إلى الناس كافة رسولا يختم به رسله، ويكمل به دينه، ويُقِمَّ به نعمته على عباده؛ ليكون الناس في جميع الأمم والشعوب، وفي جميع الأمكنة والأزمنة، أمة واحدة، يدينون بدين واحد، ويسرون على منهاج واحد، ويعيشون في ظل هذه الوحدة إخواناً متآلفين، يسودهم الأمن والسلام، ويجمعهم الحب والتراحم.

وكان الأنبياء والمرسلون جميعاً، يعلمون بأمر هذا الرسول، ويبشرون به قومهم، ويأخذون العهود والمواثيق عليهم، أن يؤمنوا به وينصروه إذا أدركهم زمانه. ويقول بعض المفسرين: إن الله سبحانه وتعالى، قد أشار إلى هذا الرسول في قوله، عز وجل، من سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ، لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ. قَالَ: أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي^(١)؟ قَالُوا: أَقْرَضْنَا، قَالَ: فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ^(٢)﴾.

(١) الإصر: العهد والثقل، وهو هنا بمعنى العهد.

(٢) سورة آل عمران الآية ٨١.

صفته في الكتب السماوية

وقد جاء في التوراة التي أنزلت على موسى، وفي الإنجيل الذي أنزل على عيسى، وصفت هذا النبي ووصف أصحابه، ووصف المبادئ السامية التي جاء بها؛ وقد ذكر الله ذلك في القرآن الكريم، حيث يقول في سورة الأعراف: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ، الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ^(١) وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ؛ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * قُلْ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ؛ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ^(٢)﴾.

وحيث يقول، سبحانه، في سورة الفتح: ﴿وَعَمَّادُ رَسُولُ اللَّهِ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ، تَرَاهُمْ رُكُوعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا، سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ

(١) ما أثقلهم من التكليف.

(٢) سورة الأعراف آيتا ١٥٧، ١٥٨.

أثر السُّجود ذلك مَثَلُهُمْ فِي التَّوَارِثِ وَمِثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ^(١)، فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا^(٢).

هو محمد بن عبد الله

وكانت هناك دلائل كثيرة، تدل على أن هذا الرسول الكريم، هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن قُصَيٍّ... الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم، عليهما الصلاة والسلام.

فقد دعا به إبراهيم، عليه السلام، لأهل مكة، إذ قال وهو يرفع القواعد من البيت: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٣). وشر به عيسى بن مريم وعيَّنه بالاسم إذ قال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوَارِثِ، وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾^(٤).

(١) الشطه: ما يخرجه الزرع من أولاده وفراخه ليتفوى بها ويتكاثر.

(٢) سورة الفتح الآية ٢٩.

(٣) سورة البقرة الآية ١٢٩.

(٤) سورة الصف الآية ٦.

وكان من أسمائه، صلى الله عليه وسلم، محمد وأحمد فقد سماه جده «محمدًا» وكانت أمه تدعوه «أحمد». وفي ذلك يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أنا دعوة أبي إبراهيم، ونَشْرُ بي عيسى بن مريم.. أنا محمد وأحمد، أنا رسول الرحمة.. وأنا الماحي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحْشَرُ الناس على قَدَمَيَّ، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي».

وقد وصفت التوراة والإنجيل بلادَ العرب بأنها أرض النبي المنتظر؛ ولعل هذا كان من الأسباب التي دعت اليهود والنصارى إلى أن يستوطنوا أرض الجزيرة العربية.

وكانت هناك إرهابات ومقدمات تدل على قرب زمانه. وقد استفاضت بذلك الأخبار، حتى إن بعض الحنفاء^(١) الذين صَفَتْ أرواحهم واستنارت بصائرهم، طَمَعُ في أن يكون هو هذا النبي، وحتى إن بعض العرب سمى ولده «محمدًا»، طَمَعًا في أن يكون هو النبي المنتظر؛ وطائفة لاحت قلوبهم للإيمان بالحق، فانطلقوا سائحين في الأرض، يبحثون عن هذا النبي ويتلمسون مكانه.

(١) الحنفاء: هم الذين كانوا يبحثون عن الحنفية دين إبراهيم.

أحاديث الأحبار والرهبان عنه

وكان الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى، يتحدثون بأمر رسول الله قُبِيلَ مَبْعَثِهِ، لما وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه؛ حتى إن يهود المدينة - وهى يثرب - كانوا يعتقدون أنه منهم، ويتوعدون به أهلها من العرب، لما كان بينهم وبينهم من حَزَازَاتٍ^(١) ومنافسات.

روى ابن إسحاق عن عاصم بن عُمر بن قَتَادَةَ الأنصارى، عن رجال من قومه قالوا: «إن مما دعانا إلى الإسلام - مع رحمة الله تعالى وهده لنا - أن كنا نسمع من يهود؛ وكنا أهل شِرْكٍ وأوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس عندنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: "إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عادٍ وإرم". فكنا كثيرًا ما نسمع ذلك منهم. فلما بُعِثَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أجبناه حين دعانا إلى الله، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به.. ففينا وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ

(١) حَزَازَاتٍ : ضغائن.

عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾».

وروى كذلك عن ابن عباس : أن يهود كانوا يستفتحون^(١) على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه؛ فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه..

وذكر أبو بكر الخرائطي عن أبي سَوِيَّة عن أبيه خليفة، قال : سألت محمد بن ربيعة بن سواة بن خُثْعَم بن سعد، فقلت : كيف سُمَّاكَ أبوك «محمدًا»؟ فقال : سألت أبي عما سألتني عنه، فقال : خرجت رابعَ أربعة من بني تميم، أنا منهم، وسفيان بن مُجَاشِع بن دارم، وأسامه بن مالك بن جُنْدُب بن العقيد، ويزيد بن ربيعة بن كنانة بن حريوص بن مازن، ونحن نريد ابن جفنة ملك غسان. فلما شارفنا الشام نزلنا على غدير عليه شجيرات، فتحدثنا فسمع كلامنا راهب، فأشرف علينا فقال : إن هذه لغة ما هي بلغة هذه البلاد. فقلنا : نعم، نحن قوم من مُضَرَ. فقال : من أي المضريين؟ قلنا : من خِنْدِف.

(١) سورة البقرة الآية ٨٩.

(٢) يستفتحون : يستصرون به عليهم.

قال : أما إنه سَيَّبَعَتْ وشيكاً^(١) نبي خاتم النبيين، فسارعوا إليه
 وخذوا بحظكم منه تَرشُدُوا فقلنا له : ما اسمه ؟ قال : « محمد » .
 (قال) : فرجعنا من عند ابن جفنة، فوُلِدَ لكل منا ابن، فسماه
 « محمدًا » .. يعنى أن كل واحد منهم طمع في أن يكون هذا
 النبي المبشر به ولده .

قصة سلمان الفارسي

وذكر ابن إسحاق قصة إسلام «سَلْمَانَ الفارسي» رضى الله
 عنه، فقال : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري، عن
 محمود بن لَبِيد، عن عبد الله بن عباس قال :
 «حدثني سلمان الفارسي من فيه قال : كنت رجلاً فارسياً
 من أهل أصبهان، من أهل قرية يقال لها «جَيّ» وكان أبي
 دِهْمَقَان قريته^(٢)، وكنت أحب خلق الله إليه، فلم يَزَلْ حبه إياي
 حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية. واجتهدت في المجهوسية
 حتى كنت قَطَنَ النار^(٣) الذي يوقدها لا يتركها تحبوس ساعة.
 (قال) : وكانت لأبي ضيعة عظيمة، فشُغِلَ في بنيان له يوماً

(١) وشيكاً: قريباً.

(٢) دهمقان القرية : رئيسها وحاكمها.

(٣) قطن النار : خاتمها. والمجهوسية : دين المجهوس ؛ وكانوا يعبدون النار.

فقال لى : يا بنى، إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتى، فاذهب إليها فاطْلِعْهَا، وأمرني فيها ببعض ما يريد، ثم قال لى : ولا تحتبس^(١) عني، فإنك إن احتبست عني كنت أهم إلى من ضيعتى، وشغلتني على كل شيء من أمرى.

(قال) : فخرجت أريد ضيعته التي بعثني إليها، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون؛ وكنت لا أدري ما أمرُ الناس، لحبس أبى إني في بيته. فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم، ورغبت في أمرهم، وقلت : هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه ! فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبى فلم آتها. ثم قلت لهم : أين أهل هذا الدين ؟ قالوا : بالشام. فرجعت إلى أبى وقد بعث في طلبى وشغلته عن أمره كله. فلما جئت قال : أى بنى، أين كنت ؟ ألم أعهد إليك ما عهدته ؟ قلت : يا أبه، مررت بأناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس. قال : أى بنى، ليس في ذلك الدين خير؛ دينك ودين آبائك خير منه. قلت : كلا، والله إنه

(١) لا تحتبس : لا تتأخر ولا تغب.

لخير من ديننا! فخافني^(١)، فجعل في رجلَيَّ قيدًا، ثم حبسني في بيته.

(قال): وبعثتُ إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبروني بهم. فقدم عليهم ركب من الشام، فجاءني النصارى فأخبروني بهم، فقلت: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فأذِنُونِي^(٢)، فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم؛ فألقيت الحديد من رجلَيَّ، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام.

فلما قدمتها قلت: مَنْ أفضَلُ أهل هذا الدين علمًا؟ قالوا: الأسقفُ في الكنيسة. فحبسته فقلت له: إني رغبت في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك، وأخدمك في كنيستك، وأتعلم منك فأصلي معك. قال: ادخل: فدخلت معه.. فكان رجل سوء، يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا له شيئًا كنزه لنفسه ولم يعطه المساكين؛ حتى جمع سبع قلال^(٣) من ذهب وورق^(٤).

(١) أي: أخاف أن أهرب.

(٢) أذِنُونِي: أخبروني.

(٣) جمع قلة، وهي الجرّة.

(٤) الورق: الدراهم الضرورية من الفضة.

(قال) : وأبغضته بغضًا شديدًا لما رأيته يصنع.. ثم مات، واجتمعت له النصارى ليدفنوه؛ فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها كنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئًا، فقالوا : وما علمك بذلك؟ فقلت لهم : أنا أدلكم على كنزه. قالوا : فلدنا. فأریتهم موضعه، فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهبًا وورقًا؛ فلما رأوها قالوا : لا ندفنه أبدًا! فصلبوه ورجموا بالحجارة.

وجاءوا برجل آخر.. (قال سليمان) : لما رأيته رجلاً لا يصلی الخمس^(١) أرى أنه كان أفضل منه، ولا أزهـد في الدنيا وأرغب في الآخرة، ولا أداـب ليلًا ونهارًا منه؛ فتأحببته حبًّا لم أحب شيئًا قبله مثله. فأقمت معه زمانًا، ثم حضرته الوفاة، فقلت له : إني قد كنت معك، وأحببتك حبًّا لم أحبه شيئًا قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى؛ فإلى من توصى بى؟ وبم تأمرنى؟ قال : أى بنى، والله ما أعلم اليوم أحدًا على ما كنت عليه! لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه. إلا رجلاً بالموصل، وهو فلان، وهو على ما كنت عليه، فالحق به.

(١) أى : من غير المسلمين الذين يؤمنون برسالة محمد.

(قال): فلما مات وَغُيِّبَ^(١) لحقت بصاحب الموصل،
فقلت: يا فلان، إن فلاناً أوصاني قبل موته أن ألحق بك،
وأخبرني أنك على أمره. فقال لي: أقم عندي. فأقمت عنده،
فوجدته خير رجل على أمر صاحبه.. فلم يلبث أن مات. فلما
حضرته الوفاة قلت له: يا فلان: إن فلاناً أوصى بي إليك
وأمرني بالالحاق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى. فلما
من توصى بي؟ وبم تأمرني؟ قال: يا بني، والله ما أعلم رجلاً
على ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين^(٢) وهو فلان، فالحق به.
فلما مات وَغُيِّبَ لحقت بصاحب نصيبين، فأخبرته خبري
وما أمرني به صاحبي، فقال: أقم عندي. فأقمت عنده،
فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل.. فوالله
ما لبثت أن نزل به الموت. فلما حُضِرَ^(٣) قلت له: يا فلان إنَّ
فلاناً كان أوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم
أوصى بي فلان إليك، فلما من توصى بي؟ وبم تأمرني؟ قال:
والله يا بني ما أعلمه بقى أحد على أمرنا أن تأتيه إلا رجل
بعمورية من أرض الروم، فإنه على مثل ما نحب، فإن أحببت

(١) غيب: دفن في قبره.

(٢) الموصل ونصيبين: مدينتان من مدن العراق، تقع الأولى على طرف نهر دجلة،
وتقع الأخرى على طريق القوافل إلى الشام، وبينها وبين الموصل ستة أيام يسير الإبل.

(٣) حضر: حضره الموت.

فأثبته فإنه على أمرنا.

فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية، فأخبرته خبري.
فقال: أقم عندي. فأثقت على خير رجل على هذى أصحابه
وأمرهم.. (قال) واكتسبت حتى صارت لى بقرات وغنيمة^(١)..
ثم نزل به أمر الله. فلما حضر قلت له: يا فلان، إني كنت
مع فلان فأوصى بى إلى فلان، ثم أوصى بى فلان إلى فلان، ثم
أوصى بى فلان إلى فلان، ثم أوصى بى فلان إليك، فإلى من
توصى بى؟ وبم تأمرنى؟ قال: والله ما أعلمه اليوم أصبح أحد
على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأتيه؛ ولكنه قد
أظل^(٢) زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب،
مهاجرة أرض بين حرتين^(٣) بينهما نخل؛ به علامات لا تخفى:
يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة.. فإن
استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل. (قال): ثم مات
وغيب، ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث..

ثم مر بى نفر من بنى كلب تجار، فقلت لهم: احملوني إلى
أرض العرب وأعطيك بقراتي هذه وغنيمتي هذه. قالوا: نعم،

(١) غنيمة: قليل من الغنم.

(٢) أظل: قرب.

(٣) الحرة: أى مكان هجرته أرض بين جبلين أسودين، يعنى المدينة.

فأعطيتهموها وحملون معهم، حتى إذا بلغوا «وادي القرى»^(١) ظلمون، فباعون من رجل يهودى عبداً، فكنت عنده، ورأيت النخل فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يحق في نفسي^(٢). . . فبينما أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة، فابتاعني منه فاحتملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيته فعرفتها بصفة صاحبي لها؛ فأثت بها.

وَبُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَقَامَ بِمَكَّةَ؛ مَا أَقَامَ وَلَا أَسْمَعَ لَهُ بِذِكْرٍ، مِمَّا أَنَا فِيهِ مِنْ شُغْلِ الرَّقِّ. ثُمَّ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ. فَوَاللَّهِ إِنِّي لَفِي رَأْسِ عِذْقٍ^(٣) لِسَيِّدِي أَعْمَلُ فِيهِ بَعْضَ الْعَمَلِ، وَسَيِّدِي جَالِسٌ تَحْتِي، إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ عَمِّ لَهْ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا فُلَانُ، قَاتَلَ اللَّهُ بَنِي قَيْلَةَ^(٤)! وَاللَّهِ إِنَّهُمْ لَجُتَمْعُونَ الْآنَ فِي «قُبَاءٍ»^(٥)، عَلَى رَجُلٍ قَدِمَ مِنْ مَكَّةَ الْيَوْمَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَهَى.

(قال سلمان): فلما سمعتها أخذتني الرعدة، حتى ظننت أني

(١) واد بين المدينة والشام كثير القرى.

(٢) أى: لم استيقن من أنه هو.

(٣) عذق: نخلة.

(٤) بنو قيلة: هم العرب الأنصار من الأوس والخزرج.

(٥) قباء: موضع على فرسخين من المدينة في ناحية الجنوب، وهي من ضواحيها.

ساقط على سيدى. فنزلت من النخلة فجعلت أقول لابن عمه :
ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ فغضب سيدى، فلكنى لكمة شديدة؛
ثم قال : مالك وهذا؟ أقبل على عملك ! فقلت : لا شيء..
إنما أردت أن أستثبته عما قال..

(قال) : وقد كان عندى شيء قد جمعته^(١). فلما أمسيت
أخذه ثم ذهبت إلى رسول الله ﷺ وهو بقاء، فدخلت عليه
فقلت له : إنه قد بلغنى أنك رجل صالح، ومعك أصحاب
لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندى للصدقة، فرأيتم
أحق من غيركم. (قال) : فقريته إليه. فقال، صلى الله عليه
وسلم لأصحابه : «كلوا».. وأمسك بيده فلم يأكل؛ فقلت فى
نفسى : هذه واحدة. ثم انصرفت فجمعت شيئاً، وتحول رسول
الله ﷺ إلى المدينة، ثم جئته فقلت له : إنى قد رأيتك لا تأكل
الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها. (قال) : فأكل، ﷺ، منها،
وأمر أصحابه فأكلوا معه. فقلت فى نفسى : هاتان ثنتان.
(قال) : ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببيع الغرقد^(٢)، قد تتبع
جنازة رجل من أصحابه، وعليه ثملتان وهو جالس فى
أصحابه؛ فسلمت عليه ثم استدبرته أنظر إلى ظهره : هل أرى

(١) أى : شيء من الطعام.

(٢) بيع الغرقد : جبانة أهل المدينة.

الخاتم الذى وصف لى صاحبه؟ فلما رأى، ﷺ، استدبرته، عرف أنى أستثبت فى شيء وُصف لى؛ فالتقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته؛ فأكبت عليه أقبله وأبكى.. فقال لى رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «تحول».. فتحولت بين يديه، فقصصت عليه حديثى كما حدثتك يا ابن عباس، فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه.

ثم شغل سلمان بالرق حتى فاته مع رسول الله «بدر» و«أحد». (قال سلمان): ثم قال لى رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «كاتب^(١) يا سلمان». فكاتبته صاحبه على ثلثمائة نخلة أحبها له بالفقر^(٢)، وأربعين أوقية. فقال صلى الله عليه وسلم، لأصحابه: «أعينوا أحاكم»، فأعانوا فى النخل.. الرجل بثلاثين ودية^(٣)، والرجل بعشرين ودية، والرجل بخمس عشرة ودية، والرجل بعشرة، يُعين الرجل بقدر ما عنده، حتى اجتمعت لى ثلثمائة ودية؛ فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أذهب يا سلمان ففقر لها؛ فإذا فرغت أكن أنا أضعها بيدى»

(١) المكاتب: أن يتفق العبد مع سيده على أن يشتري حريته منه بمبلغ من المال يدفعه إليه.

(٢) الفقر: الحفر فى الأرض.

(٣) الودية: النخلة حين تفرس وهى صغيرة.

(قال): ففقرت وأعاني أصحابي؛ حتى إذا فرغت جثته فأخبرته. فخرج رسول الله ﷺ معي إليها، فجعلنا نقرب إليها الودى، ويضعه، صلى الله عليه وسلم، بيده؛ حتى إذا فرغنا فوالذى نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة! فأدبت النخل وبقي المال.. فأتى رسول الله بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المعادن. فقال: «ما فعل الفارسي المكاتب؟».

(قال): فدعيت له. فقال: «خذ هذه فأدّها مما عليك يا سلمان». قلت: وأين تقع هذه مما على يا رسول الله؟ قال: «خذها، فإن الله سيؤدى بها عنك». قال: فأخذتها، فوزنت لهم منها - والذى نفس سلمان بيده - أربعين أوقية، فأوفيتهم حقهم، وعُتق سلمان..! فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق حرًا، ثم لم يفتنى مشهد».

أحاديث الكهان

ولم يكن العلم بمبعث هذا الرسول مقصورًا على الأحرار والرهبان من اليهود والنصارى، بل كان الكهان من العرب يعرفون كذلك شيئًا منه؛ إذ كان أتباعهم من شياطين الجن يذهبون إلى السماء، فيتخذون منها مقاعد للسمع، يسمعون إلى

الملا الأعلى، فيعرفون بعض أخبار السماء، ثم يعودون بها إلى أوليائهم من الكهان؛ فيشعذون بها على الناس، ويخلطون الحق بالباطل. فلما ولد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حُجبت الشياطين عن السمع، وملئت السماء بالشهب، فلم يكن شيطان يستطيع بعد ذلك أن يقترب منها.

وفي ذلك يقول ابن إسحاق: «وأما الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن مما تسترق من السمع. وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منها ذكر بعض أموره، ﷺ، ولا يُلقى العرب لذلك بالاً، حتى بعثه الله تعالى، ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرون، فعرفوها. فلما تقارب زمان مبعثه ﷺ، حُجبت الشياطين عن السمع، وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تقعد لها لاستراق السمع فيها، فرُموا بالنجوم، فعرفت الشياطين أن ذلك لأمر حدث من أمر الله عز وجل. (قال): وفي ذلك أنزل الله على رسوله سورة الجن..»

وفي هذه السورة يقول الله، عز وجل، على لسانهم: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً فَخَرَّسْنَا شَدِيدًا وَشُهْبًا * وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ، فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا

* وأنا لا نَدْرِ أَشْرُ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبِّهِمْ
رَشْدًا^(١).

* * *

وأود أن أختم هذا الفصل بخبر طريق ذكرته كتب السيرة،
لأنه فوق ما فيه من الطرافة لا يتعارض مع الحقائق التي
سجلها القرآن الكريم، ولأنه من جهة أخرى يصور ناحية من
نواحي العقيدة العربية كان لها في حياة العرب أثر عظيم، حين
كان العرب غارقين في ظلمات الجاهلية الأولى، وقبل أن يسطع
عليهم نور الإسلام فيكشف عنهم هذه الظلمات..

قصة سواد بن قارب

روى الحافظ أبو يعلى الموصلي، عن محمد بن كعب القرظي
قال : «بينما عمر بن الخطاب ذات يوم جالس، إذ مر به رجل،
فقال : يا أمير المؤمنين، أتعرف هذا المار؟ قال : ومن هذا؟
قالوا : هذا سواد بن قارب، الذي أتاه رثيئه^(٢) بظهور رسول
الله، صلى الله عليه وسلم. (قال) : فأرسل عمر إليه فقال له :
أنت سواد بن قارب؟ قال : نعم. قال : فأنت على ما كنت

(١) سورة الجن الآية ٨ - ١٠.

(٢) رثيه : تابعه من الجن. أى شيطانه الذى ينجيه بأخبار الغيب.

عليه من كهانتك؟ فغضب وقال: ما استقبلني بهذا أحد منذ أسلمت يا أمير المؤمنين! فقال عمر: يا سبحان الله! ما كنا عليه من الشرك أعظم مما كنت عليه من كهانتك. فأخبرني ما أنباك رثيتك بظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: نعم يا أمير المؤمنين..

بينما أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان، إذ أتاني رثيى فضربنى برجله وقال: قم يا سواد بن قارب، واسمع مقالتي، واعقل إن كنت تعقل.. إنه قد بُعث رسول من لؤى ابن غالب، يدعو إلى الله وإلى عبادته. ثم أنشأ يقول:

عَجِبْتُ لِلْجَنِّ وَتَطْلَاهَا وَشَدَّهَا الْعِيسَ بِأَقْنَاهَا^(١)
تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الْهَدَى مَا صَادَقُ الْجَنِّ كَكُذَابِهَا
فَارْحَلْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ لَيْسَ قُدَامَهَا كَأَذْنَابِهَا^(٢)

قلت: دعني أنا، فإني أمسيت ناعساً..

فلما كنت في الليلة الثانية، أتاني فضربنى برجله وقال: قم يا سواد بن قارب، واسمع مقالتي، واعقل إن كنت تعقل.. إنه

(١) تطلّاهَا: اجتهداهَا في البحث عن الحق، وأقْنَاهَا: إعدادهَا الإبل للرحيل.
(٢) يعنى رسول الله. ويجمل المعنى في هذا الشعر أن الخيرين من الجن يبحثون عن الدين الحق، وتلمسونه كما يتلمسه الخيرون من الإنس، يشدون الرحال إلى مكة من أجل ذلك، وأن هذا الدين قد جاء به رسول من صفوة بنى هاشم. فاذهب إليه.

قد بعث رسول من لؤى بن غالب، يدعو إلى الله وإلى عبادته .
ثم أنشأ يقول :

عجبت للجنّ ونحيارها وشدها العيس بأكوارها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما مؤمنو الجنّ ككفارها
فارحل إلى الصفوة من هاشم بين رَوَأيها وأحجارها

قلت : دعنى أنام، فإنى أمسيت ناعساً ..

فلما كانت الليلة الثالثة، أتاني فضربنى برجله وقال : قم
يا سواد بن قارب، فاسمع مقالتي، واعقل إن كنت تعقل .. ثم
أنشأ يقول :

عجبت للجنّ وتَحْساسِها وشدها العيس بأُخْلاسِها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما خيرُ الجنّ كأنجاسِها
فارحل إلى الصفوة من هاشم واسمُ بعينيك إلى رأسِها

(قال) : ففقت فقلت : قد امتحن الله قلبي . فرحلت^(١)

ناقتي ثم أتيت المدينة - يعنى مكة - فإذا رسول الله، صلى الله
عليه وسلم، في أصحابه . فدنوت فقلت : اسمع مقالتي يا رسول
الله، قال : « هات » . فأنشأت أقول :

(١) فرحلت : أعدتها للرحيل .

أَتَانِي نَجِيٌّ بَعْدَ هَذِهِ وَرَقْدَةٍ^(١) وَلَمْ أَكُ فِيمَا قَدْ تَلَوْتُ بِكَاذِبٍ
ثَلَاثَ لَيَالٍ قَوْلُهُ كُلُّ لَيْلَةٍ : أَتَاكَ رَسُولٌ مِنْ لَوْيَ بْنِ غَالِبٍ
فَشَمَّرْتُ عَنْ ذَيْلِ الْإِزَارِ وَوَسَّطْتُ بِالدِّعْلُبِ الْوَجْنَاءِ عِبْرَ السَّبَاسِيبِ^(٢)
فَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَأَنْتَ مُأْمُونٌ عَلَى كُلِّ غَائِبٍ^(٣)
فُرْنَا بِمَا يَأْتِيكَ يَأْخِرَ مَرْسَلٍ وَإِنْ كَانَ فِيمَا جِئْتَ شَيْبُ الدَّوَائِبِ^(٤)
وَكُنْ لِي شَفِيعًا يَوْمَ لَا ذُو قَرَابَةٍ بُغْنِي فَتِيلًا عَنْ سَوَادِ بْنِ قَارِبٍ
(قَالَ) : فَفَرِحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ بِمَقَالَتِي فَرَحًا شَدِيدًا ،
حَتَّى رَأَى الْفَرَحُ فِي وَجُوهِهِمْ . (قَالَ) : فَوُثِبَ إِلَيْهِ عَمْرُ
ابْنُ الْخَطَّابِ فَالْتَزَمَهُ^(٥) ، وَقَالَ : قَدْ كُنْتُ أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَ هَذَا
الْحَدِيثَ مِنْكَ ؛ فَهَلْ يَأْتِيكَ رَيْئُكَ الْيَوْمَ ؟ قَالَ : أَمَّا مِنْذُ قَرَأْتُ
الْقُرْآنَ فَلَا ، وَنَعَمْ الْعِوَضُ كِتَابُ اللَّهِ مِنَ الْجَنِّ . . .

(١) يَعْنِي أَنَّ شَيْطَانَهُ أَتَاهُ وَهُوَ مُتَأَلِّبٌ لِلنَّوْمِ .

(٢) يَعْنِي أَنَّهُ أَخَذَ أَمْبِتَهُ لِلسَّفَرِ ، وَرَكِبَ نَائِتَهُ وَأَخَذَ يَقْطَعُ بِهَا الصَّحْرَاءَ ، مَحْتَمِلًا كُلَّ مَشَقَّاتِهَا .

(٣) أَشْهَدُ أَنَّكَ صَادِقٌ فِيمَا تَأْتِي بِهِ مِنْ أَعْيَارِ السَّمَاءِ .

(٤) مَعَهَا كَانَ فِيهِ مِنْ مَشَقَّةٍ وَهَوْلٍ .

(٥) الْتَزَمَهُ : احْتَضَنَهُ .

قبل البعثة

ظهر الفساد في البر والبحر

كانت حالة الناس قبل مبعث النبي محمد ﷺ قد وصلت من الفساد إلى النهاية، وبلغت البشرية الدرك الأسفل من الانحطاط، وغشيت العالم كله ظلمات كثيفة من الكفر والجهل والفجور، وغير الناس وبدلوا في الدين، وحرّفوا كثيرًا مما أنزل الله على رسله من الكتب، وعبدوا من دون الله آلهة شتى.. فالبوذيون كانوا يعبدون بوذا، والهندوس كانوا يعبدون البقر، والمجوس كانوا يعبدون النار؛ وكانت أمم تعبد الملائكة والجن، وأمم تعبد الصور والتمائيل، وأمم تعبد أرواح الموت وآثارهم؛ وكانت أمم تعبد مظاهر الطبيعة وتقديسها، منهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الكواكب والنجوم، ومنهم من يعبد الأشجار، ومنهم من يعبد الأنهار، ومنهم من يعبد الحجارة. ﴿وقالت اليهود: عزّيز ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله﴾^(١)؛ وتفرق أهل كل دين مذاهب وشيعة،

(١) سورة التوبة الآية ٣٠.

واشتد بينهم الخلاف والجَدَل، حتى غدا الدين الواحد خليطاً من المذاهب المتناقضة.. وسادت الخرافات والأهام، وشاعت الإباحية والفوضى، وارتكبت الفواحش باسم الدين، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون^(١).

كان العرب أسوأ الناس حالا

وكان العرب أسوأ الناس حالا، وأشدّهم إمعاناً في الجهالة والضلالة؛ فقد أشركوا بالله ما لم يُزل به سلطاناً، وعبدوا كل ما هبّ ودبّ من الأصنام والأوثان، والأنصاب والتماثيل، والأشجار وكُتبان الرمال، وعبدوا الملائكة والجن، واعتقدوا أن الهواء والشمس والقمر، والكواكب والنجوم والحجارة، تتصرف في أمورهم وفي مستقبل حياتهم. وكان إيمانهم بالله إيماناً مشوّشاً مضطرباً؛ يعتقدون أنه الإله الأكبر، الذي يخلق ويرزق ويحيى ويميت، ولكنهم يؤمنون بأن هناك آلهة أخرى تخّل لها، سبحانه، عن بعض التصرفات: كشفاء المرضى، ومنح الذرية، وإنزال الغيث، وتصريف الرياح، وإبعاد الجاعة، وكشف الضر، وجلب الخير؛ وأن هؤلاء الآلهة وسائط بينهم وبين الله، يتوسلون بهم

(١) سورة الروم الآية ٤١.

إليه في طلب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم ويستشفعون بهم لديه في التجاوز عن ذنوبهم والعفو عنهم.

أغرقوا في عبادة الأصنام

وبالغوا في عبادة الأصنام حتى ملثوا بها الكعبة - البيت الحرام - وهي أول بيت وضع في الأرض لعبادة الله وحده، فكان في الكعبة ستون وثلاثمائة صنم، وكان «هَبْلُ» و «الَلَاتُ» و «العُزَّى» رؤساء هذه الآلهة؛ هذا عدا ما هنالك من الأصنام المتفرقة في القبائل، إذ كان لكل قبيلة صنم خاص بها، ولكل بيت صنم خاص بأهله؛ بل كان الرجل منهم إذا سافر، حمل معه صنماً يتبرك به ويستبشر بصحبته. وكانوا يقدسون هذه الأصنام ويعبدونها، ويقربون لها القرابين ويذبحون الذبائح، ويستخبرونها في أمور دنياهم، ويجعلون لها نصيباً من أنعامهم وثمارهم.

ذكر ابن هشام أن الهذلي والذبائح كانت تذبح عند صَنَمَيْ «أساف» و «نائلة» قرب الكعبة، وأن العرب كانوا إذا أرادوا أن يَخْتَنُوا غلاماً أو يعقدوا زواجاً، أو شكوا في نسب أحدهم، أو أرادوا سفرًا أو تجارة، أو استخارة في نازلة أو خلاف

أو مقصد.. ذهبوا إلى هُبَل - وكان صنماً في جوف الكعبة - فأعطوا صاحب القِداح مائة درهم وَجَزُوراً^(١)، وطلبوا منه أن يضرب لهم بالقِداح على الأمر الذي أرادوا أو اختلفوا فيه؛ وكان على القِداح كلمات أمر ونهى و «نعم» و «لا».

استقسموا بالأزلام

وذكر الخازن عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾^(٢) أنه كان لهم سبعة قِداح، مكتوب على أحدها: «أمرى رى»، وعلى ثانيها: «نهى رى»، وعلى ثالثها: «منكم»، وعلى رابعها: «من غيركم»، وعلى خامسها: «مُلْصَقٌ»، وعلى سادسها: «العَقْل»^(٣)، وسابعها: عَقْل لا كتابة عليه. فكانوا إذا أرادوا سفراً أو تجارة، أو اختلفوا في نسب أو قتيل أو حمل دية أو نحو ذلك، جاءوا إلى هبل - وكان أعظم أصنام قريش - وأعطوا مائة درهم إلى صاحب القِداح، فأجأها - أى خلطها - ثم استخرج واحداً منها؛ فإن خرج «أمرى رى» فعلوا الأمر الذى استخاروا فيه، وإن خرج «نهى رى» لم يفعلوه؛ وإن كانت الاستخارة في نسب وخرج

(١) جزوراً: ناقة أو جملا.

(٢) سورة المائدة الآية ٣.

(٣) العقل هنا بمعنى الدية التى تدفع عوضاً عن القتل.

«منكم» ألقوه بهم، وإن خرج «من غيركم» أخرجوه منهم،
وإن خرج «ملصق» كان النسب المدعى به افتراءً؛ وإن كانت
الاستخارة في الدية وخرج «العقل» تحمّلوه.

وذكر ابن كثير في تفسيره أنها عبارة عن قداح ثلاثة، على
أحدها مكتوب «افعل»، وعلى الآخر: «لا تفعل» والثالث
غُفْل ليس عليه شيء.. فإذا أجالها بطلع سهم الأمر فعله، أو
أنهى تركه، وإن طلع الفارغ أعاده.

ولعل ما كتبه المستشرق الفرنسى إميل درمنغم فى كتابه
«حياة محمد»^(١) يعطى عن الأزلام وطريقة استعمالها فكرة أكثر
وضوحاً وتفصيلاً، وذلك حيث يقول: «وعند هبل كان يُستقسم
بالأزلام، أى يُضرب بالقداح السبعة المكتوب على كل واحد منها
واحدة من الكلمات: «أمرى رى. نهان رى. منكم. من
غيركم. ملصق. العقل. غُفْل». فإذا أرادوا الوقوف على الأمر
الذى تصلّوا له، ومعرفة عاقبته أخير هو أم شر، استقسم لهم
أمين القداح بقُدْحى الأمر والنهى؛ فإن خرج قُدْح الأمر أثبتّهم،
وباشروا ما تصلّوا له من حرب أو سفر أو زواج أو ختان
أو بناء، أو نحو ذلك مما يتفق لهم؛ وإن خرج قُدْح النهى أخروا

(١) ترجمة الأستاذ عادل زعير.

ذلك العمل إلى سنة، فإذا انقضت أعادوا الاستقسام مرة أخرى.. وإذا وقعت منازعة في نسب أحد منهم، استقسم لهم أمين القداح بالأزلام الموسومة «منكم» ومن غيركم. وملصق؛ فإن ظهر «منكم» أعزوا ذلك الذي اشتبهوا في نسبه، وإن ظهر «من غيركم» نفروا منه وتجنبوه، وإن ظهر «ملصق» بقى مجهول النسب عندهم على ما كان عليه من قبل.. وإذا تنازعوا في العقل - وهى دية المقتول - بأن اشتبه عليهم القاتل، أحضروا من اتهموا بالقتل واستقسم لهم الأمين بالقدحين الموسومين «بالعقل والغفل»، فمن خرج عليه العقل تحمل الدية، وإن خرج الغفل أجالوا ثانيًا حتى يخرج المكتوب عليه».

ومهما يكن من اختلاف الروايات فقد كانت «الأزلام» هى وسيلتهم التى يستخدمونها فى استخارة أصنامهم؛ يطلبون بها بيان ما قُسم لهم فى ضمير الغيب، وما يكون فيه البركة والخير لهم، وحين تظهر النتيجة يعتبرونها حكم الآلهة، فلا يحمّدون عنه ولا يخرجون عليه. ومن هنا كانت الأزلام شديدة التأثير فى حياتهم، فلا يُبرمون أمرًا ولا ينقضونه إلا بوحى منها، لأن حكمها - فى زعمهم - إنما هو حكم الآلهة. فالبريء عندهم منهم إذا هى حكمت باتهامه، والمتهم برىء إذا هى حكمت ببراءته؛ والصواب خطأ إذا هى حكمت بخطئه، والخطأ صواب

إذا حكمت بإصابته. وهكذا كانت أحكامهم في كثير من شئونهم قائمة على الظن والتخمين، لا على الحق واليقين.

أشركوا الأصنام في حرثهم وأنعامهم

وكانوا يجعلون من زرعهم وأنعامهم نصيباً لله ونصيباً لآلهتهم؛ فيصرفون ما يجعلونه لله على الضيوف والفقراء، وينفقون ما يجعلونه للآلهة على الأوثان وخدمتها؛ فإن سقط شيء مما جعلوه لله في نصيب الأوثان تركوه وقالوا: إن الله غنى عنه، وإن سقط شيء من نصيب الأوثان فيما جعلوه لله ردوه إليه وقالوا إنها في حاجة إليه؛ وإذا هلك شيء مما جعلوه لله لم يبالوا به، وإذا هلك شيء مما جعلوه للأوثان عوضوه مما جعلوه لله؛ وإذا رأوا ما جعلوه لله نامياً زاكياً جعلوه للأوثان، وبادلوا بينه وبين ما كان لله. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا اللَّهَ مِمَّا ذَرَأَ^(١) مِنَ الْحَرْثِ^(٢) وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا، فَقَالُوا: هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ - وَهَذَا لَشُرَكَائِنَا، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ!﴾^(٣).

(١) ذراً: خلق.

(٢) الحرث: الزرع.

(٣) سورة الأنعام الآية ١٣٦.

جعلوا الملائكة بنات الله

وكانوا يؤمنون بأن الملائكة بنات الله، وأنه - سبحانه - أصهر إلى الجن، أى تزوج منهم، فأنجب منهم الملائكة؛ فكانوا يعبدون الملائكة على أنهم بنات الله، ويعبدون الجن على أنهم أصهاره. وكانوا يخافون الجن خوفاً شديداً، ويعتقدون أنهم أرواح شريرة، لا عمل لها إلا الشر والأذى، فكانوا يتقون أذاها بالتعاون والرقى والهمائم؛ وإذا نزل الواحد منهم بواد موحش ظن أنه مسكن الجن، فيقول: «أعوذ بسيد هذا الوادى»! معتقداً أنه متى استعاذ بسيد الجن من شرهم فلن يضره بشيء. وكانوا يعتقدون أن الجنون من مس الجن، وأن لكل كاهن رئيساً من الجن يمه بأخبار الغيب، وأن لكل شاعر شيطاناً يمه بما يقول من الشعر.

آمنوا بالخرافة

وكانوا يؤمنون بالقال والطيرة، وبالكهانة والعرافة؛ فإذا خرجوا إلى سفر أو عزموا على أمر، ثم مر بهم طائر عن يمينهم، تفاءلوا واستبشروا وأتموا سفرهم أو عزمهم وإذا مر عن شمالهم تشاءموا وتطيروا وعدلوا عما عزموا، عليه، وإذا أهمهم

أمر أو اختلفوا فيه ذهبوا إلى كاهن أو عَراف، فعرضوا عليه أمرهم، واستمعوا لحكمه مهما كان خطأ أو صواباً. وكانوا يعتقدون أن روح القتيل تتقمص جسم طائر يسمى «الهامة»، وتظل حول قبره تنادى: «اسقوف... اسقوف...!» حتى يأخذ أهله بثأره؛ فإذا أخذوا بثأره سكنت الهامة وانصرفت.

وكانت لهم فوق ذلك خرافات عجيبية في أنعمائهم
 وذروعهم، يحرمون من
 يقولون: هذا الجمل
 لا تُركب ولا تُحلب ولا
 لا تدبج ولا تحبس؛
 ولا يأخذون منه؛ وها
 لا يُذكر اسم الله عليه
 سبحانه: ﴿وقالوا:
 إلا من نشاء - بزَعْد
 لا يذكر اسم الله
 يفترون﴾ وقالوا: ما في بطون هذه الانعام حاله سدور

(١) حجر: أى معجزة وعجزة.

وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا، وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ
وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ^(١).

قامت حياتهم على الظلم

أما نظام حياتهم فكان قائماً على ظلم القوى للضعيف،
وتحكم القادر في العاجز، وكان اعتمادهم في انتزاع الحق على
القوة وحدها، فكانت الإغارة والسلب والنهب، والأخذ بالثأر
وحب الانتقام، هي العلاقة التي تربط بين القبائل بعضها
وبعض، حتى صارت الحرب نظامهم المألوف وحياتهم المعتادة؛
وكانت مناقشة تافهة تكفي لإشعال حرب طاحنة، وثورات
يتوارثها الخلف عن السلف؛ وكان القتال إذا اشتعلت ناره دام
عدة سنين، وقد يدوم عدة أجيال، حتى غدا تاريخهم في
الجاهلية سلسلة من الحروب الداخلية لا تكاد تنتهي. ولم يكن
لهم نظام جامع ولا حكومة موحدة، بل كانوا قبائل متفرقة، كل
قبيلة تؤلف وحدة قائمة بذاتها، مستقلة في نظامها وتقاليدها
وأحكامها.

(١) سورة الأنعام آيتا ١٣٨، ١٣٩.

جعلوا المرأة نوعاً من المتاع

ومن مظاهر الظلم في حياتهم أن المرأة كانت في نظرهم نوعاً من المتاع، فلم يكن لها نصيب من الميراث، بل كانت هي نفسها تورث مع التركة؛ وكان للوارث فيها مطلق التصرف، فإن شاء تزوجها، وإن شاء زوجها من غيره. ولم يكن للزواج عندهم حدود ولا للطلاق قيود؛ فللرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء، وله أن يطلق المرأة متى شاء ويراجعها متى شاء، دون أن يكون لها في ذلك رأي؛ وله أن يعلقها بين الزواج والطلاق، فلا هي زوجة لها ما للزوجة من حقوق، ولا هي مطلقة تملك أمرها وحريتها... إلى غير ذلك من مظاهر الظلم والاستبداد والإذلال. وبعض الجوارى كن يُرغمن على كسب المال بأعراضهن إرضاءً لساكنتهن.

وكانت الأنثى على العموم تجلبه الحزن ومظنة العار، فكان العربي يحزن أشد الحزن إذا ولدت له أنثى، وبعضهم كان يشد البنات^(١) مخافة العار والفقر؛ وكان الاتفاق يجري عند عقد العقد أحياناً على قتل السلالة من البنات. وفي ذلك يقول الله تعالى :

(١) يثد : يلدن أحباء.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(١).

كانت الدنيا همهم

وكان الربا والخمر والميسر من ضرورات حياتهم؛ وكان السكر والعَرَبِيدَةُ وانتهاك الأعراض من المفاخر التي يتغنون بها في أشعارهم ومجالسهم؛ وكانت اللذة والمتاع أسمى ما تصبوا إليه نفوسهم. فكان همهم الطعام والشراب وانتهاك الملذات قبل أن يدركهم الموت؛ أما ما وراء الموت فلم يكن في حسابهم قط، إذ كانوا يعتقدون أن الحياة هي الحياة الدنيا، وأن الموت هو النهاية الأبدية، أما البعث بعد الموت فكانوا يظنونونه أمراً مستحيلاً، ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾^(٢). فليس من الممكن - في زعمهم - أن يحيا الإنسان مرة أخرى، بعد أن يموت ويبلى ويصير تراباً؛ بل كانوا يُعَدُّون الكلام في ذلك ضُرْباً من الجنون، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا: هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقُمْ كُلُّ مَرْقٍ إِنَّكُمْ لَأَنِ لَخَلْقِ

(١) سورة النحل آيتا ٥٨، ٥٩.

(٢) سورة الواقعة آيتا ٤٧، ٤٨.

جديد * أفتري على الله كذباً أم به جنة * بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد^(١).

العنصر العربي

«نعم، كان في العرب فضائل عنصرية وطباع كريمة، وسجاياء ذات وزن كبير في مقياس الرقي الإنساني، من ذكاء ونبيل شجاعة ووفاء وصدق وجود.. إلى غير ذلك من المزايا الكثيرة المشهورة في الأمة العربية؛ ولكن لم تكن كل مزاياها المعروفة تمنع من أن تكون حياتها حياة جاهلية صماء، وخاصة في عقليتها ودينها وعاداتها؛ لأن تلك المواهب العنصرية الكامنة فيها لم تكن موجهة توجيهها صالحاً، بل لم يكن لها موجه أصلاً يسيطر على قوتها وفعاليتها، ويبني بها الحياة الصالحة، ويخرج منها أطيب الثمرات»^(٢).

وكثيراً ما كانت الهمجية تسيطر على تلك الشيم فتفسدها، وتخرجها من جو الفضيلة إلى جو الرذيلة. على أنها مع ذلك كانت فضائل شخصية، وصنائع فردية لا أثر لها في بناء المجتمع؛ فكانت الأمة العربية بذلك أشبه بالأرض الطيبة التي

(١) سورة سبأ آيتا ٧، ٨.

(٢) من مقال للأستاذ مصطفى الزرقا في السنة الأولى من مجلة لواء الإسلام -

بتصرف.

أهملت زراعتها، فامتلات بالحشائش والنبات الشطآن، مما قد يكون منه بعض الزهر والثمر، ولكنه شيء لا يسمن ولا يغنى من جوع.

لذلك لم تغن عنهم شيئاً هذه الصفات الجميلة، ولم تحل بينهم وبين ما كانوا يفعلون من المنكرات، فغطت رذائلهم، فضائلهم، ومحت سيئاتهم حسناتهم.

أين دين الحق؟

هذا الجهل الذى أفسد دينهم وزلزل عقائدهم، وهذه الخرافة التى سيطرت على عقولهم وقلوبهم، وهذه الفوضى التى سادت نظمهم وتقاليدهم، وهذه البهيمة التى صبغت حياتهم، وهذه العداوة التى مزقت وحدتهم، وهذه الحروب التى أنهكت قواهم... هذه الجهالة الجاهلاء والضلالة العمياء، التى جعلت نفراً من حكائهم يفكرون فى أمر دينهم، ويتساءلون فيما بينهم: أهذا هو الدين الذى يرضاه الله لعباده؟ أهذه هى الحياة التى تليق بالإنسان؟ ألم يُخلق الإنسان إلا لياكل ويشرب ويقضى مآربه وشهواته؟ ما الفرق بينه إذن وبين الحيوان الأعجم؟... وجعلوا يتلفتون حولهم لينظروا أى دين هو أهدى إلى الصواب وأقرب إلى الحق... أهو دين النصارى؟ أم هو دين

اليهود؟ أم هو دين المجوس؟... أما المجوس فهم والعرب سواء في الضلال، وأما اليهود والنصارى فقد غيروا وبدلوا وتفرقوا واختلفوا، ﴿وقالت اليهود: لَيْسَتْ النصارى على شيء، وقالت النصارى: لَيْسَتْ اليهود على شيء، وهم يَتْلُونَ الكتاب﴾^(١)، و﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(٢)، وسارعوا كما يسارع غيرهم في الإثم والعدوان وأكل الحرام وافتراء الكذب... فليس اليهود والنصارى إذن على شيء وليس الدين الذي يدينون به على ما أنزل الله... فأين الدين الذي يرضاه الله لعباده؟.

العقلاء يبحثون عن دين إبراهيم

كانت هذه الحيرة تشغل بال المفكرين من حكماء العرب وعقلائهم، فداروا يبحثون عن الحنيفية السمحة: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٣)... فإبراهيم أبو العرب، وهو الذي بنى أول بيت وضع للناس ليعبدوا الله وحده، فهم أولى الناس بأن يدينوا بدينه ويتبعوا ملته؛ فليس في غير ملة إبراهيم مخرج من هذا الضلال.

(١) سورة البقرة الآية ١١٣.

(٢) سورة التوبة الآية ٣١.

(٣) سورة النحل الآية ١٢٣.

وهكذا جعلوا يلمسون ملة إبراهيم في كل دين، فمنهم من حسبها في اليهودية فتهود، ومنهم من حسبها في النصرانية فتنصر، ومنهم من دار يبعث عنها في نواحي الأرض، ومنهم من توهما توهُما وظنها ظناً، فجعل يعبد الله على نحو ما هداه وهم وظنه.

ذكر ابن إسحاق أن قريشاً اجتمعت يوماً في عيد لهم، عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه، وينحرون له ويطوفون به؛ فخلص منهم أربعة نفر يتناجون، وهم: ورقة بن نوفل، وعبد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو ابن نفيل... فقال بعضهم لبعض: «اعلموا - والله - ما قومكم على شيء! لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم... ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع؟... يا قوم، اتمسوا لأنفسكم ديناً غير هذا الدين، فإنكم - والله - ما أنتم على شيء!...» ففرقوا في البلدان يلمسون الحنيفية دين إبراهيم. فأما ورقة بن نوفل فاستحکم في النصرانية^(١) واتبع الكتب من أهلها، حتى علم علماً من أهل الكتاب؛ وأما عبد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة، فلما قدما تنصر وفارق الإسلام حتى هلك هنالك نصرانيّاً؛ وأما عثمان

(١) استحکم: توغل فيها وامتن.

ابن الحويرث فقدم على «قيصر» ملك الروم، فتنصر وحسنت منزلته عنده؛ وأما زيد بن عمرو بن نفيل فطوّف في الشام والعراق ثم عاد، فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميثة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموءودة وقال: أعبدُ رب إبراهيم؛ ونادى قومه بعباد ما هم عليه.

قالت أسماء بنت أبي بكر، رضى الله عنهما: لقد رأيت زيد ابن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً، مُسنّداً ظهره إلى الكعبة وهو يقول: «يا معشر قريش، والذي نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى!» ثم يقول: «اللهم لو أنى أعلم أنى الوجوه أحب إليك لعبدتك به، ولكنى لا أعلمه!» ثم يسجد على راحته.

ويقال: إن له في ذلك شعراً يقول منه:

أرئنا واحداً أم ألف رب أدين^(١)، إذا تقسمت الأمور
عزّلت^(٢) اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الجلد^(٣) الصبور
ولكن أعبد الرحمن ربي ليغفر ذنبي الرب الغفور

(١) أدين: أعبد.

(٢) عزّلت: هجرت.

(٣) الجلد: الحازم العاقل.

وكان من هؤلاء الذين سثموا دين الجاهلية وعبادة الأوثان؛ أبو قيس بن الأسلت في المدينة؛ فقد ذكر ابن كثير في البداية والنهاية أن ابن إسحاق، وسعيد بن يحيى الأموى في مغازيه، قالوا: إن أبا قيس هذا كان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وفارق الأوثان... وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها، ودخل بيتاً له فاتخذ مسجداً، لا يدخل عليه فيه حائض ولا جنب، وقال: أعبد إله إبراهيم. حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فأسلم فحسن إسلامه.



وهكذا كانت حالة العرب، وكانت حالة العالم كله، في أشد الحاجة إلى رسول من عند الله، ينقذ الناس من هذا الضلال، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم^(١).

(١) سورة المائدة الآية ١٦.

ليلة القدر

هجوم العظيم

غَفَى رسول الله ﷺ بعد زواجه بالسيدة خديجة، وتوفرت له أسباب الراحة والغنى وطمأنينة النفس؛ فقد كفاه الله مشونة السعى الممض^(١) في سبيل العيش، وأغناه عن الأجر القليل الذي كان يتقاضاه من رعاية الغنم لأهل مكة، بما أفاض عليه من الخير في تجارة زوجه خديجة. وأسلمت له خديجة زمامها إسلام الوثائق المطمئن، وفوضت إليه الأمر في تجارتها، يتصرف فيها تصرف المالك، وينتقل بها بين البلاد في نشاط وأمانة وحذق: يذهب أحياناً إلى الشمال وأحياناً إلى الجنوب، وأحياناً إلى الشرق وأحياناً إلى الغرب.

وبارك الله لهما في تجارتها فأدرت عليهما المال الوفير والخير الكثير، وأتم عليهما نعمة الوفاق والإخلاص والحب، فعاشا زوجين هانئين. وفي ظل هذه السعادة السابغة أنجبت خديجة

(١) الممض: المجهد الشاق.

البنين والبنات، فامتلاً البيت بهجة، وفاض جوه بالأنس والمرح،
وبات محمد في مكة مثلاً يُضْرَبُ للرجل السعيد.. حب ووفاق،
ومال وبنون، وخُلُقٌ وجمال، وحسب ونسب، وثقة وطمأنينة،
وهدوء بال وسعادة حال.. ماذا يُنْشَدُ المرء بعد ذلك من
أسباب السعادة؟

لكن محمداً برغم ذلك كله كان دائم التفكير كثير الصمت،
ميلاً إلى العزلة والانقباض عن الناس، كأنما يحمل فوق ظهره
حماً ثقيلاً من الهم، لا يستطيع النهوض به ولا الفكاك منه.
ماذا كان يحزُّنه؟ لم يكن في بيته سبب من أسباب الحزن حتى
يحزن ويكتئب، اللهم إلا أن طفلاً أو طفلين من أولاده ماتا؛
ولكن هذا ليس بالشئ الذي يرهق الرجل العظيم ويُسْودُهُ^(١)،
فالأولاد كثيراً ما يموتون، فيحزن الآباء والأمهات لموتهم حيناً من
الدهر، ثم تمر الأيام فتُنسى من أمرهم كل شئ، وتعود الحياة
إلى ما كانت عليه من النشاط والبهجة.

ماذا كان يحزن هذا الرجل العظيم إذن؟ وما الذى كان
يباعد بينه وبين الناس، ويحبب إليه الخلوة والانفراد؟ وفيما كان
تفكيره الدائم وصمته الطويل؟ لا شك أنه شئ عظيم ذلك

(١) يثود: يشق عليه احتماله.

الذى كَانَ يشغل باله ويقلق راحته؛ فقد عُرف، صلى الله عليه وسلم، بالجدِّ والتطلع دائماً إلى معالى الأمور.

كان يحزنه حال قومه

نعم، كان يحزنه حال قومه العرب، إذ كانوا على حال من الفساد تزعج كل ذى ضمير حسّاً؛ فقد فسدت عقائدهم وسيطرت عليهم الخرافات والأوهام، وانحدروا مع شهواتهم انحذار البهائم، وتناحروا فيما بينهم تناحر الوحوش، حتى غدوا أحط الأمم شأنًا وأشدّها فوضى، وطمع فيهم عدوهم من الفرس والروم والأحباش فانتقصوا بلادهم من أطرافها، وهم في غفلة ساهون عن مصيرهم، ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾^(١)، ويتفاخرون بالأباء والأجداد، ويتكاثرون بالأموال والأولاد.

كان، صلى الله عليه وسلم، ينظر في أحوالهم، فيُحسِّله ما هم عليه من الجهل والفساد، ويحزنه ما هم فيه من الغفلة والضلال، ويقلقه مصيرهم الذى يصيرون إليه؛ فيفكر ويطيل التفكير في أمرهم، ويتمنى أن لو صلَحَ حالهم، والنكشفت عن أبصارهم هذه الغشاوة، فأبصروا الطريق وساروا على الجادة. ولكن كيف السبيل إلى صلاحهم وقد جمدت عقولهم وعميت

(١) سورة محمد الآية ١٢.

بصائرهم، وتحكمت فيهم التقاليد والعادات تحكما لا أمل في الخلاص منه.

أين الطريق؟

من أجل هذا كان، صلى الله عليه وسلم، كثير المهمل والتفكير، دائم التأمل والصمت، يقلب وجوه الرأى فيما يرى من سوء الحال في قومه، ويلتمس الوسيلة للخلاص منه... يرى إمعانهم في الضلال وإغراقهم في الجهالة، فيسوء ذلك غاية الإساءة، ويحزنه غاية الحزن، ويلتمس وجه الصواب في هدايتهم إلى الطريق فلا يعرف أين الطريق...! بمن يستعين في هذه الحيرة؟ ومن يسترشد في هذا الضلال؟ وبأى دين تصلح هذه النفوس الجامدة، ونحيا هذه القلوب الخاملة؟

ها هم أولاء أهل الدين من اليهود والنصارى، لا يقلون في أحوالهم فسادا عن العرب؛ فهناك شوب من الشرك يشوب عقائدهم، وكثير من السيئات تدنس أفعالهم، «وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * لَوْلَا يُنَاهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ»^(١) بل «إن كثيرا

(١) المائدة آيتا ٦٢، ٦٣.

من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ^(١)...

ليس هؤلاء - إذن - بأرشد من أولئك، فكيف السبيل إلى إصلاح هؤلاء وهؤلاء؟ وما العمل لتقويم هذه العقائد الباطلة، وإيقاظ هذه القلوب الغافلة؟ ما أشدها حيرةً على الصديقين...! وما أعظمها ظلمة تغطى طريق السالكين المخلصين...! وما أثقله حملا تنوء به الجبال، وتعيأ به همم الرجال...!

كان هذا الهم الثقيل هو الذى شغل به رسول الله ﷺ باله، وأقلق من أجله راحته؛ وكانت هذه الحيرة الشديدة هى التى يضيق بها صدره، وتنقبض لها نفسه، فكان يفرّ بهم إلى الخلوات ويأوى إلى الجبال والغيان^(٢)؛ وهناك يخلو إلى نفسه فى عزلة من الناس، يتفكر ويتأمل، ويتوجه بقلبه وجوارحه إلى الله بارئ السموات والأرض، أن يشرح له صدره بنور الحق، وأن يخرج من هذه الحيرة، ويهديه سواء السبيل.

(١) سورة التوبة الآية ٣٤.

(٢) الغيان: الكهوف.

غار حراء

واختار، صلى الله عليه وسلم، «غار حراء» فاتخذها مكاناً لخلوته؛ وهو كهف صغير بأعلى جبل حراء، في الشمال الشرق من مكة، على نحو ثلاثة أميال، في مكان منقطع عن العمران، خال من النبات والزرع؛ يمشى السائر إليه نحو ساعتين ويصعد نحو ساعة، حتى إذا وصل إليه وجده كهفًا موحشًا رهيبًا، يزيد في وحشته ظلامه الشديد، وتُعدّه النَّائِ، وعزلته عن الناس، ووعورة الطريق إليه، إذ هو يقع على مقربة من القِمة، خلف صخرتين عظيمتين تقومان عند مدخله، لا يخلُص الداخل منها - مهما كان نحيفًا - إلا بعد مشقة وجهد، لشدة ما بينهما من تقارب واتصال، فإذا تخطَّأهما وجد الغار من ورائهما داخلًا في الجبل، محجوبًا عن كل ما حوله بالصخور الضخمة، ووجوده أشد من كل ما في الجبل عزلة ورهبة؛ يسوده الظلام الحالك، ولا يتسع لأكثر من شخص واحد، ينام فيه نومًا جافيًا خشنًا.

فكان، صلى الله عليه وسلم، يأوى إلى هذا الغار، فيعتكف فيه أيامًا وليالي، يتعبد ويتحنف^(١) على نحو ما كانت قريش تفعل

(١) التحنّف: من الحنيفية دين إبراهيم، وهى عبادة الله وحده. وقد كان بعض رجال قريش يفعلون ذلك.

في الجاهلية، ويتزود لذلك بما يكفيه من الطعام والشراب. ويقول الرواة: إنه، صلى الله عليه وسلم، كان يجاور في ذلك الغار شهراً من كل سنة، فإذا قضى جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به أن يقصد إلى الكعبة، فيطوف بها ما شاء الله أن يطوف، ثم يرجع إلى بيته.

على أنه، صلى الله عليه وسلم، لم يكن في ذلك مقلداً لغيره ممن عاصروه أو سبقوه من حنفاء العرب، بل كان ذلك إلهاماً من الله، وتهيئة لإشراق نور النبوة على نفسه الطاهرة الزكية؛ فقد «حُبِبَ إليه الخلاء» كما قالت عائشة، رضى الله عنها، وأولعت به نفسه ولعاً شديداً، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده، وأن ينفرد بنفسه في ذلك المكان النائي، بعيداً عن الناس وعن ضوضاء الحياة؛ يقلب بصره فيما حوله من مظاهر الكون، ويُجِيل بصيرته فيما شاء الله من ملكوت السموات والأرض، ويقضى نهاره صائماً وليله قائماً، متطلعاً إلى مشارق النور الإلهي الذي تهبأت له نفسه، واستشعرته بصيرته، واستشرف له فؤاده، وتفتحت له روجه. فكانت الرؤيا الصادقة أول ما أشرق عليه من نور النبوة، فلا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح؛ وكان إذا خلا وحده رأى ضوءاً وسمع صوتاً، حتى خشى على نفسه أن يكون قد أصابه ضرٌّ؛ فكان يفضى إلى

زوجه خديجة بمخاوفه. ويقول لها : « إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، وقد خشيت - والله - أن يكون هذا أمراً... » فتطمئنه خديجة وتقول له : « معاذ الله ! ما كان الله ليفعل ذلك بك، فوالله إنك لتؤدى الأمانة، وتصل الرحم وتصدق الحديث ».

ليلة القدر

وما زالت إشراقات النور الإلهي تتوالى عليه وهو في خَلْواته تلك، حتى كانت تلك الليلة المباركة، « ليلة القدر » التي هي خير من ألف شهر، إذ تفتحت فيها بركات السماء على الأرض، وظهرت فيها بشائر رحمة الله لعباده، فنزل فيها الرُّوحُ الأمين « جبريل » بوحي الله سبحانه، على رسوله محمد، ﷺ.

فكانت فاتحة عهد جديد، وبدء مرحلة حاسمة في تاريخ الناس كافة، تغير بها وجه التاريخ كله، وتطورت حياة العرب تطوراً عجيبيّاً، واتجهت البشرية في عقائدها وعباداتها وأخلاقها نحو الصواب؛ وكان ما أنزل الله من الوحي على رسوله فتحاً مبيّناً في حياته، صلى الله عليه وسلم، شرح الله به صدره، ورفع له ذكره. وبدل عمره يسراً، ووضع عنه ما أنقض ظهره من أوزار

القلق والحيرة^(١)، وهداه إلى الدين الذي ينقذ قومه من الهلاك،
ويخرج الناس من الظلمات إلى النور.

اقرأ باسم ربك

كان ذلك في شهر رمضان سنة ٦١٠ من ميلاد المسيح،
عليه السلام، وكان رسول الله ﷺ قد بلغ الأربعين من عمره؛
وكان قد خرج في ذلك الشهر إلى جواره في غار حراء، كما
كان يخرج في كل سنة؛ وكان الوقت ليلاً، والسكون شاملاً،
ورسول الله ﷺ قد فرغ من عبادته واستسلم للنوم؛ وبينما هو نائم
جاءه جبريل بأمر الله تعالى..

وفي ذلك يقول، صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عبيد بن
عُمير: «فجأني وأنا نائم بنمط من ديباج^(٢) فيه كتاب، فقال:
اقرأ.. قلت: ما أقرأ.. (قال): فغتنى حتى ظننت أنه الموت،
ثم أرسلني، فقال: اقرأ.. قلت: ما أقرأ.. (قال): فغتنى^(٣)
حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني^(٤) فقال: اقرأ.. قلت:
ما أقرأ.. (قال): فغتنى حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني،

(١) انقضى ظهره: أثقله. والأوزار: الاحمال.

(٢) الديباج: الحرير.

(٣) غتنى (بالتاء والطاء): ضغطني ومصرل.

(٤) أرسلني: تركني.

فقال : اقرأ !.. قلت : ماذا اقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع بى، فقال : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم﴾^(١).. (قال) : فقرأتها.. ثم انتهى فانصرف عني، وهَبَيْت من نومي فكأنما كُتِبَ في قلبي كتابًا..

«قال : فخرجت، حتى إذا كنت في وسط الجبل، سمعت صوتًا من السماء يقول : يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل. قال : فرفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صافٍ قدميه في أفق السماء يقول : يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل. (قال) : فوقفت أنظر إليه لما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي في آفاق السماء، فلا أنظر في ناحية إلا رأيته كذلك. لما زلت واقفًا ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكان ذلك.. ثم انصرف عني، وانصرفت راجعًا إلى أهلي.»

(١) سورة العلق الآيات ١ - ٥ .

خديجة تبشر الرسول وتثبته

ورجع، صلى الله عليه وسلم، يَرْجُفُ فؤاده من الروح^(١)؛ فلما انتهى إلى زوجه خديجة أبصرت ما بوجهه من تغير لونه فأفزعتها ذلك، فقامت إليه فجعلت تمسح عن وجهه وتقول: «لعلك لبعض ما كنت ترى وتسمع قبل اليوم!..» فقال: «يا خديجة، أرايت الذى كنت أرى فى المنام، والصوت الذى كنت أسمع فى اليقظة وأهال منه^(٢)؟.. فإنه جبريل قد استعلن لى وكلمنى، وأقرأنى كلامًا فزعت منه، ثم عاد فأخبرنى أنى نبي هذه الأمة!..» قالت خديجة: «أبشر يا بن عمّ واثبت!..» فوالذى نفس خديجة بيده، إنى لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة!..»

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل.. فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع. فقال ورقة: «قدوس! قدوس!..» والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة، لقد جاءه الناموس^(٣) الأكبر، الذى

(١) الروح: الفزع.

(٢) أهال: أربح.

(٣) الناموس: الوحى.

كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة.. فقولى له :
فليثبت!...» فرجعت خديجة إلى رسول الله، صلى الله عليه
وسلم، فأخبرته بقول ورقة بن نوفل.

ثم التقى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة بورقة بن
نوفل، فقال له : يا بن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت. فأخبره
رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فقال ورقة : «والذى نفسى
بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى
جاء موسى، ولئن أدركنى يومك لأنصرن الله نصرًا يعلمه...»
ليتنى أكون حيًا إذ يخرجك قومك!...» فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : «أو مخرجى هم؟...» قال : «نعم، لم يأت أحد
يمثل ما أتيت به إلا عُودى!...» ثم لم يلبث ورقة أن تُوفى،
وفتر الوحي عن رسول الله ﷺ، وانقطع عنه جبريل فلم يعد
يوصله بوحى السماء كما كان يتوقع، واستمر على ذلك مدة.

فترة الوحي

لم يكن رسول الله ﷺ يتوقع أن يفتر عنه الوحي، بعد
الذى سمعه من جبريل، وبعد الذى سمعه من ورقة بن نوفل،
فلما فتر عنه الوحي حزن حزنًا شديدًا، وذهبت به الظنون

مذاهب شتى، وجعل يتردد على غار حراء فيعتكف فيه كما كان يعتكف، ويخرج إلى رءوس الجبال فيتطلع منها في نواحي السماء، لعله يرى جبريل أو يسمعه، ولكن جبريل لم يظهر له ولم يخاطبه بشيء.

وكان أخشى ما يخشاه أن يكون ما سمعه في الغار ليس بوحى، وما رآه في الأفق ليس بملك، وأنه قد خُيل له ما يُخيل للكهان من شياطينهم؛ فكان إذا مرَّ بذهنه هذا الخاطر انقبض له صدره، وضأقت به نفسه، وذهب إلى خديجة يُفضى إليها بهمه وحزنه، ويشكو لها ما يخامر من هذه الهواجس، ويقول لها: «يا خديجة، والله ما أبغضت بُغض هذه الأصنام شيئاً قط، ولا الكهان... وإنى لأخشى أن أكون كاهناً...» فتطمئنه خديجة وتزيل عنه مخاوفه، وتقول فيما تقول: «كلا، والله لا يخزيك الله أبداً... إنك لتصل الرحم، وتقرى الضيف^(١)، وتحمل الكل^(٢)، وتكسب المعدوم^(٣)، وتعين على نوائب الحق^(٤)، وإن فيك من صفات الخير ما لا يجعل للشيطان سبيلاً إلى نفسك...».

(١) تقرى الضيف: تكرم.

(٢) تحمل الكل: تنهض بالأمر المهم وتحمل العبء العظيم.

(٣) تكسب المعدوم: تمنى الفقير والاحتاج.

(٤) تعين: تسعى في الخير وتعين عليه.

لكن فترة الوحي طالّت واسترسلت، حتى ظن رسول الله ﷺ أن ربه قد تركه وقلاه^(١)، وكره منه ما بدا عليه من الرعب عند رؤية الملك أول مرة، وأنه لم يَعدْ أهلاً لأن يتحمل تبعة الوحي وأثقاله. واشتد به الحزن حتى كاد يقضى عليه، وكثر تردده على الجبال وتطلعه إلى السماء تلهّفاً على عودة الوحي، وتشوقاً إلى رؤية جبريل عليه السلام، لعله يعود إليه فيُسمعه من هذه الآيات البينات ما يعيد إلى نفسه الطمأنينة والثقة.

يا لها من فترة شديدة شاقة، كانت تمر أوقاتها بطيئة ثقيلة مرهقة، تكاد اللحظة فيها تكون شهراً، وتكاد الساعة تكون دهرًا... ألا قَبَس من ذلك النور الإلهي الذي أضاءت له جوانب نفسه، يحو عنه ظلمة اليأس التي كادت تسودى به فتهلكه؟..

وحين أوشك اليأس أن يحطم قلبه، أدركه الله برحمته، فأرسل إليه أمينه جبريل، يحيى في نفسه ما فقدته من الأمل، ويعيد إليها الثقة والطمأنينة والحياة... فهذا جبريل، عليه السلام، قد ظهر له مرة أخرى، وتراءى له في أفق السماء، يناديه بصوته العظيم: «يا محمد، أنت رسول الله حقاً، وأنا جبريل»... ولكن رسول الله يُرْعَب منه كما رُعب في أول

(١) قلاه: أبغضه.

مرة، فيهبى إلى الأرض من شدة الهول... ثم يذهب إلى أهله
مقروراً^(١) يقول: «زملون..! زملون..!».

رحمة الله برسوله

والحق أن وطأة الوحي شيء فوق طاقة البشر العادى أن
يحتمله؛ ومع أن رسول الله ﷺ قد أمد بالقوة الكافية، وأعد
لاحتمال هذه الوطأة الشديدة، فإنه «كان يعاني من التنزيل
شدة، وكان إذا نزل عليه الوحي كُرب له وتريد وجهه^(٢)،
وتحدر منه العرق في اليوم الشديد البرد»*. وقد كانت الهزة
الأولى من هزات الوحي عنيفة قاسية، وكانت رؤية الملك لأول
مرة قد تركت في كيانه أثراً شديداً؛ فكان من رحمة الله برسوله
ﷺ أن يفر عنه الوحي فترة، حتى يستجمع شتات نفسه
الناثرة، وجسمه المضطرب، وقلبه الواجف، ويستعد لما وراء
ذلك من أثقال الوحي وتبعاته الجسام.

كانت فترة الوحي إذن شيئاً ضرورياً، وكانت رحمة من الله
برسوله، ونعمة من نعمه الكثيرة التي أنعم بها عليه. والمتأمل
في «سورة الضحى» التي نزلت في أعقاب هذه الفترة، يرى

(١) مقروراً: مرتعد الأوصال كمن به حمى.

(٢) تريد: الغير لونه.

* من أحاديث عائشة، رضى الله عنها..

هذا المعنى واضحاً كل الوضوح؛ إذ يقسم له ربه فيها بأنه ما هجره ولا تركه، ولا قطع عنه الوحي كُرْهاً ولا قِلًا.. وكيف وقد تولاه بالرعاية منذ نشأ، ولم يتخل عنه لحظة من لحظات حياته؟.. فأواه وهو يتيم قد فَقَدَ أباه وأمه، وأغناه وهو فقير يرعى الغنم على قراريط لأهل مكة، وهداه وهو ضالٌّ حائر لا يدرى كيف يصلح قومه، واصطفاه من دون قومه ليكون رسوله إليهم وإلى الناس كافة..! فهذه النعم الجلييلة المترادفة دليل على أنه لم يتخل عنه، وأنه سيظل يرعاه ويحوطه، وسوف يعطيه ثم يعطيه من فيض رحمته، حتى يطمئن ويرضى، وحتى تكون أخره خيرًا له من أولاه..!.

كانت فترة الوحي - إذن - نعمة من أنعم الله على رسوله، أراد بها تثبيته، وتقوية نفسه على احتمال ما يتوالى عليه من الوحي، حتى تم به حكمة الله تعالى في إرساله إلى الخلق.. وحين استجتم، صلى الله عليه وسلم، وأخذ جسمه كفايته من الراحة، وأخذت نفسه حظها من الهدوء، أرسل الله تعالى إليه جبريل، يباديه بالوحي مرة أخرى، ثم يواليه بعد ذلك بما شاء الله. منه، حتى أتم الله نعمته على خلقه، وأكمل لهم دينهم، ورضى لهم الإسلام دينًا.

ويحدث رسول الله ﷺ عن فترة الوحي - فيما يرويه جابر

ابن عبد الله - فيقول : « .. فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قبل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجثيت فرقاً منه حتى هويت إلى الأرض؛ فجثت أهلى فقلت : زملوني .. زملوني .. فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَذْثَرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبُّكَ فَكْبُرْ * وَثِيَابُكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾^(١) .. ثم حَمِيَ الوحي وتتابع؛ فقررت بذلك عينه، وَرَبَطَ جَأْشَهُ، واطمأن قلبه، وأيقن أنه رسول الله حقاً. ومنذ لك الحين بدأت مرحلة جديدة في حياته، صلى الله عليه وسلم، هي اصطلاحه بعبء الرسالة وتبليغها إلى الناس كافة.

(١) سورة المذثر الآيات ١ - ٧.

مطلع الفجر

المهمة الثقيلة

بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿والضُّحَى﴾ * والليل إذا
سَجَى * ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلَى * وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لك من
الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا
فَأَوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى *
فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ
رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿﴾.

كان نزول الوحي بعد فترته، بسورة «الضحى» برِّداً وسلاماً
على نفس النبي ﷺ، بعد أن عراه ما عراه من الهم والقلق
طوال هذه الفترة، وبعد أن داخله ما داخله خلالها من
المواجس والظنون. وكان ما تضمنته آياتها من معاني التثبيت
والتأييد، بَلَسْمًا شافياً لكل ما مادَّت به نفسه من نوازع اليأس
والخوف؛ فالنجابت بها مخاوفه، وأشرقَتْ نفسه من جديد، وشعر
بَرَوْحِ الأمل يسرى في كيانه، وأخذ كل شيء فيه يسترد نشاطه،

ويستعد بكل ما فيه من أسباب القوة، لاحتِمال العيب العظيم الذى ألقى على عاتقه.

لقد جاءه الحق الذى كان يتلمسه ويبحث عنه، وتحقق له الأمل الذى كان يَنْشُدُه ويتطلع إليه، وألقى عليه الوحي أثقل مهمة تُلقَى على بشر، وأهاب به أن يقوم لينذر الناس، ويدعوهم إلى عبادة الله العلى الأكبر، وهجر ما هم عليه من عبادة الأوثان، ومن ارتكاب الإثم والعدوان؛ وأمره أن يكون قدوة صالحة للناس فى ظاهر أمره وباطنه، وأن يُخلص وجهه ونفسه لله، وأن يصبر على ما يلاقيه فى سبيل دعوته إلى الله من مشقة وأذى.

كيف يدعو قريشاً إلى الحق؟

فكيف يدعو قريشاً إلى الحق، وهو يعلم أنهم أحرص ما يكونون على باطلهم؟ وأى طريق يسلك لإقناعهم بأن ما هم فيه هو الباطل، وأن ما جاءهم به هو الحق؟ وكيف وهذا الحق يُبطل عقائدهم، ويهدم تقاليدهم، ويهدد كل ما يتناولون به على الناس من جاه وسلطان، وما يستمتعون به فى الحياة من لذة ومتاع؟

لا شك أنهم ضلوا السبيل وبعُدوا عن الحق، فتركوا الإله الأكبر الذى يَخْلُقُ ويرزُق ويحيى ويميت، وإليه المرجع والمصير،

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ، وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضُرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾^(١)، وأيقنوا أن الحياة هي الحياة الدنيا، وأن الموت هو النهاية الأبدية، وأن هذه الفترة القصيرة من العمر، هي الفرصة التي ليس وراءها فرصة لانتهاج اللذائذ والمتع؛ فأطلقوا العنان لشهواتهم، واستمتعوا بكل ما يشتهون من النساء والبنين، والقناطير المقطرة من الذهب والفضة، والخييل المسؤومة والأنعام والحرث، وفرحوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، ولم يُدر يجلدُهم قط أن هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة، وأنها حياة أَدْوَم وأبقى، فيها النعيم المقيم لمن أحسن في حياته الأولى، وفيها العذاب الأليم لمن أسأ فيها.

ولكن الحق الذي يدعو إليه، لا يمكن أن يقوم إلا على تقويض هذه العقائد الباطلة التي يعتقدونها، وهدم هذه الحياة التافهة التي يحيونها، والاعتقاد بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن ما يعبدون من دونه من هذه الأوثان، إنما هي آلهة زائفة، لا تغني عنهم من الله شيئًا، ولا تملك لهم نفعًا ولا ضرًا؛ وأن وراء الموت بعثًا وحسابًا، وحياة أخرى يجازي الناس فيها على ما عملوا في الحياة الدنيا، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ

(١) سورة الفرقان الآية ٣.

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(١).
 فهل يمكن أن تقتنع قريش بأن آلهتها من الأصنام لا تنفع
 ولا تضر؟ وكيف وقد نشأوا يعبدونها كما يعبدوها آبائهم،
 ويعتمدون عليها في معاشهم؟ فهم أهل الحرم وسدنة البيت
 وخُدام الآلهة، والعرب من أجل ذلك يدينون لهم بالسيادة،
 ويعترفون لهم بالفضل، ويمدوهم بمدد عظيم من الأموال والأنعام
 والأرزاق، حين يقدّمون عليهم في مواسم الحج، وحين يقدمون
 في غير هذه المواسم للتجارة في أسواق مكة، أو لزيارة البيت
 الحرام، أو لاستخارة الآلهة في أمورهم ومشاكلهم، وهى أمور
 ومشاكل لا تكاد تنتهى.. فكيف يمكن أن يتركوا هذه الأصنام
 وهى التى تجلب لهم كل هذا الخير، وتمنع عنهم كثيرًا من أذى
 الأعراب الذين يسكنون في البادية، ويقطعون الطريق على
 القوافل الغادية والرائحة، إلا قوافل قريش، فهى تغلب وتروح
 آمنة لأنها قوافل أهل الحرم؟ وكيف يمكن أن يضحوا بهذا المدد
 الذى لا ينقطع من الأموال والأرزاق، وبهذه المنزلة التى وضعتهم
 فوق هامات العرب، وجعلت لهم السيادة والسلطان على قلوبهم
 وأرواحهم؟ إنهم سدنة البيت وخُدام الآلهة..! فهل بعد هذه
 منزلة يطمح إليها طامح في العرب جميعًا؟.

(١) سورة الزلزلة آيتا ٧، ٨.

وهل يمكن أن تصدّق قريش بأن وراء هذه الحياة حياة أخرى، فيها الحساب وفيها الجزاء على ما قدم الإنسان في الحياة الدنيا؟ وما عسى أن تكون هذه الحياة؟ وكيف يمكن أن تكون بعد الموت، وهم يرون الأجسام تُبلى وتاكلها القبور، فلا يبقى من آثارها إلا العظام النخرة، والتراب الذي تذرّوه الريح، فيذهب بدداً في نواحي الأرض؟ فهل يمكن إقناعهم بأن تلك الحياة شيء ممكن، وأنها شيء على الله يسير، وأنها هي الحياة الحقّة التي ينبغي أن يُعدّوا لها أنفسهم، وأن الحياة الدنيا إذا قيسَت إليها، إنما هي لعب ولهو ومتاع قليل وعرض زائل؛ وأن السعادة فيها ليست بما يتكاثر به الناس من مال وبنين، ولا بما يطاولون به من جاه وسلطان، ولكن بمقدار ما تنطوي نفوسهم من معاني الرحمة والعدل والإحسان والحب والإيثار؛ وأن هذه المعاني الكريمة هي التي تُخلَق من أجلها الإنسان، وهي التي تليق بشرف منزلته علو مكانته، وهي التي تميّزه عن الحيوان الأعجم، وتؤهله لأن يكون خليفة الله في الأرض، ينشر فيها مبادئ الحق والخير والسلام، ويقاوم روح الشر والإثم والعلوان؟..

كيف يمكن إقناعهم بهذه المبادئ السامية، وإعدادهم لإدراك هذه المعاني الكبيرة؟.. إنها لمعضلة صعبة ومشكلة معقدة، وإنها

لنحتاج إلى مدد من القوة ~~والعون~~ الإلهي.. ولكن ما دام الله القوي هو الذي أوحى إليه أن ينهض لهذا الأمر العظيم، فلينهض، وليتوكل على الله فهو حسبه، وهو نعم المولى ونعم النصير.. !

البداية بالدعوة

وجعل، صلى الله عليه وسلم، يفكر ويقلب وجوه الرأى، ليجد المدخل السهل الذى يدخل منه إلى قلوب هؤلاء السادرين فى ضلالهم، الجامدين على تقاليدهم وأوهامهم؛ فأخذ يتلمس أصحاب القلوب اللينة، والنفوس المستعدة للهداية وقبول الحق؛ وبدأ من هؤلاء بخلطائه وصحبه ممن يثق بهم ويطمئن إليهم، فجعل يدعوهم إلى الإسلام سرًا، إذ كان يحرص كل الحرص على ألا ينكشف أمر الدعوة فى بدايتها للسادة من قريش، مخافة أن يئبوا للقضاء عليها وهى لا تزال فى المهد. فقد كان يعلم أن قريشًا لا تحارب أحدًا كما تحارب من ينحرف عن دينها، ولا تقاوم شيئًا كما تقاوم الخروج على تقاليدها وعاداتها؛ وكان أفظع شيء يهيجها ويثير عجزتها أن تُمسَّ سيادتها وسلطانها على الناس أىّ مساس، إذ كانت سيادتها وسلطانها مصدر رفاهيتها ونعمتها. وكانت المبادئ التى تضمنتها دعوة الإسلام، من الإيمان بالله

واحد، ومن الإيمان بالبعث بعد الموت، وبالدار الآخرة وما فيها من الحساب والجزاء، وبأن الناس جميعاً إخوة سواسية، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، وأن للفقير حقاً معلوماً في مال الغنى.. هذه المبادئ وأمثالها مما تضمنته الدعوة كانت أشد المبادئ خطراً على دين قريش؛ ودين قريش هو مصدر سيادتها وسلطانها على العرب، ومصدر ما تستمتع به من رزق واسع وثراء عريض. فكان من الحكمة أن تتسرب هذه المبادئ إلى قريش في هدوء، وألا يستعلن أمرها إلا بعد رسوخها في قلوب الذين يتقبلونها ويستجيبون لها؛ حتى إذا آمنوا بها واستيقنتها أنفسهم، كانوا هم القواعد التي يقوم عليها البناء، والبذور التي توضع في الأرض لتؤتي ثمرها بإذن الله.

الرعييل الأول

من أجل ذلك أخذ رسول الله ﷺ يعمل في تكلم وحزم ويدعو إلى دينه سرّاً كل من يثق به ويطمئن إليه من أهله ومن خلائه؛ فآمنت به خديجة، وصدقت بما جاءه من الله، ووازرته على أمره، فكانت له نعم المعين، تثبته وتشجذه من عزمته، وتخفف عنه كل ما يُلِمُّ به من هم، وتهوّن عليه أمر الناس وما يلقيه من ردهم وتكذيبهم؛ ففرج الله بها عنه وشد من أزره.

وآمن به علي بن أبي طالب، وكانت سِنُهُ إذ ذاك حول العاشرة؛ وكان يعيش مع النبی في بيته، إذ كان أبوه أبو طالب كثير العيال، وكان قد مرت به أزمة شديدة، فأراد رسول الله ﷺ أن يخفف عنه، فأخذ منه «عليًا»، وأخذ عمه العباس «جعفرًا»؛ فنشأ علي في بيت رسول الله ﷺ كأنه ولده. فلما بُعث، صلى الله عليه وسلم، بدين الإسلام دخل عليه علي وهو يصلي مع خديجة، فوقف ينظر إليهما حتى أتتا صلاتهما؛ ثم سأل رسول الله عن هذا الذي رآه، فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «هذا دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسله؛ فادعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عبادته، وأن تكفر باللات والعزى». فقال علي: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم؛ فلست بقاض أمرًا حتى أحدث به أبا طالب. فكره رسول الله ﷺ أن يُفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره. فقال له: «يا علي، إذا لم تُسلم فاكم علي هذا الأمر ولا تحدث به أحدًا!». فكث علي تلك الليلة يفكر فيما رأى وما سمع من رسول الله، فأوقع الله في قلبه الإسلام، فأصبح غاديًا على رسول الله حتى جاءه فقال: ماذا عرضت علي يا محمد؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وتكفر باللات والعزى، وتسبأ من الأنداد

والشركاء». ففعل على كما علمه رسول ﷺ وكم إسلامه فلم يظهره. ومكث يأتي رسول الله على خوف من أبي طالب.

وكان رسول الله ﷺ إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه على بن أبي طالب مستخفياً من أبيه ومن جميع قومه، فيصليان في تلك الشعاب حتى إذا أمسيا رجعا؛ فكثا كذلك ما شاء الله أن يكثا.. ثم إن أبا طالب عثر عليها يوماً وهما يصليان؛ فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا بن أخي، ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟» قال: «يا عم، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبيينا إبراهيم، بعثني الله به رسولا إلى العباد. وأنت - ياعم - أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه وأعانني عليه»! - فقال أبو طالب: «يا بن أخي، إن لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه؛ ولكن، والله لا يخلص إليك شيء نكرهه ما بقيت...» ثم قال لعلي: «أني بني، إنه لم يدعك إلا إلى الخير، فالزمه»..

وكما آمنت خديجة وعلى من بيت النهي، صلى الله عليه وسلم، آمن غلامه وخادمه زيد بن حارثة.

وكان أبو بكر، رضى الله عنه، رجلا محبباً في قريش، يألف الناس ويألفونه، ويجتمعون عنده فيستمعون إلى حديثه

ومجلسه، وكان عالماً بأنساب قريش وأيامها، مُلماً بأنخبار الناس وحوادث الدهر، وكان رجلاً تاجراً يطوف بتجارته في الأفاق، فزادته التجارة والسياسة في البلدان علماً وتجربة، ومعرفة بأحوال القبائل وعادات الأمم، فكان مجلسه مجلس أنس وعلم وتسلية؛ وكان إلى كل ذلك لطيف المُعَشِّر حلو الحديث رَضِيَّ الخلق، وكان ذا جاه ومنزلة وثروة في قريش. وكان يحب رسول الله حباً شديداً، وكانت تجمعه به جامعة قوية من الثقة والإخلاص وصدق الصحبة. لما كاد رسول الله يعرض عليه الإسلام حتى أسلم؛ وكان إسلامه إسلام الواثق المطمئن إلى صدق ما جاء به صاحبه، فجعل يدعو إلى الإسلام سراً من كان يثق به من أصدقائه وأحبائه؛ فآمن بدعوته عثمان بن عفان والزبير ابن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن الزبير. فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له، فأسلموا وصدقوا بالله ورسوله.

وكان هؤلاء نفر أول السابقين إلى الإيمان بالله ورسوله، فكانوا هم اللبنة الأولى في بناء الإسلام، وهم الأساس الذي قام عليه صرحه الشامخ، والدعائم التي استحکم عليها بناؤه، حتى تم قمامه ورسخت قواعدة بإذن الله.

سادة قريش

المجتمع المكي

كان المجتمع المكيّ ثلاث طبقات متميزة، يختلف بعضها عن بعض في المكانة والمنزلة، ويختلف تبعاً لذلك ما تركه كل طبقة منها من أثر في ذلك المجتمع: طبقة السادة من الأغنياء والزعماء؛ وطبقة الرقيق من العبيد والإماء ومن في حكمهم من الذمّاء والعامة؛ وطبقة الأحلاف من العرب وغير العرب ممن كانوا يعيشون في مكة وليسوا من أهلها، ولكن تربطهم بالسادة من أغنيائها وزعمائها روابط الحلف والجوار. وذلك أن العرب كان في طبيعتهم نزعة التعصب للجار والحليف وحمايته من كل ما يسوء، كما يتعصبون في ذلك لأهلهم وعشيرتهم، فكان الغُرباء والدُّخلاء - ممن يفدون على مكة من العرب والعجم ويريدون أن يقيموا بها - يتحالفون مع بعض ساداتها على أن يعيشوا في حمايتهم؛ فيأمن الحليف بذلك كل اعتداء عليه، ويصبح كواحد من أسرة السيد الذي حالفه، يحارب من حاربهم

ويسالم من سالمهم، وله فيما عدا ذلك أن يكون حرًا في شئونه الخاصة، وأن يتخذ من أسباب الرزق ما يكفل له ولأهله العيش السعيد.

سيادة قريش على العرب

وكانت قريش على اختلاف بطونها وعشائرها، هم - في اعتقاد العرب - أهل الحرم، وكان للحرم مكانته في نفوس العرب جميعًا؛ ومن أجل ذلك كان العرب يعظمون قريشًا، ويدينون لهم بالسيادة عليهم، ويعتقدون أنهم أولو الأمر وأصحاب الحل والعقد في كل ما يتصل بشئون الدين. وكانت قريش تستفيد من ذلك أيما فائدة؛ فكانت لهم مكانة مرموقة، وسيادتهم سيادة مطلقة، وحياتهم في ظل هذه العقيدة حياة آمنة مطمئنة؛ قد أمنوا فيها على أموالهم وأنفسهم، واستمتعوا فيها بحرية واسعة وجاه عريض؛ والعرب مع ذلك يسعون إليهم في كل موسم من مواسم الحج، بما يحملون من الأموال والمتاع، وبما يقدمون إلى البيت من أنواع الهدى، وبما يحملون فوق ذلك إلى الأصنام من نذور وقرايين. وكان هنالك نوع آخر من هذا الدخل المستمر، يتمثل في شكل ضرائب يضربونها على الداخلين في أرض الحرم؛ والعرب يتقبلونها منهم بحكم العقيدة الدينية، غير باخلين بها ولا متأففين منها.

العبيد والإماء

وكان الرقيق من العبيد والإماء كذلك مَوْرِدًا آخر من موارد الرزق، وسببًا من أسباب النعمة التي يستمتع بها السادة من قريش، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من السادة في جميع الأمم والشعوب؛ إذ كان الرق نظامًا سائدًا في تلك العهود، وكان الرقيق يباعون ويُشْتَرَوْنَ كما تباع الأنعام وتشتري، ويُستخدمون كما تستخدم الأنعام أيضًا، يعملون لسادتهم ما يريدونهم عليه من الأعمال، دون أن يتقاضوا على ذلك أجرًا، ودون أن يكون لهم شيء من الحرية فيما يأخذون وما يتركون، ودون أن يكون لهم رأى بعد رأى سادتهم في شأن من الشؤون؛ فهم يعملون كآلات مسخرة، تنتج الزرع والضرع والخير الكثير، وتنتج فوق ذلك ما شاء الله من البنين والبنات، فيصبحون بحكم هذا الرق عبيدًا وإماءً لسادتهم، يعملون - كما يعمل آباؤهم وأمهاتهم - مسخرين بلا أجر ولا جزاء، اللهم إلا رضا سادتهم عنهم إذا هم أحسنوا العمل، أو غضبهم عليهم إذا هم أساءوا، فإذا ما رضى عنهم السادة فقد يجازونهم ببسمة كبرياء عابرة يرمسونها على شفاههم، أو كلمة عطفٍ ساخرة يستنزفون بها جُهدهم ويستنهضون بها قواهم. وقد يبالغون في الرضا عنهم، فيبيعون

لهم حريتهم بما يفترضون عليهم من الثمن، وربما منوا بها منّا عليهم، فيخرجون بذلك من ضيق العبودية إلى فرج الحرية؛ ولكنهم يظلون على كل حال أسرى الولاء لسادتهم حتى يموتوا. أما إذا غضب عليهم السادة، فالويل كل الويل لهم مما يلاقون من ضروب الإيذاء وألوان العذاب.

كان هؤلاء الرقيق باباً آخر من أبواب الثروة التي ينعم بها السادة من قریش، لا يقل في أهميته عما ينعمون به من الأموال والأنعام والثمار وعروض التجارة، بل ربما كان عندهم أكثرها أهمية، لأن الرقيق هم الأيدي العاملة التي تعمل فتنتج في كل ناحية من نواحي الإنتاج، وهم فوق ذلك مظهر من مظاهر الأبهة والسلطان، يحرص عليه السادة كل الحرص، ويتنافسون فيه أشد التنافس.



قضت مكة دهرًا طويلًا وهي تعيش في ظل هذا النظام، حتى أصبح عقيدةً راسخةً في أهلها أن السادة لهم السيادة المطلقة، وأن العبيد لهم العبودية المطلقة، وأن الأحلاف لهم الأمن والحماية ما داموا حلفاء للسادة، فإذا ما تقطعت بهم أسباب هذا الحلف فهم معرضون للأذى في أموالهم وأنفسهم وأهليهم. وقد اصطبغت هذه العقيدة بصبغة الدين، حتى أصبح

لها ما للدين من قداسة واحترام؛ ذلك أنها تتصل في بعض أوضاعها بالبيت الذي يحجون إليه، وبالألهة التي يعبدونها ويقدسونها.

المساواة في الإسلام

وكانت مبادئ الإسلام التي جاء بها محمد بن عبد الله تأتي هذا النظام وتعارضه كل المعارضة؛ فقد جاء الإسلام يسوّي بين السيد والعبد، وبين القوى والضعيف، وبين الغنى والفقير وجعل الإيمان والعمل الصالح مقياس التفاضل بين الناس؛ فالناس أمام الإسلام إخوة سواسية، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، ودمائهم وأموالهم وأعراضهم حرام بينهم؛ فلا يحل للمسلم دم أخيه ولا ماله ولا عرضه إلا بالحق: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ تُقَاتِكُمْ﴾. فكان هذا المبدأ - مبدأ المساواة بين السادة والعبيد - صدمة عنيفة للسادة في سيادتهم، وكان أول من أصيب بهذه الصدمة سادة قريش في مكة..

الإيمان بالآخرة

وكان الإيمان بالدار الآخرة صدمة أخرى لهؤلاء السادة، لا تقل في عنفها عن الصدمة الأولى؛ فقد كانوا يعيشون في

حرية مطلقة، لا تحدّها حدود ولا تقيدها قيود، يخضون ويلعبون، ويرتعون في الشهوات كما يشاءون، ظانين أن الحياة هي الحياة الدنيا، وأن الموت هو النهاية الأبدية، وأنه لا رقيب هناك ولا حسيب. فجاء الإسلام ينقض هذه العقيدة الخاطئة، يبين لهم أن الإنسان لن يُترك سُدىً في هذه الحياة، يرتع فيها كما ترتع السائمة، بل هو مسئول عن كل ما يعمل، محاسب عليه ومجزى عنه في حياة أخرى بعد هذه الحياة؛ وما الموت إلا الانتقال من هذه الحياة الفانية إلى تلك الحياة الباقية، ليسعد في نعيمها من أحسن العمل في الحياة الأولى، ويشقّ في جحيمها من أسماء العمل فيها: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ، لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ * خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك، إن ربك فعال لما يريد * وأما الذين سعادوا في الجنة، خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك، عطاء غير مجذوذ^(١).

عقيدة التوحيد

وكانت أعنف الصدمات، وأشدّها خطرًا عليهم عقيدة التوحيد، التي جعلها الإسلام أساسه الأول، وهي الإيمان بأن

(١) سورة هود الآيتا ١٠٦ - ١٠٨.

الله وحده هو الإله الحق، وأن كل ما عداه من الآلهة زيفٌ باطل، وأنه هو وحده مالك الملك، وواهب الرزق، ومقدّر الأجل، وإليه المرجع والمصير؛ وأن ما يدعون من دونه من الآلهة ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ﴾، وما له منهم من ظهير^(١)... فقد هدمت هذه العقيدة دينهم، وقوضت عقائدهم وكشفت لهم عن حقيقة هذه الأوثان التي يعبدونها، والتي يعيشون في ظلها سادة على العرب؛ فإذا هي وهم من الأوهام لا قيمة له ولا غناء فيه.

خطر الإسلام على سيادة قريش

إذن فهذا الدين خطرٌ عظيم يهدد سيادتهم، ويُقلق أمنهم وراحتهم، ويُقلب الأوضاع التي تعارفوا عليها وتوارثوها عن آبائهم وأجدادهم جيلاً بعد جيل.. إن هذا الدين يسوّى بين العبيد والسادة، فكيف يكونون هم وعبيدهم بمنزلة سواء؟ وكيف يمكن أن يكون العبيد إخوة للسادة، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم؟ وكيف يمكن تسخير هؤلاء العبيد إذا ما أحسّوا بأنهم أكفأ لسادتهم في منازل الشرف والكرامة؟ ومن يدري، فلعلهم أن يكونوا أكرم عند الله من سادتهم!.. وكيف تستقيم أمورهم

(١) سورة سبا الآية ٢٢.

بعد ذلك فى تجارتهم وزراعتهم، وفى رعاية أنعامهم وخدمة بيوتهم، وفى كل ما يسخر له هؤلاء العبيد من شئون حياتهم؟ إنه الفوضى والاضطراب إذن!.. بل هو الفساد الشامل يدعو إليه محمد وينشره بين الرقيق والدمماء، فيغريهم بسادتهم ويفسدهم عليهم!..

وإنه كذلك يندرهم عذاب الآخرة، ويخوفهم عاقبة هذه الحرية الواسعة التى يستمتعون بها؛ وذلك كَبَتْ للشعور، وتضييق للحرية، ومبالغة فى الحرمان، والتحذار بهم إلى منزلة العبيد؛ وإلا لماذا يكون الفرق بينهم وبين عبيدهم، إذا هم حوسبوا على الصغيرة والكبيرة كما يحاسب العبيد؟..

ثم هو فوق هذا وذاك يدعوهم إلى إله واحد، فيقضى بذلك على مكانة هذه الأوثان التى كانوا يَسُودون بها على العرب. فبأى شئ يسودون إذا زالت عن الآلهة قداستها والمحطت مكانتها، وأدرك العرب أنها لا تنفع ولا تضر، ولا تغنى عنهم من الله شيئاً؟..

ماذا بقى لهم بعد ذلك من أسباب السيادة والمجد إن لمجحت هذه الدعوة؟.. لا شئ!.. فكان لا بد لهم أن يقاوموها، وأن يحولوا بينها وبين الظهور والانتشار، وأن يقبروها قبل أن

يتفاقم خطرهما ويتطايّر شررها، فيأتى على كل ما يستعزّون به من
عزة ونعيم.

وهكذا عقدوا العزم على مقاومتها، محاولين بذلك أن يصرفوا
الناس عنها، ويحولوا بينهم وبين الإيمان بمبادئها الخطيرة..
﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ، وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن
يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(١).

(١) سورة التوبة الآية ٣٢.

الجهر بالدعوة

الحذر من قريش

استمر رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام سرًا، وأصحابه من حوله يدعون بدعوته، فيستجيب لهذه الدعوة من أراد الله له الهداية من رجال مكة ونسائها، فيزداد عدد المؤمنين بها يومًا بعد يوم. ولكنها كانت زيادة ضئيلة متباطئة، تطرد في تعثر وتمشي على استحياء؛ إذ كان الناس في مكة يخشون بأس قريش وسلطانها، فكان الذين يُسلمون منهم يسلمون في حذر وخوف.

وكان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يُسرُّ إلى أصحابه تعاليمه، ويحذرهم أن يستعلنوا بصلاتهم ودعوتهم، مخافة أن تتسرب أنباؤها إلى قريش، فتقضى عليها وهي لا تزال قليلة الأنصار ضعيفة الشوكة، فكان أصحاب الرسول إذا أرادوا أن يصلوا، خرجوا إلى ظواهر مكة، وأمعنوا في شعاب الجبال، فصلوا هنالك في منعطفاتها المنعزلة، مستخفين بصلاتهم من عيون القوم خشية أن تراهم.

لكن أنباء الدعوة على رغم ذلك تسربت إلى قريش،
فأخذوا يراقبون محمدًا وصحبه ليعلموا علمهم، وليعرفوا حقيقة
ذلك الأمر الذي يجتمعون له، ويتخافتون به، ويعتزلون القوم من
أجله. فبينما سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب الرسول
صلى الله عليه وسلم، في شِعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم
نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم وعابوا عليهم
ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد يومئذ رجلًا من
المشركين بلحى^(١) بعير فشج به رأسه؛ فكان هذا أول دم أريق
في الإسلام، وكانت هذه أول معركة بين المسلمين والمشركين في
مكة.

دار الأرقم

وقد حرص رسول الله ﷺ على أن يتجنب مواقف
الاصطدام بينه وبين قومه، فاختار له ولأصحابه مكانًا منعزلًا
عن الناس، هو دار الأرقم بن أبي الأرقم، وهو سيد من
سادات قريش الذين سابعوا إلى الإسلام، وكانت داره تلك على
مقربة من الصفا، فكان رسول الله ﷺ يجتمع فيها بأصحابه، يعظهم
ويرشدهم ويصلي بهم، ويتلو عليهم ما أوحى إليه من آيات

(١) اللحي: عظم من عظام الفك.

القرآن الكريم، ويعلمهم كيف يطبقون مبادئها في حياتهم؛ فكانت تلك الدار لهم مسجداً للعبادة، ومدرسة للتعليم والتهديب، وندوة للشورى وتدبير الأمور. واستمرت الحال على ذلك نحو ثلاث سنين، وعدد المسلمين يزداد شيئاً فشيئاً، حتى بلغ من أسلموا من الرجال والنساء نحو الأربعين، أكثرهم من المستضعفين والفقراء، وأقلهم من الأشراف والسادة.

دعوة العشيرة

ثم أوحى الله إلى رسوله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين، وأنزل عليه في ذلك قوله سبحانه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنْ بَرِئْتُ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١). وكان فيهم عمه عبد العزى بن عبد المطلب، وكان يدعى «أبا لهب»، لأن وجهه - فيما يقال - كان مشرقاً حسناً، تتلهب وجنتاه بالحمرة كما تتلهب النار. وكان مريباً من سراة قريش، كثير المال مسموع الكلمة؛ وكان شديد التعصب لدين قريش وتقاليدها، حريصاً أشد الحرص على أن يظل هذا الدين مرعى الجانب موفور الكرامة. وكانت فيه حدة وسفاهة واندفاع مع الغضب إلى غير

(١) سورة الشعراء الآيات ١٧٤ - ١٧٦.

حد. وكان أشد ما يسوءه أن تُمس قداسة الآلهة أو تُمتن كرامة الآباء، فيثور لذلك أعظم الثورة، ولا يبالي أن يعادى في ذلك أقرب المقرين إليه.

أبو هب

وكان رسول الله ﷺ يعرف منه ذلك، ويخشى أن يفسد عليه أمره بما فيه من حق وجهالة؛ فجعل يفكر في الوسيلة التي يستطيع بها أن يدعو عشيرته إلى الإسلام، بحيث يتقى شر هذا العم الجاهل، ويأمن أثر نفوذه القوي على بنى هاشم؛ فصنع لهم طعاماً ودعاهم إليه فحضروا، وكانوا نحو الأربعين رجلاً. فلما انتهوا من طعامهم تأهب الرسول لعرض دعوته عليهم، فبادره أبو هب بقوله: «هؤلاء عمومتك وبنو عمومتك، فتكلم ودع الصبابة!»^(١).. فلا تخرج على دين قومك، ولا تعرضهم لغضب العرب؛ فإن قومك لا يستطيعون مقاومة العرب قاطبة، وليس لهم مجرمهم طاقة!.. وقد علم قومك بما تريد أن تبدع في دينهم، ولم يخف عليهم أمرك وما تدعو إليه من الصبابة والخروج على تقاليد الآباء!.. فاربع^(٢) على نفسك وعلى بنى أبيك، واعلم

(١) الصبابة: هي الخروج على دين الآباء وتقاليدهم.

(٢) اربع: احلّز واحترس.

أن العرب لن يتركوك، ولن يَشُق عليهم أن يشبوا بك فيقتلوك!.. فارجع إلى دين آبائك وأجدادك خير لك، وإلا حبسناك حتى تشفى من مرضك الذى أنت فيه، وحتى نحول بين العرب وبينك.. فنحن أولى بتأديبك حتى يَثُوب إليك رشدك وتبرا من علتك.. فإن بنى أبيك أولى بتأديبك، وأحق من أخذك فحبسك، إن ألفت على ما أنت عليه، فهذا أيسر عليك وعليهم من أن تثب بك بطون قريش وتمدّها العرب.. لما رأيت أحدا جاء على بنى أبيه بشرّ مما جثتهم به..^(١)

وكان نائرا مهتاجا، يُلقي بالكلام فى عنف وشدة، كأنما يلقى بالقذائف والحُمم، ويشير بيديه مهددا متوعدا، وقد جَحَظت عيناه وانتفخت أوداجه، واصطبغ وجهه بحمرة قانية كأنما يتفجر بالدم، فلما سكّت لم يسكت عنه الغضب، فجعل جسمه ينتفض كأنه محموم، وجعلت عيناه ترسلان الشرر فى كل ناحية، حتى لتكاد تُحرق من تقع عليه من القوم. ونظر رسول الله ﷺ فإذا القوم سكوت، وإذا الجوّ كله وجوم وكآبة؛ فعلم أن الفرصة لم تَحْنْ بعد، وأن الجو غير ملائم للكلام، فسكت ولم يتكلم فى ذلك المجلس.

(١) تصرّلت فى هذه العبارة بمقدار ما يشرح غواضها ويوضح أغراضها فقط.

وتلَّبَّث رسول الله ﷺ أياماً، ثم دعاهم إلى وليمة أخرى.
وتقول الرواية التاريخية: إن بعض عمَّات الرسول أشترن عليه
ألا يدعو عمه أبا هُب؛ ولعله كان راغباً في ألا يدعو كذا،
ثم رأى أن يدعو اتقاء لشره، أو أملاً في أن يكتب الله له
الهداية فيبتدى. ومهما يكن من شيء فقد حضر أبو هُب هذه
الدعوة، كما حضر التي قبلها.. فما إن فرغ القوم من طعامهم
حتى بادرهم رسول الله قائلاً: «الحمد لله، أحمدوه وأستعينه،
وأومن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له.. أما بعد، فإن الرائد^(١) لا يكذبُ أهله، ولو
كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم.. والله الذي لا إله إلا هو،
إن لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس عامة.. وقد أمرني
الله أن أدعوكم إليه فقال: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾؛ وأنا
أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان، ثقيلتين في الميزان:
شهادة أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله.. والله يمتحن كما
تنامون، ولتبعن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون
بالإحساس إحساناً وبالسوء سوءاً، وإنها لجنة أبدًا أو لنار
أبدًا..! يا بني عبد المطلب، والله ما أعلم شاباً جاء قومه

(١) الرائد: الذى يرسل فى طلب الكلاء. وهو الطلبة التى يستطلع للقوم فيما.

بأفضل مما جئكم.. إلى جئكم بخير الدنيا والآخرة.. فمن
يحبني إلى هذا الأمر، ويؤازرنى على القيام به؟^(١)

موقف أبى طالب

فتكلم عنه أبو طالب كلامًا لينًا، واعتذر اعتذارًا لطيفًا،
فقال: «ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد
تصديقنا لحديثك! وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم،
غير أنى أسرهم إلى ما تحب فامض لما أمرت به، فوالله
لا أزال أحوطك وأمنعك^(٢). غير أن نفسى لا تطاوعنى على
فراق دين عبد المطلب».

أما أبو لهب فقد ثار ثائرًا، وانتفخ سحره، وعاد إليه حمقه
وجهله، فصاح كما يصيح الأسد المائج: «هذا والله
السوءة^(٣)..! خذوا على يديه^(٤) قبل أن يأخذ على يده غيركم؛
فإن أسلمتموه حيثل ذللم، وإن منعتموه قُتِلتم». .. ويقولون:
إن أخته صفية - إحدى عجات الرسول، صلى الله عليه وسلم،

(١) لامت بين الروايات المختلفة في سرد هذه النصوص ولم أخرج بها لي جملتها عن
نص كلامه صلى الله عليه وسلم، ولا عن المناسبة التي قيل فيها.

(٢) أمنعك: أحبك.

(٣) السوءة: العار.

(٤) خذوا على يده: امنعوه مما يريد.

- حاولت أن تهدئي من ثورته فقالت له : « أيجسن بك خذلان ابن أخيك؟ ألا يسرك أن يخرج من ضيضي^(١) عبد المطلب نبي...؟ » فصاح بها ناثراً : « هذا - والله - الباطل والخيال، وكلام النساء في الحجال^(٢)!.. فإذا قامت بطون قريش وقامت العرب معها، فما قوتنا بهم؟.. فما نحن إلا أكلة رأس^(٣)!.. » فقال أبو طالب : « والله لنمنعنه ما بقينا!.. ».

ونظر القوم إلى أبي طالب فإذا هو مصمم يعني ما يقول؛ فأروا أن من العار أن يتخلوا عن ابن أخيه، فالحازوا إلى أبي طالب. وخرج أبو لهب خزيان مغلولاً، يُنذر ويتوعد، ويقسم باللات والعزى : لَيبْذُلَنَّ دمه وماله في حرب هذه الدعوة، وليحولن بين هذا الصائب وبين ما يريد من تبديل دين قريش!..

ومنذ ذلك اليوم دبت العدواة بين أبي لهب وبين بنى هاشم؛ فوقفوا كلهم صفاً وراء رسول الله ﷺ يحوطونه ويمنعونه، ووقف هو من دونهم صفاً يحارب رسول الله ﷺ.

(١) ضيضي للره: أصله.

(٢) في بعض الروايات : وكلام ريات الحجال. وهو يعني أن هذا ليس من شأن النساء، إنما شأنهن أن يتزين بالخلاخيل وغيرها.

(٣) كناية عن قلة عددهم، يعني أن رأساً واحداً من الغنم تكفي لإشباعهم جميعاً.

وينأوته، ويحاول جهده أن يصرف الناس عن دينه. ﴿والله غالبٌ على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾^(١).

عداوة أبي لهب

واندفع أبو لهب في عداوته إلى غير حد، فلم يراع في ذلك رَجْمًا ولا قُرْبَى، ولم يقدر أن ذلك الذي يعاديه هو أن أخيه وصيهره وجارّه الأدنى وأعماه الغضب والتعصب عن كل ذلك فلم يأبه بشيء، وانساق مع نزعة البغض انسياقًا عنيفًا، حتى صار أعدى عدو للنبي، صلى الله عليه وسلم، وحتى أنزل الله فيه سورة عنيفة حادة، تعينه بالاسم، وتسلطه هو وزوجته بالويل وسوء المصير في الدنيا وفي الآخرة؛ فقد كانت هي الأخرى عنيفة العداوة للرسول، وكانت ترتكب من الحماقة في عداوتها ما لا يتفق مع مكانتها في قريش، وتأت من الأمور ما يهبط بها إلى دَرَك السفلة الأوغاد.

كان النبي، صلى الله عليه وسلم، جازًا ملاصقًا لعمه أبي لهب، وكان مع ذلك يُتَّ إلى بصلة المصاهرة؛ إذ كانت ابتلاء - رُقِيَّة وأم كلثوم - زوجتين لعُتْبَة وَعُتْبِيَّة ابني أبي لهب. ولكن هذه الصلات جميعًا لم تكن لتخفف شيئًا من حدة العداوة

(١) سورة يوسف الآية ٢١.

والحق في نفسه؛ بل كانت عداوته للرسول تزداد يوماً بعد يوم. ولعل عما كان يَشِبُّ في نارها ويزيد في استعارها، أن زوجها أم جميل بنت حرب، هي أخت أبي سفيان بن حرب زعيم بني أمية؛ ذلك الذي ظل على عداوته للإسلام ورسوله، حتى فتح الله عليه مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجا؛ فدخل فيه مع الداخلين..

وامراته حمالة الخطب

لقد كانت أم جميل تحمل في صدرها من الضغن على رسول الله أضعاف ما كان يحمل زوجها؛ وكان دأبها أن تشير الفتن بينه وبين عشيرته، وأن تسعى لدى القوم بالقيمة لتفسد عليه قلوبهم؛ حتى وصفها الله أشنع وصف، فسيهاها ﴿حمالة الخطب﴾، وهي صفة القمامة الواشية، التي تُشعل نار الفتن بين الناس، فتحرق ما بينهم من صلوات الود والتراحم، وهبط بها إلى أسفل ذُرْك حين صورها في صورة الخطابة، التي لا تكاد تمشي إلا و﴿في جيلها خيل من مسد﴾^(١)، تلم فيه الخطب من هنا ومن هناك، ثم تحمله إلى كوخها لتشعل به نارها.

والحق أن أم جميل كانت أشد عداوة للرسول ﷺ من

(١) سورة المسد.

زوجها أبى لُهب، فلم يكن يكفيها ما تثيره من الفتن بينه وبين قومه؛ بل كانت تعمل دائبة على تحقيره وامتهانه، وكانت تعيره بالفقر حيناً ويموت البنين حيناً، وحيناً تضع في طريقه الشوك والقَدْر، وحيناً تقرض في ذمه الشعر وتتغنى به في مجالسها. وقد بلغ من عداوتها وحقدِها على الرسول أنها لم تكن تنطق باسمه قط، ولم تكن تدعوه إلا «مُذَمِّمًا». وما أثر عنها في ذلك قولها :

«مُذَمِّمًا قَلْبِنَا»^(١) ودينه أبينا»^(٢) وأمره عصينا !»

وكان صلى الله عليه وسلم. يضحك من ذلك ويقول :
«يا عباد الله، انظروا كيف يصرف الله عنى شَتْمهم ولَعْنهم... ؟ يشتُمون مذمِّمًا ويلعنون مذمِّمًا وأنا محمد !...» .
ولعل أم جميل كانت مدفوعة إلى هذه العداوة القاسية، بعاطفة العداوة القديمة بين بنى هاشم رَهْط^(٣) رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وبين رهطها بنى أُمَيَّة بن عبد شمس؛ فقد كان بين الرهطين نزاع دائم، وتنافس على مناصب الشرف والزعامة في قريش، منذ عهد قصي بن كلاب، وقد ظلت الأجيال

(١) قَلْبِنَاه : كرمناه وأبغضناه.

(٢) أبينا : أبينا الدخول في دينه.

(٣) رهطه : قومه وعشيرته.

تتوارث هذه العداوة جيلا بعد جيل، فكان لها في الجاهلية وفي الإسلام تاريخ طويل، خُصِبَتْ صفحاته بالدماء الغزيرة، وامتلات بالخطوب الجسام.

ولعلها كذلك كانت مدفوعة إلى هذه العداوة، بعاطفة البغض الطبيعي بين الحماة وزوجة الابن؛ فقد كانت حماة لابنَي الرسول رقية وأم كلثوم؛ فوجدت في دعوة الرسول ﷺ إلى الإسلام، وفي خروجه على دين قومه، فرصة للتنفيس عن نفسها، والجهر بما تُكِنُّ في صدرها من الحقد والكراهية للرسول وآل بيته. وقد بلغ من حقدِها وكراهيتها أن أثرت عداوتها في نفس وَلَدَيْها عتبة وعتيبة فطلقا زوجتيهما، نكايه في رسول الله ﷺ وحقدًا عليه.

ولعل زوجها أبا لهب كان في استمرار عداوته للرسول مدفوعًا بتأثيرها أيضًا، فلم يكن يسرها أن تهدأ العداوة بينه وبين عمه؛ وكلما رأت منه جنوحًا إلى الصفاء، نفثت فيه سموم البغض فعاد إلى عداوته وضغنه. فقد كانت - فيما يُظَنُّ - امرأة جريئة وقحة، سليطة اللسان، قوية التأثير فيمن حولها؛ فإن ما وصفها به القرآن من شنيع الوصف، وما توعدُها به من شديد العذاب، يدل دلالة واضحة على أنها كانت قوية التأثير فيمن يحيطون بها، من الأهل والجيران والرفقاء.

ومهما يكن من شيء فقد كانت هي وزوجها أبو لهب من أشد الناس عداوة للرسول ودعوته، وكان هما الشديد وحزنها البالغ. أن تظهر هذه الدعوة، وأن ينجح هذا الرسول في تحويل الناس عن دين قريش؛ فجعلوا شغلها الشاغل أن يفسدا على الرسول أمره، وأن يصرفا الناس عن دعوته، وأن يبذلا في ذلك كل ما يستطيعان من جُهد ووقت وراحة ومال.

الجهر بالدعوة

على أن ذلك لم يمنع رسول الله ﷺ أن يجهر بدعوته وأن يبادى بها قريشاً، حين أوحى الله إليه أن يصدع بأمره، وأن يعرض عن المشركين ولا يبالي بهم. فلم يلبث أن ذهب إلى الصفا فصعد عليه، وجعل يصيح: «يا صباحاه... يا صباحاه...» - جرياً على عادة العرب حين يتداعون لأمر مهم، وحين يستصرخون لدفع خطب مُلِم - حتى اجتمعت إليه بطون قريش؛ فلما اجتمعوا إليه قال لهم: «أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً وراء هذا الجبل تريد أن تُغير عليكم، أكنتم مُصدّقين؟...» قالوا: نعم. أنت عندنا غير مُتهم، وما جربنا عليك كذباً قط. قال: «فإن نذير لكم بين يدي عذاب شديد... يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زهرة، يا بني تميم، يا بني مخزوم، يا بني أسد... إن الله أمرني

أن أندر عشيق الأقربين، وإن لا أملك لكم من الدنيا منفعة
ولا من الآخرة نصيباً، إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله...
يا معشر قريش، أنقذوا أنفسكم من النار، فإنني لا أغني عنكم
من الله شيئاً... إن مثلي ومثلكم كمثلي رجل رأى العدو
فانطلق يريد أهله أن يسبقوه إليهم، فجعل يهتف:
يا صباحاء... يا صباحاء... أتيتم، أتيتم...»

فقاطعه أبو لهب بقوله: «تباً لك سائر اليوم... ألهذا
جئتنا...؟» وكان هو أول من رد عليه فكذبه وأذاه، وصرف
الناس عنه؛ فأنزل الله في ذلك قوله سبحانه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي
لَهَبٍ وَتَبَّ^(١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ
لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ^(٢) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ
مَّسَدٍ^(٣)...﴾.

صيحة الصفا وأثرها في قريش

على أن هذه الصيحة لم تذهب سُدَى؛ فقد شاع حديث
الدعوة في مكة منذ ذلك اليوم، وتحدث الناس به في مجالسهم

(١) أتيتم: دعمكم العدو.

(٢) التَّبُّ والتَّيَابُ: الهلاك.

(٣) الجِيدُ: العنق. والمَسَدُ: الليف.

وَأَنْدَبْتَهُمْ . وَجَعَلْتَ نَفُوسَ أَهْلِ مَكَّةَ تَنْبِيْاً لِهَذَا الْأَمْرِ؛ فَأَخَذُوا
يَتَسَاءَلُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ : مَا هَذَا الدِّينَ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ؟...
﴿فَتَنْهَمُ مِنْ هَذَى اللَّهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾^(١) .
فَأَمَّا الَّذِينَ كَتَبَ اللَّهُ لَهُمُ السَّعَادَةَ، فَقَدْ جَعَلُوا يَتَسَلَّلُونَ تَبَاعاً إِلَى
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَسْتَوْضِحُونَهُ أَمْرَ هَذَا الدِّينَ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ،
فِيُشْرِحُهُ لَهُمْ فَيُسَلِّمُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الشَّقَاءَ، فَقَدْ
أَعْرَضُوا عَنْ هَذِهِ الدَّعْوَةِ، وَغَمِيتَ بِصَائِرِهِمْ أَنْ تَسْتَضِيَ
بِنُورِهَا، وَكَانُوا فِي ذَلِكَ فَرِيقَيْنِ : فَرِيقٌ وَقَفَ مِنْهَا مَوْقِفَ الْمُرَادَةِ
وَالْمَسَالَةِ، فَلَمْ يَقَاوِمُوا وَلَمْ يَعْرِضْ لَهَا بِسُوءٍ؛ وَفَرِيقٌ وَقَفَ مِنْهَا
مَوْقِفَ الْعَدَاءِ وَالْحَارِيَةِ، فَجَعَلُوا وَكُدَّهُمْ أَنْ يَقَاوِمُوهَا وَأَنْ يَقْضُوا
عَلَيْهَا؛ وَكَانَ جُلُّ هَؤُلَاءِ، بَلْ كُلُّهُمْ، مِنَ الزُّعَمَاءِ وَالسَّادَةِ،
الَّذِينَ رَأَوْا فِي هَذِهِ الدَّعْوَةِ قَضَاءَ عَلَى سِيَائِهِمْ، وَخَطَرًا عَلَى
مَصَالِحِهِمْ . وَكَانَ أَشَدَّهُمْ عَدَاوَةً وَأَعَنَفَهُمْ حَرِيًّا لِلرَّسُولِ وَدَعْوَتِهِ،
أَبُو جَهْلٌ بْنُ هِشَامٍ، وَأَبُو لَهَبٌ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، وَعُقَيْبَةُ بْنُ أَبِي
مُعَيْطٍ؛ وَقَدْ كَانَ الْأَخِيرَانِ جَارَيْنِ لِلنَّبِيِّ يُؤْذِيَانِهِ أَشَدَّ الْأُذَى . وَفِي
ذَلِكَ يَقُولُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا رَوَتْ عَائِشَةُ : «كُنْتُ بَيْنَ
شَرِّ جَارَيْنِ : بَيْنَ أَبِي لَهَبٍ، وَعُقَيْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ... إِنْ كَانَا
لَيَأْتِيَانِ بِالْفُرُوثِ»^(٢)، فَيَطْرَحَانِهَا عَلَى بَابِي، حَتَّى إِذَا لَيْتُونِ بِيَعُضَ

(١) سورة النحل الآية ٣٦ .

(٢) الفروث : ما يخرج من كرش الذبيحة .

ما يطرحون من الأذى^(١)، فيطرحونه على بابي...» فيخرج به،
صلى الله عليه وسلم، فيقول: «يا بني عبد مناف، أي جوارٍ
هذا؟...» ثم يلقيه بالطريق.

(١) المراد بالأذى هنا: كل ما يؤذي الإنسان منظره. ولعل المقصود منه هو البراز
وما يماثله من النجس.

أبو طالب وقريش

أحاديث قريش عن الدعوة

أخذ صوت الإسلام بعد صيحة الصفا يرتفع في مكة، بعد أن ظل خافتاً نحو ثلاث سنين، وأخذ المسلمون يتحدثون به جهراً بعد أن كانوا يتهامون به همساً، وأخذ الناس يتساءلون عن هذا النبأ العظيم الذي جاءهم به محمد؛ حتى صار ذلك حديث الغادى والرائح في مكة، وجعل الناس يتحدثون به في مجالسهم الخاصة والعامة، في بيوتهم وأنديتهم، وفي أوقات جديهم ولهمهم، وشغلهم وفراغهم، وسفرهم وإقامتهم.

وأخذ المستضعفون من العبيد والإماء ومن المساكين والفقراء، ومن الأتباع والموالي، يستمعون إلى أنباء هذه الدعوة، فيتنسّمون منها رُوح الأمل يهبّ عليهم، فيطمعهم في حياة أفضل من هذه الحياة، وفي منزلة أكرم من هذه المنزلة؛ فقد كانوا يعيشون في غمرة من الإهمال والظلم، تجعلهم أحط درجة من الحيوان الأعجم، ويقضون أيام الحياة مغمورين مطمورين،

مرغمين على أن يقبلوا عيشة الذل والبؤس حتى يموتوا. فهم يقطعون أيامهم بلا أمل ولا رجاء، ويعيشون ويموتون نسيًا منسيًا، كأنهم سَقَطُ المتاع^(١) في هذا الوجود.

فجاءهم الإسلام بمبادئه القويمة، لينقذهم من ذلك اليأس القاتل، ويفتح لهم باب الأمل في حياة أخرى بعد هذه الحياة، فيها العدالة المطلقة التي لا ظلم فيها، وفيها الجزاء الحق الذي لا شك فيه، وفيها السعادة الدائمة التي لا انقطاع لها. وهون عليهم أمر الحياة الدنيا وما يلاقون فيها من شدة العيش وقسوة الظلم، لما هي إلا فترة قصيرة يستطيع المرء أن يحتمل ما يعانیه فيها من المشقة، وأن يصبر على ما يلاقیه فيها من الظلم، حتى يصير إلى الحياة الأمنة المطمئنة، فيستمتع بما فيها من السعادة الدائمة. . وكل ما يبدله ثمنًا لهذه السعادة، أن يَغْمُر قلبه بالإيمان بالله، وأن يملا أيامه بالعمل الصالح.

أما هؤلاء الذين يظلمونهم من الأقوياء والسادة، فليس الله غافلا عنهم، ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنَعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْثَدْتُهُمْ هَوَاءً... يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ، وَرَزَّوْا لِلَّهِ

(١) سقط المتاع : ما لا قيمة له ولا غناء فيه من الأشياء.

الوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى الْمَجْرِمِينَ يَوْمِئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ *
سَرَّابِلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ
نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ^(١).

إقبال المستضعفين على الإسلام

بعثت هذه المبادئ السَّخَّعة الأمل في نفوس المستضعفين،
فأقبلوا يتدافعون إلى الإسلام إقبال الظَّماء على زلال الماء؛
فيتلقاهم رسول الله ﷺ بالبر والتكريم، ويبسط لهم وجهه وقلبه
ومجلسه، ويسوى بينهم وبين الذين يؤمنون من السادة والأشراف،
لا يفرق في ذلك بين الغنى والفقر، ولا بين القوى والضعيف،
ولا بين الحر والرقيق؛ ويقف منهم جميعاً موقف الأخ الشقيق
والوالد الرحيم، ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُحِلُّ
لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ
وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾^(٢)، ويضرب لهم المثل الكامل بخلقه
ودينه؛ وهم يتبعونه ويقلدونه، ويترجمون خطاه فيما يقول
وما يفعل، ويطيعونه طاعة الإكبار والإخلاص والحب.

(١) سورة إبراهيم الآيات ٤٢ - ٥١.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٧.

استهانة قريش بالرسول ودعوته

ولم تكن قريش في أول الأمر تدرك ما في هذه الدعوة من خطر على سيادتها ودينها، فكانت تنظر إلى الرسول وصحبه فلا تأنه لهم، ولا تلقى بالآ إليهم، ولا ترى فيما يفعلون شيئاً تنكره عليهم؛ وإنما هو رجل اختار لنفسه خطة في الحياة ووافقها فيها نفر من الناس، فهو لا يعدو أن يكون واحداً من ثلاثة... إما كاهن يتوهم الحق توهمًا كما يصوره له تبيعه من الجن، ثم يصوغه كلاماً لجوف، في ألفاظ مسجوعة، وعبارات موضوعة، لها طنين ورنين، ولكن لا تغنى من الحق شيئاً... وإما شاعر يهيم في لؤدة الخيال، ويسبح في متاهات الضلال، وسخر الناس بجلول لسانه وسحر بيانه، فيتبعه الغاؤون الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون... وإما صابئ مجنون، من أولئك الذين تضطرب عقولهم فيخرجون على ذين الآباء، فينبذهم المجتمع نبذ النوى، ويضطربهم إلى الفرار منه فيقضون حياتهم في وحشة وانقباض، وعزلة وانفراد، حتى يأتيهم الموت فبريحهم ويربح منهم.

ويؤكد الله تعالى لهم أن رسوله محمداً ﷺ ليس واحداً من أولئك، ويقسم على ذلك فيقول جل شأنه: ﴿فَلَا أَقْسَمُ

بما تُبصرون * وما لا تبصرون * إنه لَقَوْلَ رَسُولٍ كَرِيمٍ *
وما هو بقول شاعر، قليلاً ما تُؤْمِنُونَ * ولا بقول كاهن، قليلاً
ما تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ ... ولكنهم
لا يصدقون. وكلما رأوا رسول الله يهم بالدُّعْماء ويخاطبهم،
ويُنْزِلهم منازل الكرامة والاعتبار سخروا منه، وعابوا عليه أن
يكون رسولا ثم يهبط بنفسه إلى مستوى الدُّعْماء، أو يرتفع بهم
إلى مستواه. ويقولون: هذا دين السفهاء، ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا
مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ ﴿٢﴾. ويضحكون من المؤمنين كلما رأوهم،
ويتفكّهون بأخبارهم ويتنَدَّرون بما يصنعون معهم. وفي ذلك يقول
الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا
يُضْحَكُونَ﴾ * وإذا مَرُّوا بهم يَتَغَامَزُونَ * وإذا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ
انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وإذا رَأَوْهُمْ قَالُوا: إِنَّ هَؤُلَاءَ لَضَالُونَ ﴿٣﴾.
ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، لا يعابُ بهم ولا يهم
بسُخْرهم واستهزائهم؛ بل هو ماضٍ في سبيله يدعو إلى الله على
بصيرة، وأتباعه من الضعفاء يكثرُونَ ويتزايدون، وقليل من
السادة بين الحين والحين يُسلمون.

(١) سورة الحاقة الآيات ٢٨ - ٤٣.

(٢) سورة الاحقاف الآية ١١.

(٣) سورة المطففين الآيات ٢٩ - ٣٢.

قريش تحس خطر الدعوة

وانتشر الإسلام في مكة وذاع نبؤه في أرجائها، ودخل الناس فيه أرسالا من الرجال والنساء؛ وبدأ رسول الله يعيب على الكفار دينهم، ويذكر آهتهم بالسوء، ويتوعدهم بما أعد لهم من العذاب في الآخرة؛ فساء الأمر بينه وبينهم، وبدأت العداوة تسرى في القلوب، وأخذوا يُحسّون خطر الإسلام عليهم وعلى دينهم، ويفكرون في القضاء عليه قبل أن يتفاقم خطره ويتعاضم ضرره؛ واجتمعوا يتبادلون الرأي فيما بينهم: كيف يقضون على هذا الدين، ويصرفون الناس عنه؟.

أما شباب قريش وفتيانها المتحمسون، فقد رأوا أن يكسبوا الداء من أساسه، ويقطعوا الشجرة من جذورها، ولا يرون ذلك إلا بقتل محمد والخلاص منه. وأما شيوخها وحلياؤها فقد آثروا الحكمة والأناة، ورأوا ألا يعرضوا لحمد بسوء حتى يُغلدوا فيه، وحتى يسمع منهم ويسمعوا منه؛ فلعلّه أن يعود إلى الرشيد فيرجع إلى دين آبائه.

وتغلّبت حكمة الشيوخ على حماسة الشباب، فرأوا أن يقنعوا محمداً بالحسن؛ فاجتمع به الملأ من قريش، وحاولوا أن يعودوا به إلى دين قومه، وأن يرجعوه عن هذا الدين الذي فرّق به

فمهلهم وعاب آلهتهم، وجرّأ سفهاءهم على أشرافهم. فلم يسمع رسول الله ﷺ لهم ولم يقبل منهم، وقال لهم كما علمه الله سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾^(١).

قريش تسعى إلى أبي طالب

قال ابن إسحاق: «فلما رأت قريش رسول الله لا يُعْتَبَهُمْ^(٢) من شيء أنكروه عليه، من فراقهم وعَيَّبَ آلهتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حَذَّبَ عليه وقام دونه فلم يُسَلِّمْهُ إِلَيْهِمْ.. مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب: عُتْبَةُ وشَيْبَةُ ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، وأبو الْبَخْتَرِيِّ العاصي ابن هشام، والأسود بن المطلب، وأبو جهل بن هشام، والوليد ابن المغيرة، ونبيه ومُنَبِّه ابنا الحجاج، والعاصي بن وائل - أو من مشى منهم - فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أعلامنا، وضلّ آباءنا، فلما أن تكفّه عنا، ولما أن نُحَلِّيَ بَيْننا وبينه فَتُكْفِيكُهُ، فإنك على مثل

(١) سورة الكافرون.

(٢) لا يعتبهم: لا يرضيهم.

ما نحن عليه من خلافه!... فقال لهم أبو طالب قولا جميلا، فانصرفوا عنه؛ ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يظهر دين الله ويدعو إليه...

ثم شَرَى^(١) الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا، وأكثر قريش من ذكر رسول الله بينها فتَذَامَرُوا^(٢) فيه، وحض بعضهم بعضاً عليه.

ثم إنهم مشؤا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلةً فينا، وإنا قد استنهنك من ابن أخيك فلم تنهه عنا. وإنا - والله - لا نصبر على هذا، من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين - أو كما قالوا - ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم؛ ولم يطمع نفساً بإسلام رسول الله ولا خذلانه.

العزيمة الصادقة

قال ابن إسحاق.. حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة ابن الأحنس: أن قريشاً حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة،

(١) شَرَى: اشتد.

(٢) تَذَامَرُوا: اجتمعوا على كراهته وبغضه.

بعث إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا - للذي كانوا قالوا له - فأبقى عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق. (قال): فظن رسول الله أنه قد بدا لعمه فيه بُتُو، وأنه خاذله ومُسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يُظهره الله أو أهلك دونه!...» ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى، ثم قام... فلما ولى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي... فأقبل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء تكرهه أبداً...

قال ابن إسحاق: ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله وإسلامه، وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له - فيما بلغني - : يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أنهذ فتى في قريش وأجمله؛ فخذّه، فلك عقله ونصره، واتخذّه ولداً فهو لك... وأسلم لنا ابن أخيك - هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك وسفّه أحلامهم -

فَنَقَتْلُهُ، فَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ بَرَجُلٍ. قَالَ أَبُو طَالِبٍ: وَاللَّهِ لَيُشَسَّ مَا تَسُومُونَنِي!.. أَتَعْطُونَنِي ابْنَكُمْ أَغْدُوهُ لَكُمْ، وَأَعْطِيَكُمْ ابْنِي تَقْتُلُونَهُ؟... هَذَا وَاللَّهِ لَا يَكُونُ أَبَدًا!... (قَالَ): فَحَقِّبِ الْأَمْرَ وَحَمِّيتِ الْحَرْبَ، وَتَنَابَذَ الْقَوْمُ وَبَادَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا»

بنو هاشم يتعصبون للرسول

ورأى أبو طالب أن الأمر بينه وبين قريش أصبح جدًّا لا هزل فيه، وأنه غدا أمر كرامة لا بد أن تصان، وعصبية لا بد أن يدافع عنها؛ فجمع بنى هاشم وعرض عليهم ما دار بينه وبين قريش، وما كان من أمره وأمرهم، وتشاور معهم فيما يجب أن يفعل؛ فاتفق رأيهم جميعًا على أن يذودوا عن شرفهم، وأن يقفوا صفًّا وراء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وإن لم يكونوا على دينه.. إلا أبا لهب، فقد خرج بمفرده على إجماعهم، وأثر أن ينحاز إلى جانب العدو، وإن شذ في ذلك عن مألوف العرب وتقاليدهم؛ مدفوعًا إلى ذلك بما كان يكنّ في صدره من الحقد على رسول الله ﷺ وعلى دعوته.

وهكذا وقفت قريش كلها صفًّا، ووقف بنو هاشم صفًّا وأخذت العداوة بين الفريقين تعمل عملها.. قريش تدافع عن دينها وسيادتها، وبنو هاشم يدافعون عن شرفهم وكرامتهم..

وكان للخصومة القديمة بين بنى هاشم وبنى أمية أثرها في اشتداد هذه العداوة وقسوتها؛ ولكن بنى هاشم صمدوا لها صمود الأبطال، ولم تسمح لهم كرامتهم، أن يتخلوا عن رسول الله، وإن كانوا قد احتملوا بسببه أذى كثيرًا.

الاضطهاد والتعذيب

غيظ قريش

أثار موقف أبي طالب ثائرة السادة من قريش، ودفعهم إلى الشطط في محاربة الدعوة، فقد عرضوا عليه كل ما يمكن من عروض الترضية، ليتخلى لهم عن ابن أخيه، فلم يظفروا منه بطائل، ووقف من دونه كالطود يحميه ويحوطه، ومن ورائه بنو هاشم يناصرونه ويشدون أزره. واستمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، في دعوته، يدعو الناس إلى الإيمان بالله الواحد القهار، ونَبَذَ ما يعبدون من دونه مما لا يضرهم ولا ينفعهم؛ وتتابع نزول القرآن عليه في تحقير آلهة المشركين، وجعل رسول الله ﷺ كلما نزلت عليه آية تلاها على أصحابه، فيذيعونها في أرجاء مكة، فيشتد لذلك غضب الملأ من قريش، ويدفعهم الغضب إلى الثورة، ويحفزهم للانتقام من هذا الذي يعرض لأهنتهم بالسوء.. ولكن ماذا ينالون منه وبنو هاشم من حوله يحوطونه ويمنعونهم؟..

انتقام قريش

واشتد بهم الغيظ، لم يجدوا متنفساً لغيظهم إلا أن يشعروا بالضعفاء الذين أسلموا واتبعوا محمداً، عن لا سند لهم يمنعهم، ولا ظهر لهم يحميهم، فانقضت كل قبيلة على من فيها من العبيد والإماء، والمساكين والفقراء، والأتباع والموالي، يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم. وافتنوا في ذلك أفانين، وابتدعوا ضروباً من الشر، تدل بوحشيتها وقسوتها على ما كانت تغل به صدورهم من الثورة والغيظ، ومن الحق الشنيع على دعوة الإسلام، وعلى كل من يؤمن بها، أو يتعصب لها، أو يدافع عنها.

تعذيب المستضعفين

قال ابن الأثير في تاريخه الكامل: «فأما من كانت له عشيرة تمنعه فلم يصل الكفار إليه؛ فلما رأوا امتناع من له عشيرة، وثبت كل قبيلة على من فيها من مستضعفي المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ورمضاء مكة والنار، ليفتنوهم عن دينهم.. فمنهم من يُقتل من شدة البلاء وقلبه مطمئن بالإيمان، ومنهم من يتصلب في دينه ويعصمه الله منهم..»

بلال

فمنهم بلال بن رباح الحبشي، وكان أبوه من سبي الحبشة وأمه حمالة سبيّة أيضاً.. فصار بلال لأمية بن خلف الجهمحي، فكان إذا حمت الشمس وقت الظهيرة يلقيه في الرمضاء على وجهه وظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتلقى على صدره ويقول: لا والله، لا تزال كذلك حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى!.. فيقول وهو في ذلك البلاء: «أحد.. أحد!..» فرآه أبو بكر يعذب فقال لأمية بن خلف ألا تتق الله في هذا المسكين؟.. فقال: أنت أفسدته فأبعدته. فقال له أبو بكر: عندي غلام على دينك أسود أجلدُ من هذا، أعطيكه به. قال: قبلت. فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذ بلالا فاعتقه فهاجر وشهد المشاهد^(١) كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

آل ياسر

ومنهم عمار بن ياسر.. أسلم هو وأبوه وأمه، وأسلم قديماً ورسول الله ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم، بعد بضعة

(١) المشاهد: الغزوات.

وثلاثين رجلاً. وكان ياسر حليفاً لبني مخزوم؛ فكانوا يُخرجون
عماراً وأباه وأمه إلى الأبطح^(١) إذا حميت الرمضاء، يعذبونهم بحرّ
الرمضاء؛ فمر بهم النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «صبراً
يا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة».. فأت ياسر في العذاب،
وأغلظت امرأته سمية القول لأبى جهل، فطعننها في قُبلها بجريرة في
يديه فماتت؛ وهى أول شهيدة في الإسلام. وشدّوا العذاب على
عمار، بالحر تارة وبوضع الصخر الأحمر^(٢) على صدره تارة،
وبالتغريق تارة أخرى؛ وقالوا: لن نتركك حتى تسب محمداً
وتقول في اللات والعزى خيراً..! ففعل، فتركوه. فأتى النبي،
صلى الله عليه وسلم، يبكى. فقال له: «ما وراءك؟» قال:
شر يا رسول الله.. كان الأمر كذا وكذا. قال: «فكيف تجد
قلبك؟» قال: أجده مطمئناً بالإيمان. قال: «يا عمار، إن
عادوا فعد.. فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقُلُوبُهُ مُطْمَئِنٌّ
بِالإِيمَانِ﴾^(٣). فشهد المشاهد كلها مع رسول الله، صلى الله عليه
وسلم.

(١) الأبطح: فضاء واسع يكثر فيه الحصى.

(٢) أحمر: أى حامياً شديداً الحرارة.

(٣) سورة النحل الآية ١٠٦.

خَبَاب

ومنهم خَبَاب بن الأرت.. كان أبوه سَوَادِيًّا من كسكرة؛ فسباه قوم من ربيعة وحملوه إلى مكة. فباعوه من سباع بن عبد العزى الخزاعي، حليف بني زهرة.. وكان إسلامه قديمًا - قيل: سادس ستة - قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم. فأخذ الكفار وعذبوه عذابًا شديدًا، فكانوا يُعرونه ثم يُلصقون ظهره بالرمضاء ثم بالرضف - وهى الحجارة المحاماة بالنار - ولَوُوا رأسه، فلم يجبهم إلى شيء مما أرادوا منه. وهاجر وشهد المشاهد كلها مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

صُهَيْب

ومنهم صُهَيْب بن سِنَان الرومى.. ولم يكن روميًا، وإنما نسب إليهم لأنهم سَبَّوه وباعوه.. وهو من النمر بن قاسط. كناه رسول الله «أبا يحيى» قبل أن يولد له. وكان ممن يعذب فى الله فعذب عذابًا شديدًا. ولما أراد الهجرة منعتة قريش، فافتدى نفسه منهم بماله أجمع.

عامر بن فهيرة

أما عامر بن فهيرة فهو مولى الطفيل بن عبد الله الأزدي - وكان الطفيل أخا عائشة لأمها، أم رومان - أسلم قديماً قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم. وكان من المستضعفين، يعذب في الله فلم يرجع عن دينه. اشتراه أبو بكر وأعتقه، فكان يرعى غنماً له. وكان يروح بغم أبي بكر إلى النبي وإلى أبي بكر لما كانا في الغار؛ وهاجر إلى المدينة يخدمهما، وشهد بدرًا وأحُدًا، واستشهد يوم بئر معونة؛ ولما طعن قال: «فُزْتُ ورب الكعبة...».

أبو فكيهة

ومنهم أبو فكيهة.. وكان عبدًا لصفوات بن أمية.. أسلم مع بلال، فأخذه أمية وربط في رجله حبلاً، وأمر به فجر، ثم ألقاه في الرضاء، ومّر به جُعَلٌ^(١) فقال له أمية: أليس هذا ربك؟ قال: الله ربى وربك ورب هذا.. فخنقه خنقاً شديداً؛ ومعه أخوه أبي بن خلف، فيقول: زده عذاباً حتى يساقى محمد فيخلصه بسحره. ولم يزل على تلك الحال حتى ظنوا أنه قد

(١) الجعل: الجعران.

مات؛ ثم أفاق.. فر به أبو بكر فاشتراه وأعتقه. وقيل: إن
 بنى عبد الدار كانوا يعذبونه - وكان مؤثى لهم - وكانوا يضعون
 الصخرة على صدره حتى دَلَع^(١) لسانه، فلم يرجع عن دينه،
 وهاجر ومات قبل بدرا.

لبينة

ومنهم لبينة، جارية بنى مؤمل بن حبيب.. أسلمت قبل
 إسلام عمر بن الخطاب؛ وكان عمر يعذبها حتى تفتن، ثم
 يدعها ويقول: إنى لم أدعك إلا سامة. فتقول: كذلك يفعل
 الله بك إن لم تسلم فاشتراها أبو بكر فاعتقها.

زنية

ومنهم زنية.. وكانت لبى عدى، وكان عمر يعذبها.
 وقيل: كانت لبى غزوم؛ وكان أبو جهل يعذبها حتى عميت.
 فقال لها: إن اللات والعزى فعلا بك. فقالت: وما يُدرى
 اللات والعزى من بعدهما؟ ولكن هذا أمر السماء، ورى قتادر
 على رد بصرى!.. فأصبحت من الغد وقد رد الله بصرها.

(١) طلع: خرج.

فقال قريش: هذا من سحر محمد.. فاشترأها أبو بكر فاعتقها.

النهدية

ومنهم النهدية.. مولاة لبني نهد، فصارت لامرأة من بني عبد الدار فأسلمت. وكانت تعذبها وتقول: والله لا أقلمت عنك أو يتاعك بعض أصحاب محمد.. فابتاعها أبو بكر فاعتقها.

أم عنيس

ومنهم أم عنيس.. وهى أمة لبني زهرة، فكان الأسود بن عبد يغوث يعذبها.. فابتاعها أبو بكر فاعتقها.



وهكذا أسرف المشركون فى تعذيب الضعفاء من المسلمين، وأرهقوهم إرهاباً شديداً، حتى كان منهم من لا يقوى على احتمال العذاب فيموت فى أيديهم، ومنهم من تضطره قسوة التعذيب إلى مجارة المشركين، فيرضيهم بظاهر من القول وقلبه مطمئن بالإيمان.

قال ابن إسحاق: «.. حدثني حكيم بن جبيرة عن سعيد

ابن جبير قال : قلت لعبد الله بن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب، ما يعذرون به عن ترك دينهم ؟ قال : نعم والله !.. إن كانوا ليضربون أحدهم ويُجيعونه ويعطشونه، حتى ما يقدر أن يستوى جالساً من شدة الضر الذي به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة.. حتى يقولوا له : اللات والعزى إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم.. حتى إن الجعل ليُرهم فيقولون له : هذا الجعل إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم.. افتدأ منهم مما يبلغون من جهده.

قال ابن إسحاق : وكان أبو جهل الفاسق هو الذي يُغري بهم في رجال من قريش.. إن سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومَنعة أثبه وخزاه، وقال له : تركت دين أبيك وهو خير منك ؟ لنسُفهن حِلْمك، ولنفلن رأيك، ولنضعن شرفك !.. وإن كان تاجراً قال : لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك !.. وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به.

الرسول يثبت أصحابه

وكان رسول الله ﷺ يتألم لأصحابه أشد الألم، ولكنه كان يدعوهم إلى الصبر، واحتمال ما يلقون من العذاب والأذى في

سبيل الله حتى يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده. وكان يهون عليهم شدة العذاب بما يذكر لهم من سير المؤمنين في الأمم التي خلت، وما كان من قوة احتمالهم، ورسوخ إيمانهم، وصبرهم على ألوان من العذاب أشنع وأقسى مما يلاقون هم. ويؤكد لهم أن نصر الله آت لا ريب فيه، وأن رحمة الله قريب من المحسنين.

روى البخاري عن قيس قال : سمعت خباباً يقول : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد ببردته وهو في ظل الكعبة - وقد لقينا من المشركين شدة - فقلت : ألا تدعو الله ؟ فقعد وهو محمر الوجه فقال : « قد كان من كان قبلكم ثم شط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه !.. ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق بثلثتين، ما يصرفه ذلك عن دينه !.. وليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، ما يخاف إلا الله، عز وجل، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون !.. »

لم يقتصر التعذيب على الضعفاء

على أن كثيراً من المسلمين الذين كانت لهم عشيرة تحميهم لم يسلموا كذلك من الأذى.. فقد عذب عثمان بن عفان وكان

من عليّة القوم؛ وأوثقه عمه بجبل من مسدّ وجعل يضربه ضرباً مبرّحاً. وكان الزبير بن العوام يُلَفّ في حصير ويترك ليستنشق الدخان. وشجّ عمر بن الخطاب أخته فاطمة حتى سال منها الدم، وضرب كذلك زوجها سعيد بن زيد. وقُيّد أبو جندل بن سُهَيْل بن عمرو في الحديد وحبس، وعذبه أبوه عذاباً شديداً. وضرب أبو بكر حتى شجّ رأسه وسال منه الدم وغشى عليه، وحتى خرج مهاجراً إلى الحبشة، لولا أن رده ابن الدغنة سيد الأحابيش وأجاره من أذى قريش.

ولم يسلم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من الأذى، على رغم ما كان يحوطه من حماية بنى هاشم؛ فقد كانوا يضعون الشوك والقذر في طريقه، وكانوا يلقون على رأسه التراب وهو سائر، ويضعون عليه سَلًى^(١) الدبيحة وهو ساجد في البيت الحرام. وخنقه عَقْبَةُ بن أبي مُعَيْط في رجال من قريش حتى كادت نفسه تفيض، لولا أن تداركه أبو بكر فخلصه منهم وقال: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟» وسبه أبو جهل سباً قبيحاً يوم أسلم عمه حمزة. وسلطت عليه ثقيف سفهاءها وصبيتها يرمونه بالحجارة حتى دُمِيت قدماءه.. وكذبوه وسفّهوه واستهزؤوا.

(١) السل: الخلاص، وهو الكيس الذي يكون فيه الجنين وهو في بطن أمه.

به وسخروا منه، وقالوا: ساحر، وشاعر، وكاهن، ومجنون،
وأسمعوه كثيرًا من فحش القول ومُجر الكلام، واتتمروا به
ليقتلوه... ولن كل ذلك لم يَقُتْ في عضدّه، ولم يمنعهُ أن ينهض
بأمر ربه، حتى بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وتمت كلمة ربك
صدقًا وعدلاً.

الهجرة إلى الحبشة

خاف النبي على أصحابه الفتنة

رأى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن كفار قريش ممنون في تعذيب أصحابه، مندفعون في وحشية قاسية إلى التنكيل بهم، انتقاماً لاهتهم، وإبقاء على مكانتهم. ورأى أنه غير قادر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، فخشي على أصحابه أن يفتنهم طول العذاب عن دينهم، ورأى أن يختار لهم مكاناً يأمنون فيه على أنفسهم، ويتوارون فيه بعض الوقت عن وجوه أولئك الظلمة الجبابرة؛ فأشار عليهم أن يهاجروا إلى الحبشة، وقال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه».

وكانت الحبشة تدين بالنصرانية - دين عيسى ابن مريم - صلى الله عليه وسلم؛ وكان ملكها النجاشي نصرانياً صادق النصرانية، فخرج إلى الحبشة أحد عشر رجلاً وأربع نساء، فيهم

عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وفيهم الزبير بن العوام ابن عم خديجة، وجعل النبي عليهم عثمان بن مظعون، فكان هذا الفوج أول من هاجر من المسلمين إلى أرض الحبشة، وكانت هجرتهم إليها في شهر رجب من السنة الخامسة للرسالة.

فلما وصلوا إليها أكرم النجاشي مشواهم، وأحسن لقاءهم، ووجدوا عنده من الطمأنينة والأمن ما لم يجدوه في وطنهم وأهلهم؛ فشجعهم ذلك على أن يعيشوا في طلب إخوانهم المعديين في مكة، فأرسلوا نفرًا منهم ليخبروا رسول الله بما هم فيه من حسن الجوار وطيب العيش في بلاد النجاشي، ويعرضوا على من شاء من إخوانهم المسلمين أن يهاجروا معهم. فهاجر معهم في هذه المرة عدد كبير من الصحابة، حتى بلغ عدد الذين هاجروا إلى الحبشة نحو الثمانين رجلاً، عدا من كان معهم من النساء والأطفال؛ فأقاموا هنالك عند النجاشي في خير مقام. فغاض ذلك قريشاً، ودعاها إلى التفكير في أمر هذه الهجرة.

السعى بالمهاجرين عند النجاشي

قال ابن الأثير في تاريخه الكامل: «لما رأت قريش أن المهاجرين قد اطمأنوا بالحبشة وأمنوا، وأن النجاشي قد أحسن

صحبته، اتنمروا بينهم؛ فبعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، ومعهما هدية إليه وإلى أعيان أصحابه فسارا حتى وصلا إلى الحبشة؛ فحملا إلى النجاشي هديته وإلى أصحابه هداياهم، وقالوا لهم: إن ناساً من سفهائنا فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دين الملك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنم؛ وقد أرسلنا أشراف قومهم إلى الملك ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يرسلهم معنا من غير أن يكلمهم. وخافا أن سمع النجاشي كلام المسلمين ألا يسلمهم. فوعدهما أصحاب النجاشي المساعدة على ما يريدان.

ثم إنهما حضرا عند النجاشي فأعلماه ما قد قالاه؛ فأشار عليه أصحابه بتسليم المسلمين إليهما، فغضب من ذلك وقال: «لا والله، لأسلم قوماً جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي.. حتى أدعوهم وأسلهم عما يقول هذان؛ فإن كانا صادقين سلمتهم إليهما، وإن كانوا على غير ما يقول هذان، منعتهم وأحسنت جوارهم!».

النجاشي يأبى أن يردهم

. ثم أرسل النجاشي إلى أصحاب النبي ﷺ فدعاهم فحضرُوا، وقد أجمعوا على صدقه فيما ساءه وسره، وكان المتكلم

عنهم جعفر بن أبي طالب. فقال لهم النجاشي: «ما هذا الدين الذي فارقكم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من الملل؟» فقال جعفر: «أيها الملك، كنا أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف.. حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا لتوحيد الله وألا نشرك به شيئاً، ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام؛ وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء؛ ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم؛ وأمرنا بالصلاة والصيام - وعدد عليه أمور الإسلام - (قال): فآمنا به وصدقناه، وحرّمنا ما حرم علينا، وحللنا ما أحلّ لنا؛ فتعدى علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان؛ فلما قهرونا وظلمونا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك».

فقال النجاشي: «هل معك مما جاء به عن الله شيء؟» قال: «نعم». وتلا عليه صدرًا من «سورة مريم»؛ فبكى النجاشي وأسأفته، وقال النجاشي: «إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة!.. انطلقا؛ فوالله لا أسلمهم

إليكما أبداً!..» فقال عمرو بن العاص للنجاشي: «إن هؤلاء يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً!..» فسألهم النجاشي عن قولهم في المسيح. فقال جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا: «هو عبد الله ورسوله، وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول» فأخذ النجاشي عوداً من الأرض وقال: «ما عدا^(١) عيسى ما قلت هذا العود!..» وقال للمسلمين: «اذهبوا فأنتم آمنون.. ما أحب أن لي جبلاً من ذهب وأنني أذيت رجلاً منكم!..» ورد هدية قریش.. وأقام المسلمون بخير دار.



وطابت الإقامة للمسلمين بأرض الحبشة، ووجدوا من ملكها النجاشي كل رعاية وعناية، فأقاموا بها آمينين، لم يرجع منهم أحد إلى مكة إلا عثمان بن عفان، فقد رجع إليها بعد قليل هو وامراته رقية بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أما بقية المهاجرين من أصحاب رسول الله، فقد ظلوا مقيمين بالحبشة نحو أحد عشر عاماً، ولم يرجعوا حين رجعوا منها إلى مكة، بل رجعوا إلى المدينة بعد أن هاجر النبي إليها، وبعد أن تم بينه وبين قریش صلح الحديبية في السنة السابعة من الهجرة.

(١) ما عدا: يعني هو كما قلت.

ولم يعيش المسلمون في بلاد الحبشة بمعزل عن الناس، ولا بمنأى عن الحوادث التي كانت تجري هنالك، بل شاركوا الأحباش في عواطفهم، ففرحوا لفرحهم وحزنوا لحزنهم، وبذلوا لهم كل عواطف الود والمجاملة. وحين ثار على الحبشة بعض أعدائها، رأى المسلمون من واجبهم أن ينضموا إلى صفوف المجاهدين من الأحباش، حتى انطلقت الثورة وانتصرت الحبشة على أعدائها؛ ففرضوا بذلك مثلاً عالياً في عرفان الجميل.

النبي يبادل النجاشي عواطفه

وقد كان بين النبي ﷺ وبين النجاشي مراسلات ومكاتبات، تدل على ما كان يحمل كل منهما لصاحبه من عواطف الود، فقد كتب إليه رسول الله أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان ابن حرب، وكانت فيمن هاجر إلى الحبشة مع زوجها عبد الله ابن جحش، فتنصر هناك ومات؛ فرأى رسول الله أن يضمها إليه لتكون في رعايته وكفّته، وأن يحميها على ما تحمّلت من مشاق الهجرة في سبيل الله؛ فزوجه النجاشي إياها، وأصدقها عنه أربعمائة دينار، فقدم بذلك مكرمة تدل على صدق مودته وإخلاصه. وحين استقر أمر الدعوة بالمدينة، كتب إليه رسول الله أن يبعث إليه من بقى من أصحابه ويحملهم؛ ففعل،

وحملهم في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري، رسول رسول
الله صلى الله عليه وسلم.

وحين بعث النبي ﷺ رسائله إلى الملوك والأمراء يدعوهم
إلى الإسلام، كان النجاشي أول من أسلم، وأكرم وفادة أصحاب
النبي، صلى الله عليه وسلم، وأحسن الرد على كتابه، وبعث إليه
وفداً من أصحابه، وحملهم إلى رسول الله كل عواطف المودة
والإخلاص.

وحين قدم وفد النجاشي على رسول الله ﷺ قام يخدمهم
بنفسه؛ فقال له أصحابه: نحن نكفيك يا رسول الله. فقال:
«إنهم كانوا لأصحابي مكرمين، وإن أحب أن أكافئهم».. ويوم
مات النجاشي نعاه النبي، صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه،
فقال لهم: «مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم
أصحمة»^(١).. وخرج بهم إلى المصلى فصفا بهم وكبر أربع
تكبيرات، فصلى عليه صلاة الغائب وصلى عليه المسلمون معه.



(١) أصحمة هو اسمه، وأما النجاشي فلقب لكل ملك من ملوك الحبشة.

حزن قريش لإخفاقها في سعيها

أما قريش فقد كان حزنها بالغاً حين عاد إليه الرسولان خائبين، وحين علمت بما كان من إكرام النجاشي للمسلمين الذين هاجروا إلى بلاده. فلم يكن يسرها قط أن ينال المسلمون خيراً أيّما ذهبوا، وكانت تريد أن تضيق عليهم رحاب الأرض، حتى لا يجدوا مكاناً يلجأون إليه، فيعودوا إليها مرغمين فتديقهم من ألوان العذاب ما يشفي غليلها، حتى يرجعوا كفاراً إلى دينها، أو يُقضى عليهم فيموتوا، فيُقضى بموتهم على دعوة الإسلام التي أقضت مضاجعهم وبلبلت أفكارهم.

كان ذلك هو ما ترمى إليه قريش، ومن أجله بذلت ما بذلت في هدايا النجاشي وأصحابه من البطارقة، وتكلفت ما تكلفت من المشقة والجهد في هذا السبيل، وحرصت أشد الحرص على ألا يسمع النجاشي من المسلمين كلاماً، وأوصت رسولها بذلك أبلغ الوصية، وبالغت في إنحاف بطارقة النجاشي بالهدايا حتى يساعدها على تحقيق هذه الرغبة فلقد كانت قريش تعلم أن دعوة الإسلام دعوة حق، وأن النجاشي حين يسمعها لن يتردد في حماية المؤمنين بها، لما عرف عنه من حب العدل ورعاية الحق، ولكن قريشاً كانت تدافع عن مصالحها قبل كل

شئ... كانت تدافع عن سيادتها على العرب، وعن مصادر الثروة العظيمة التي تستمتع بها وتعيث في نعمائها، ومن أجل هذا أرادت أن تموه الأمر على النجاشي، وتخفى عليه حقيقة ما يدعو إليه محمد وصحبه؛ ولكن النجاشي كان أذكى من أن ينخدع بتمويه قريش. وأراد الله بالمسلمين الخير حين دفعه إلى الاستماع منهم، وأراد للكافرين الخزي والخيبة والندامة، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصْنُؤُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَسَيُفْزِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾^(١).

نتائج هجرة الحبشة

على أن هجرة الحبشة لم تقف نتائجها عند هذا الحد، بل كانت لها نتائج أخرى، كانت كلها خيراً وبركة على الإسلام وأهله، فقد أشاعت في مكة جواً من الخوف بلبل الأفكار وزلزل القلوب، وترك رجال قريش حيارى لا يدرون ماذا يفعلون... لقد أحس الملأ من قريش أن الزمام أخذ يفلت منهم، وأن هؤلاء الذين احتموا بأرض الحبشة من المسلمين، سيكونون بلا شك دعاية حسنة لدعوة الإسلام؛ فليس يتعد أن يتأثر الأحباش بدعوتهم فيسلموا معهم، فتقوم للإسلام دولة في

(١) سورة الأنفال الآية ٣٦.

بلاد الحبش، ويعود المسلمون أقوياء بهذه الدولة، وقد يغيرون بها على قريش، فيقضون عليها وعلى دينها وسلطانها فإن لم يكن هذا، فسيجعل هؤلاء المهاجرون وكُذَّهم^(١) أن يطعنوا في دين قريش، وأن يعيبوا آلهتها عند الأحباش كما كانوا يعييونها في مكة، فتزعزع بذلك مكانة الأصنام في نفوس الأحباش، وفي نفوس غيرهم من الأمم التي تحيط بهم، والتي تربطها بالعرب روابط المصلحة والجوار. فإن لم يكن هذا ولا ذاك، فلا أقل من أن يحاول هؤلاء أن يسزعزعو مكانة قريش في نفوس الأحباش ومن إليهم، بما يُشيعون عنها من إشاعات السوء، فتتأثر بذلك تجارتها في تلك البلاد؛ وربما أصابها من ذلك البوار والكساد.

وعلى أى حال فقد كانت هواجس الخوف تقلق بال قريش، وتزعج أمنها واستقرارها، حتى تركتها في اضطراب دائم ولبلة مستمرة، وأغلقت منافذ التفكير على ذوى الرأى فيها، وحرمتهم التوفيق في كل ما كانوا يأتون ويدعون من الأمر؛ فكانوا يقدمون على الأمر يظنون أن فيه النيل من رسول الله والصد عن سبيله، فيقلب عملهم خيراً له وشرّاً عليهم.

(١) وكُذَّهم : دأبهم ومهم.

إسلام حمزة

لقد كانت نفوسهم تغلى بالحقد على رسول الله ﷺ، ولكن ماذا يستطيعون أن يفعلوا به، وقد أحاطته بنو هاشم بسلطانها وقوتها؟ كل ما يستطيعون إذن أن يفعلوا، أن ينالوه ببعض الأذى كلما فارت بهم فورة الحقد.. وفي فورة من هذه الفورات لقي أبو جهل رسول الله ﷺ عند الصفا، فجعل يسبه ويناله بفاحش القول، حتى شفى غليل صدره، ورسول الله معرض عنه لا يرده ولا يصدده. ويشاء الله أن يعلم بذلك عمه حمزة بن عبد المطلب وهو راجع من صيده، فتأخذه الحمية لابن أخيه، فينطلق من فوره إلى أبي جهل فيجده جالساً في ندى القوم، فيجبهه^(١) بالقوس الذي في يده، فيشجّه شجة منكّرة، ثم يقف أمامه كالأسد الهائج فيقول له: «أتشتمه..؟ فأنا على دينه أقول ما يقول، فرد على ذلك إن استطعت..!»، فيقوم رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فيقول أبو جهل في استخذاء وجبن: «دعوا أبا عُمارة، فإن - والله - سببت ابن أخيه سباً قبيحاً».

ويلهب حمزة إلى رسول الله ﷺ فيعلن إليه إسلامه، فتقوى

(١) يجبهه: يضربه لى جبهته.

به شوكة الإسلام، ويعز به المسلمون، وتعلم قريش أن رسول الله قد عز وامتنع، وأن عمه حمزة سيزداد له منعة، فيكفون عن بعض ما كانوا ينالون منه..

ولقد كان حمزة بطلاً يُحسب حسابه ويُخشى بأسه، وكانت غضبته على أبي جهل هذه خيراً وبركة على الإسلام، إذ انضم بسببها إلى الإسلام أسد قريش، فكانت شجاعته وبأسه وقوته كلها بعد ذلك في سبيل إعلاء كلمة الله، فسمى من أجل ذلك «أسد الله».

إسلام عمر

وكما ساد مكة بعد هذه الهجرة جو رهيب من الخوف، سادها كذلك جو كثيب من الوحشة فقد كان عدد الذين هاجروا من الكثرة بحيث ترك مكانه فراغاً هائلاً، ف شعر بهذا الفراغ ذوو النفوس الحساسة والعواطف المرهفة. وكان من هؤلاء عمر بن الخطاب؛ فقد شعر بهذا الفراغ شعوراً قوياً، وعرفته من أجله حالة شديدة من القلق وانقباض الصدر، وفارقه المرح والانطلاق الذي عهد منه، فأصبح لا يغدو ولا يروح إلا منقبضاً كثيباً، وكان عمر فتى أروع^(١) من فتيان قريش،

(١) الأروع - كالرائع - من يعجبك بشجاعته، أو بحسنه وجهارة منظره.

عنيفاً شديد البأس، يمتاز بطوله الفارع وجراته النادرة؛ وكاد كثير الأذى للمسلمين، شديد البطش بهم والغلظة عليهم؛ وكاد يُضمر للإسلام ورسوله عداوة لا تقل في عنفها عن عداوة خال أبي جهل. لكنه مع كل ذلك كان رقيق القلب فوار العاطفة، يرقُّ حين يلين حتى يكون كاللؤلؤ، ويغضب حين يشتد حتى يكون كالعاصفة.

قالت أم عبد الله بنت أبي حنمة، وكانت زوج عامر بن ربيعة: «إنا لنرحلُ إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر لبعض حاجته، إذ أقبل عُمر وهو على شركه حتى وقف على. وكنا نلقى منه البلاء أذى وشدة. فقال: أتنتلقون يا أم عبد الله؟ قلت: نعم! والله لنخرجن في أرض الله، فقد آذيتُمونا، وقهرتُمونا، حتى يجعل الله لنا فرجاً...» فقال: صَحِّبْكُمْ الله!.. ورأيت له رقةً وحزناً. (قالت): فلما عاد عامر أخبرته وقلت له: لو رأيت عمر ورقته وحزنه علينا؟ قال: أطمعت في إسلامه؟ قلت: نعم. فقال: لا يُسلم حتى يسلم حمار الخطاب!.. لما كان يرى من غلظته وشدته على المسلمين».

فلما هاجرت كثرة المسلمين إلى الحبشة، شعر عمر لفراقهم بوحشة وانقباض وأحس بالفراغ من حوله إحساساً قوياً، فثارت تأثيره على محمد بن عبد الله، ذلك الذي فرق أمر قريش،

وعاب دينها، وكان سبب بلائها كله؛ فعزم على أن يقتله
ليستريح الناس من شره. فخرج ذات يوم متوشحاً سيفه، يريد
رسول الله، صلى الله عليه وسلم.. قال ابن إسحاق: «فلقيه
نُعَيْم بن عبد الله، فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد
محمدًا هذا الصائغ، الذي فرق أمر قريش، وسفّه أحلامها،
وعاب دينها، وسب أمتها؛ فأقتله..! فقال له نعم: والله لقد
غرّك نفسك من نفسك يا عمر!.. أتري بني عبد مناف
تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدًا؟ أفلا ترجع إلى
أهل بيتك فتقيم أمرهم؟.. قال: وأيّ أهل بيتي؟.. قال:
خَتَنُكَ»^(١) وابن عمك سعيد بن زيد بن عمر، وأختك فاطمة
بنت الخطاب، فقد - والله - أسلمنا وتابعنا محمدًا على دينه،
فعليك بهما..

(قال): فرجع عمر عامدًا إلى أخته وخَتَنِهِ، وعندهما خِباب
ابن الأرت معه صحيفة فيها ﴿طه﴾ يُقرئها إياها. فلما سمعوا
جسَّ عمر تغيب خباب في مخدع لهم - أو في بعض البيت -
وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها؛
وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليها. فلما دخل

(١) ختنك: صهرك. وكان زوج أخته.

قال : ما هذه الهينة^(١) التي سمعت ؟ قالوا له : ما سمعت شيئاً .
قال : بلى والله . . . ولقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على
دينه . . . وبطش بختنه سعيد بن زيد؛ فقامت إليه أخته فاطمة
بنت الخطاب لتكفه عن زوجها، فضرها فشجها . .

فلما فعل ذلك قالت له أخته وختته : نعم قد أسلمنا وآمنا
بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك . . . فلما رأى عمر ما بأخته
من الدم، ندم على ما صنع، فأزعوى^(٢) وقال لأخته : أعطيني
هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفاً، أنظر ما هذا الذي
جاء به محمد . . . وكان عمر كاتباً^(٣) . فلما قال ذلك قالت له
أخته : إنا نخشاك عليها قال : لا تخافي . وحلف لها بألته ليردنها
إذا قرأها إليها . . . فلما قال ذلك طمعت في إسلامه، فقالت
له : يا أخى، إنك لمجس على شركك، وإنه لا يسها
إلا الطاهر فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة وفيها
﴿طه﴾^(٤)؛ فقرأها . فلما قرأ منها صدراً قال : ما أحسن هذا
الكلام وأكرمه . . .

فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له : يا عمر، والله

(١) الهينة : الصوت الذى يسمع ولا يفهم المراد منه .

(٢) أزعوى : كف وخجل .

(٣) كاتباً : يقرأ ويكتب .

(٤) لى بعض الروايات : صدر سورة طه، أى أوائلها .

إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه؛ فإني سمعته أمس وهو يقول: «اللهم أيد الإسلام بأبي الحَكَم بن هشام أو بعمر بن الخطاب!...» فالله الله يا عمرا فقال له عمر عند ذلك: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم. فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه. فأخذ عمر سيفه فتوشحه^(١)؛ ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، ففرض عليهم الباب. فلما سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فنظر من خلل الباب، فرآه متوشحا بالسيف. فرجع إلى رسول الله وهو فرجع، فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب بالباب متوشحا بالسيف...!

فقال حمزة بن عبد المطلب: فائذن له، فإن كان جاء يريد خيرا بلذناه له، وإن كان يريد شرا قتلناه بسيفه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اذن له». فأذن له الرجل. ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه بالحجرة؛ فأخذ بـججزته - أو بمجمع رداءه^(٢) - ثم جبذه جبذة شديدة وقال: «ما جاء بك

(١) توشحه: لبسه كما يلبس الوشاح.

(٢) الحجزة: هي تكة السراويل ونحوه. ومجمع الرداء: ما يحيط بالعتق من الثياب (الطوق).

يا ابن الخطاب؟.. فوالله ما أرى أن تنتهى حتى يُنزل الله بك قارعة!.. فقال عمر: يا رسول الله، جئت لك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله.. (قال): فكبر رسول الله تكبيراً عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله أن عمر قد أسلم!.. ففترق أصحاب رسول الله من مكانهم، وقد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة، وعرفوا أنها سيمعان رسول الله ﷺ ويتصفون بهما من عدوهم».

ضربة قاصمة

وكان إسلام عمر ضربة قاصمة لقريش؛ فقد دخل عمر في دين الله بالحمية التي كان يحاربها من قبل، وأبى إلا أن يعلن إسلامه على نَجْهَرَة الملاء من قريش؛ فاختار لذلك جميل ابن مَعْمَر - وكان جميل أكثر رجال قريش نقلاً للأحاديث وإذاعة للأخبار - فأعلن إليه إسلامه. فلم يكده جميل يسمع النبأ حتى انطلق يذيعه في قريش، ويدور به عليها في أنديتها ومجالسها وهو يصيح: «يا معشر قريش، ألا إن عمر بن الخطاب قد صَبَأَ!..» فيصيح من ورائه عمر: «كذب!..» ولكني قد أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله!..»

وقد أصيبت قريش بالذهول من هذه المفاجأة، حتى خرج رجالها عن وعيهم؛ فاجتمعوا على عمر يقاتلونه ويقاتلهم، وهم لا يدرون فم يقاتلونه. وما زالوا يتساورون حتى عسى^(١) عمر ابن الخطاب، وقعد على الأرض مُجْهِدًا يقول لهم: «افعلوا ما بدا لكم». فوالله لو قد كنا ثلثمائة رجل لتركناها لكم أو تركتموها لنا... وما زال القوم قائمين على رأس عمر حتى مر بهم أحد زعمائهم، وهو العاص بن وائل السهمي، فصرفهم عنه وهو يقول لهم: «رجل اختار لنفسه أمرًا فإذا تريدون منه؟.. أترون بنى عدى بن كعب يُسلمون لكم صاحبهم هكذا؟.. خلّوا عن الرجل...!» فانصرفوا وهم يتحرّقون من الغيظ.

على أن عمر لم يكتف بذلك الإعلان عن إسلامه، بل ذهب إلى خاله أبي جهل، وهو يعلم أنه أعدى أعداء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأخبره بإسلامه؛ فبهت أبو جهل لهذا النبأ، وضرب الباب في وجهه وهو يقول له: «قبّحك الله وقبّح ما جئت به...!»

ولم يرض عمر عن استخفاء المسلمين بصلاتهم في الشعاب، وأبى إلا أن يذهبوا إلى الكعبة فيصلوا فيها جهارًا، تحت سمع

(١) عى: تعب وضعف.

القوم وبصرهم. وكان لهذا المظهر الجريء شأن أطار أحلام
القوم، وعصف بتفكيرهم عصفًا شديدًا.

قال عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه : « إن إسلام عمر
كان فتحًا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن إمارته كانت رحمة.
ولقد كنا وما نقدر أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر؛ فلما
أسلم عمر قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه.
ومازلنا أعزّة منذ أسلم عمر بن الخطاب ».

حيرة قريش

أخطأت قريش حقيقة الدعوة

لم تكن قريش تقدّر أن دعوة الإسلام سيكون لها هذا الشأن الخطير، وحسبتها أول الأمر نوعاً من الهوس الذي يصاب به بعض أهل الشذوذ، فيستولى على عقولهم حيناً من الدهر ثم ينتهي بهم إلى غير شيء، أو نوعاً من الدجل الذي يقصد صاحبه به إلى الدعاية والإعلان عن النفس، أو يرمى به إلى تحقيق مطلب يهفو إليه من مال أو جاه أو منصب أو نحو ذلك.

فاستقبلتها في بدايتها كما تستقبل نوعاً من العبث الذي لا يؤبه له ولا يلتفت إليه؛ لأنها ألفت أن ترى شيئاً من هذا الشذوذ في أمثال ورقة بن نوفل، وعمرو بن زيد بن نفيل، وعبد الله بن جمحش، وعثمان بن الحويرث، وغيرهم من شذاذ العرب.

فلما رأوا رسول الله ﷺ يلتف حول نفر من الناس، جعلوا

يستهنئون بهم ويضحكون منهم، ويتنذرون بما يرؤن من أمورهم وما يسمعون من أخبارهم. وجعلوا كلما مر بهم رسول الله ﷺ يشيرون إليه متفكهين: «إن غلام بنى عبد المطلب ليكلم من السماء»..

فلما أخذ، صلى الله عليه وسلم، يعيب دينهم، ويسفه أعلامهم. ويذكر آفتهم بالسوء، علموا أن هذا عبث خطير لا ينبغي السكوت عليه، ورأوا أن خير طريقة لتأديب هذا العايب أن يقتل، حتى يكون عبرة لغيره ممن تحدثهم نفوسهم بأن يتناولوا على مقام الآلهة. فذهب رجالهم إلى عمه أبي طالب يفاوضونه في أن يُسلمه إليهم ليقتلوه، وعرضوا عليه كل ما يمكن من عروض، الترضية؛ فأبى عليهم ما يريدون.

فلما رأوا أن أبا طالب مصمم على حماية ابن أخيه، ثارت ثائرتهم، ورأوا أن يؤدبوا هؤلاء الذين يلتفون حول محمد حتى يصرفوهم عنه. فصبوا عليهم كل ما يستطيعون من ألوان العذاب، فلم يبلغوا منهم شيئاً، وجعل هؤلاء يفرون بدينهم إلى البلاد النائية، تاركين أموالهم وديارهم وأهلهم، مضحين بكل شيء في سبيل الدين الذي يدّينون به.

وتحيرت في أمر محمد

حينذاك تبين لقريش أن الأمر جد لا هزل، وحقيقة لا عبث؛ فأخذوا يعيدون النظر من جديد، ويفكرون في شأن محمد وما يرمى إليه من هذه الثورة الجاعحة، التي يريد بها أن يقلب أوضاعهم، ويقوّض نظام حياتهم من أساسه. لقد نشأ محمد فيهم وترى بين ظهرائهم، فلم يعرفوا فيه شذوذاً قط، ولم يروا منه غير الجدد والاستقامة، والحكمة والأناة، والحزم والسداد في كل ما يقول وما يفعل.. فما الذي دفعه إلى الخروج على مألوف قريش، وما عرفت من تقاليدها عن الآباء والأجداد؟ وما الذي يبغيه من وراء ذلك؟..

أصابه مس من الشيطان، فخُيِّل له ما يُخيِّل للمجانين الذين يُعرفون بما لا يعرفون؟ أم اعتراه ما يعتري الكهّان الذين يتلقّون السمع عن أتباعهم من الجن ثم يُلقونه إلى الناس، فيستهوون به قلوبهم ويسحرون عقولهم؟ أم هو شاعر تستهويه شياطين الشعر وتهم به في أودية الخيال، فهو يقول ما لا يفعل ويتصور ما لا يكون؟ أم هو مريض أصابته العلة بالخرق والذهول، فهو يهذى من أجل ذلك هذيان المريض؟ أم هو من طلاب الجاه والمال، فهو يمهّد لمطلبه بهذه الثورة، ليلفت أنظار

الناس إليه فيحاولوا إرضاءه لِيُسَكِّتُوهُ ؟ أم هو يبغى شيئاً وراء ذلك ؟..

أخذت تساوومه لتعرف مقصده

وانتهى الرأى بهم إلى أن يرسلوا إليه واحداً منهم، ليعلم علمه ويعرف مقصده؛ فأرسلوا إليه سيِّداً من ساداتهم، هو عتبة ابن ربيعة.. ويروى ابن سحاق أن عتبة بن ربيعة جلس إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال له: «يا ابن أخى، إنك منا حيث قد علمت من السُّطَّة^(١) في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أثبت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم... فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل بعضها.. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قل يا أبا الوليد أسمع». قال: يا ابن أخى، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا؛ وإن كنت تريد به شرفاً، سوِّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك؛ وإن كنت تريد به مُلْكاً ملْكناك

(١) السطة: المنزلة الكريمة.

علينا؛ وإن كان هذا الذى يأتيك رَئياً^(١) تراه لا تستطيع رَدّه عن نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبْرِكَ منه، فإنه ربما غلب التابعُ على الرجل حتى يذأوى منه.. حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله يستمع منه، قال: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. قال: «فاسمع منى». قال: أفعل. قال:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * حَم * تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا: قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ، وَفِي أَذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ، فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ^(٢) * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ^(٣) * قُلْ: أَئِنِّي لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا^(٤)؟ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِي^(٥) مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا

(١) الرئى: التابع من الجن فى اعتقادهم.

(٢) المراد أنهم لا يفهمون منه ولا يسمعون له ولا يستجيبون لدعوته.

(٣) غير ممنون: دائم غير منقطع.

(٤) أُنْدَادًا: أشباهها ونظراء.

(٥) رواسى: جبالاً.

وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءَ لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا، قَالَتَا: أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً، فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلُمْ بِهِ كَافِرُونَ»..^(١)

ثم انتهى رسول الله إلى موضع السجدة منها فسجد، ثم قال : «قد سمعت يا أبا الوليد، فأنت وذاك»^(٢).

فقام عتبة إلى أصحابه؛ فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بوجه غير الذي ذهب به... فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد؟.. قال : ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط... والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة... يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم؛ فإن تُصِبه العرب فقد

(١) سورة فصلت الآيات ١ - ١٤.

(٢) أنت وما تختار لنفسك.

كُفَيْتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ، وَإِنْ يَظْهَرُ عَلَى الْعَرَبِ ثُلُكُهُ مُلْكُكُمْ وَعِزُّهُ
عِزُّكُمْ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ...! قَالُوا: سَحَرَك يَا أَبَا الْوَلِيدِ
بِلِسَانِهِ...؟ قَالَ: هَذَا رَأْيِي فِيهِ، فَاصْنَعُوا مَا بَدَأَ لَكُمْ...!

أدركت قريش أن محمداً صادق في دعوته

أيقنت قريش حينذاك أن محمداً ليس دجّالاً ولا أفاكاً،
ولا شاعراً ولا ساحراً؛ وأنه ليس من طلاب المال والجاه،
ولا من بُغاة الملك والسلطان؛ وأن ما يدعيه من وحى السماء
ليس كذباً ولا افتراء، ولا جنوناً ولا كهانة. ورأوا أن أمره
يتشع ويشيع؛ وأن أتباعه يكثرون ويتزايدون، وأن فريقاً من
السادة الأقوياء قد أخذوا يدخلون في دينه ويؤازرونه على أمره؛
فجعلوا يفكرون فيما يستقبلون به هذا الأمر، الذي لم يكونوا قط
ينتظرونه ولا يقدرونه.

ماذا يفعلون ليدرعوا عن أنفسهم هذا الخطر الداهم، الذي
يريد أن يعصف بدينهم، ويثوثهم، ويمكثهم بين الناس...؟
واجتمعوا يتشاورون... فقال قائل منهم: «يا معشر قريش،
إنه - والله - قد نزل بكم أمر ما أتيت له بحيلة بعد... فقد
كان محمد فيكم غلاماً حَدَثًا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم
حديثاً، وأعظمكم أمانة؛ حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب قلم:

ساحر.. لا والله ما هو بساحر! لقد رأينا السحرة ونَقْثَهُم
وَعَقَدَهُم وقلم: كاهن.. لا والله ما هو بكاهن! قد رأينا
الكهنة وتَحَاطَبَهُمْ وسمعنا سَجْعَهُمْ. وقلم: شاعر.. لا والله
ما هو بشاعر! قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها، هَزَجَهُ
وَرَجَزَهُ. وقلم: مجنون.. لا والله ما هو بمجنون! لقد رأينا
المجنون فيما هو بِمَجْنُونِهِ ولا وَسُوسَتِهِ ولا تَحْلِيْطِهِ.. يا معشر قريش،
فانظروا في شأنكم، فإنه - والله - قد نزل بكم أمر عظيم! »

ماذا يفعلون إذن ليصرفوا الناس عن هذا الصائب الخطر،
ويحولوا بينهم وبين أن يستمعوا إليه؟.. إنهم لحاثرون في أمرهم
أشد الحيرة.

لقد حاولوا أن يتخلصوا منه فيقتلوه، فحالت بينه وبينهم
بنو هاشم وحاولوا أن يصرفوا الناس عنه فصبوا على أتباعه
ألوان العذاب، فلم يبلغوا منهم ما يريدون؛ وحاولوا أن يُغْروهُ
بكل ما يستطيعون من وسائل الإغراء، فلم يجدوا إلى إغرائه
سيلا.. «عرضوا عليه المال فرد عليهم المال، وعرضوا عليه
الشرف والسيادة فرد عليهم الشرف والسيادة، وعرضوا عليه
الملك والسلطان فرد عليهم الملك والسلطان، وعرضوا عليه
الطب إن كان مريضاً فرد عليهم الطب وقال: ما أنا

بمريض»^(١) وما هم أولاء يرون أتباعه ينتشرون في الأرض، ويرون زعماءهم يتابعونه ويتسللون إليه واحدًا إثر واحد، ويرون دينه يأخذ في التمكن، وأمره يزداد في الظهور.

وأنه يدعو إلى الحق

فهل هو رسول الله حقًا؟.. وهل هذا الذي ينزل عليه وحى السماء؟.. وهل هذا الذي جاء به هو دين الحق؟.. فإذا لم يكن هو دين الحق فأين دين الحق؟ أم هو دين قريش؟.. أم هو دين يهود؟.. أم هو دين النصارى؟.. أم هو دين المجوس؟.. إن قريشًا لتؤمن في قرارة نفسها بأن دينها ليس دين الحق، وإن كان هو مصدر سلطانها ونعمتها؛ وإنها لترى في كل دين من هذه الأديان مَغْمَزًا يبعده عن الحق، وإنها لترى دين محمد يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فإذا لم يكن هو دين الحق، فلماذا يتابعه هذا العدد الكثير من الناس؟ ولماذا يتابعه هذا النفر من عِلِيَّةِ القوم في قريش، وفيهم من عُرف بالعقل الراجح والرأى السديد، وفيهم من عرف بالتعصب لدين قريش والحرص على تقاليدها، وفيهم من لا يُتَّهَم بالتفريط في دينه أو التهاون في كرامته؟.. فإذا كان

على هامش السيرة جزء ٣.

حمزة قد أسلم حِمْيَةَ لابن أخيه محمد أو تعصبًا لعشيرته بنى هاشم، فلماذا أسلم أبو بكر وهو من بنى تَمِّم؟.. ولماذا أسلم عثمان وهو من بنى أمية؟.. ولماذا أسلم عمر وهو من بنى مخزوم؟.. وإن أمر عمر بن الخطاب لأشد أمرهم عجبًا.. فلقد كان عمر أشد قريش عداوة لمحمد ودينه، وأعنفها بطشًا وغلظة على المسلمين، لما الذى بذله كذلك حتى غدا أشد قريش حماسة لهذا الدين، وأكثرها جهرًا به وحرصًا على ظهوره؟.. لا شك أن هؤلاء السادة لم يؤمنوا إلا بعد ما تبين لهم الحق في دين محمد؛ فليس من المعقول أن يؤمنوا عن جهل وعماية، كما يؤمن غيرهم من الأوغاد والسوقة.

زعماء قريش يسترقون السمع

وهكذا أخذت قريش تدرس دين محمد خفية، وتتعرف مبادئه وأحكامه، وتسمع إليه من وراء حجاب وهو يتلو القرآن في صلاته؛ فيرونها ما ينطوى عليه هذا القرآن من عجيب النظم، وسعة الإحاطة، ودقة المعنى، وحلاوة الأسلوب، ويرونها ما ينطوى عليه هذا الدين من مبادئ العدل والإحسان، والخير والرحمة. ولكن، كيف يؤمنون بهذا الدين الذى يقضى على سيادتهم وسلطانهم، ويجعلهم تبعًا لمحمد بن عبد الله، وليس محمد أكثر القوم مالا، ولا أعلاهم بيتًا، ولا أشرفهم مكانًا؟..

أم كيف يؤمنون ويدعون هذا الشرف لبني عبد مناف، يتطاولون به وحدهم على الناس قاطبة؟ .. لا! .. ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾^(١).

روى ابن إسحاق: «أن أبا سفيان بن حرب، وأباجهل ابن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي - حليف بني زُهرة - خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله. صلى الله عليه وسلم. وهو يصلي من الليل في بيته؛ فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه؛ فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فتلاؤموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعهم في نفسه شيئاً. ثم انصرفوا.. حتى إذا كانت الليلة التالية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له؛ حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق. فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة. ثم انصرفوا.. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له؛ حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق. فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود. فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا.

(١) سورة سبأ الآية ٣١.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج، حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد. فقال يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا - والذي حلفت به - كذلك. (قال): ثم خرج حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟... فقال: ماذا سمعت؟!.. تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا؛ حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسَي رِهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء؟!.. ففني ندرك مثل هذه؟... والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه!..».

كان من موانع الإيمان بمحمد الحسد

وَعَدَّت قريش بين الاثنين: إما أن تعترف بأن محمداً رسول الله، وإما أن تحوِّ ذكره وفكرته من الوجود. وكان من المستحيل أن تعترف قريش بالأولى وأن تقدر على الثانية؛ فقد كان الحسد لرسول الله ﷺ وقومه يمنعه أن تعترف له بالنبوة؛ وكان رجال من قريش يطعمون في هذه المنزلة، ويرون أنفسهم

أحق بها من محمد بن عبد الله؛ وكان رجال يستكثرونها عليه ويقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرْبَيْنِ﴾^(١) عظيم^(٢)..! وكان رجال يَنفُسُونَهَا عَلَى عَشِيرَتِهِ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ؛ وكان رجال يعتقدون أن الرسول لا ينبغي أن يكون إلا مَلَكًا.

وحدائة السن

والواقع أن تقاليد قريش في الزعامة وعقيدتها في النبوة، كان لهما أكبر الأثر في عدم اندفاعها إلى الإيمان برسالة محمد ابن عبد الله؛ «فقد كان للزعامة دور خطير في المجتمع العربي، حيث كان الزعماء يتمتعون بنفوذ واسع وسلطان مطلق، يأمرهم فيطاعون، ويدعون فيجابون، وينهون فلا يخالفون، وكانت لهم الكلمة الفاصلة في المشكلات والقضايا. فلما أخذ النبي يدعو بدعوته وبلغ عن ربه - ولم يكن بعد قد تجاوز سن الشباب بكثير، ولم يكن كذلك بارزاً في مجال الزعامة - عظم عليهم أن يكون مثله داعية يستجاب له، ومرشداً يهتدى بهديه الناس، ورسولا ينضوي الزعماء تحت لوائه؛ وقالوا: لو كان ما يدعو

(١) قال المفسرون: هما مكة والطائف.

(٢) سورة الزخرف الآية ٣١.

إليه محمد حقًا لكانوا هم الأحق بأن يُتَدَبَّوا لهذه الدعوة، وأن يكلفوا هذه المهمة، لأنهم هم الزعماء والناس لهم تبع»^(١)

وقلة المال

وكان المال وحده هو المقياس الذى يقيسون به أقدار الناس؛ فبمقدار ما يكون لدى المرء من المال يكون له حظ من الشرف والسيادة. وقد سيطرت عليهم هذه الفكرة حتى أصبحت عندهم فى منزلة العقيدة؛ ومن أجل ذلك قال الوليد بن المغيرة: «أَيُزَلُّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَأَتَرَكَ أَنَا - كَبِيرَ قَرِيشٍ وَسَيِّدَهَا - وَيَتَرَكَ أَبُو مَسْعُودٍ عَمْرُو بْنُ عُثْمَيْرٍ سَيِّدَ ثَقِيفٍ، وَنَحْنُ عَظَمَاءُ الْقُرَيْشِيِّينَ؟». وقد حكى الله سبحانه وتعالى قولهم هذا، ثم خطأ نظرهم إلى المال واعتباره مقياس الكرامة عند الله؛ فما المال إلا وسيلة من وسائل العيش فى الحياة الدنيا، يناله الفاضل والمفضول، والشريف والوضيع، والمؤمن والكافر؛ وليس تفاوت الناس فى الغنى والفقر إلا ضرورة اجتماعية يعم بها نظام المجتمع البشرى، ليخدم الناس بعضهم بعضًا، ويعاون بعضهم بعضًا. أما منازل الكرامة التى يمن الله بها على من يشاء من

(١) «عصر النهى وبيئته قبل البعثة»، للأستاذ محمد عزت دروزة.

عباده، فشيء فوق مستوى المال، وفوق مستوى الطبقات التي تعارف الناس عليها في مجتمعاتهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ؟﴾ نحن قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا^(١)، ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾.

ثم يمضي السياق في تهوين شأن المال، وفي تحطية نظرة الناس إليه؛ فيبين لهم أن هذا المال الذي يتفاضلون به ويعتبرونه الشيء الأهم في حياتهم، والمقياس الذي يمايزون به في أقدارهم ومنازلهم.. هو أهون شيء على الله. ولولا مخافة أن يُقَتَّنَ الناس بالمال ومظاهره، وأن تسود بينهم في شأنه هذه النظرة الخاطئة.. لجعل الله المال حظًا خالصًا للكافرين به، ولتعمهم بكل ما يشتهون من زينة الحياة الدنيا.. أما المال والبنون، وما الملك والسلطان، وما الزخرف والرياش، وما كل ما في هذه الحياة من مظاهر الثروة والجاه.. إلا متاع زائل وعرض فان: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ^(٢)﴾ *

(١) سُخْرِيًّا: ليسخر كل فريق في خدمة الآخر.

(٢) يظهرون: يساعد يصعدون عليها.

ولبيوتهم أبواباً وسُرراً عليها يَتَكُونُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ
لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ^(١).

وأنه بشر مثلهم

كذلك كانت عقيدتهم. أن الرسول إما أن يكون مَلَكًا من
الملائكة، وإما أن يكون بشرًا يستطيع أن يفعل ما لا يفعل
البشر، وإما أن يكون ذا بَسْطَةٍ في الرزق وسعة من المال تغنيه
عن الكد والسعي في سبيل العيش. ولم يكن رسول الله صلى
الله عليه وسلم، واحدًا من هؤلاء؛ بل كانوا يرونه بشرًا يأكل
الطعام ويمشي في الأسواق، ويكده ويكد في سبيل الرزق،
ويجزي عليه ما يجزي على البشر من المرض والصحة، والضعف
والقوة، والفقر والغنى، والجهل بالغيب، والعجز عن جلب
المنفعة لنفسه ودفع المضرة عنها.. إلى غير ذلك مما يشارك فيه
سائر الناس. ثم هو فوق ذلك يصارحهم بهذه الحقائق، ويقول
لهم بلسان الوحي في غير تحرج: ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا
وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ؛ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سَتُكُنْتُ مِنَ
الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ؛ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ﴾^(٢).. و﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خِزَائِنُ اللَّهِ، وَلَا أَعْلَمُ

(١) هذه الآيات وما قبلها من سورة الزخرف الآيات ٣٣ - ٣٤.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٨.

الغيب، ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى
إلى^(١) :

قريش تشكك في نبوة محمد

من أجل ذلك كبر عليهم أن يطيعوا بشراً مثلهم، يأكل
مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون، وحاولوا جهدهم أن يشككوا
الناس في نبوته، واستغلوا هذه العقيدة أعظم استغلال، وقالوا
ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق لولا أنزل إليه
ملك فيكون معه نذيراً * أو يُلَقَّ إليه كثر أو تكون له جنة
يأكل منها وقال الظالمون : إن تَتَّبِعُونَ إلا رجلاً مَسْحُورًا^(٢) ؛
وسلطوا عليه سفهاءهم وشياطينهم من الشعراء والبلغاء، يهجونه
ويحرقون من شأنه، ويشوشون عليه مجالسه كلما جلس إلى الناس
يدعوهم إلى الإسلام، أو يتلو عليهم القرآن. وقد سجّل الله
عليهم ذلك في مواضع كثيرة من القرآن الكريم؛ فقال تعالى في
سورة الفرقان : ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَلْهَذَا الَّذِي
بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا
عَلَيْهَا﴾^(٣) وقال تعالى في سورة القلم : ﴿وَلَن يَكَاذُ الَّذِينَ

(٣) سورة الفرقان آيتا ٤١ ، ٤٢ .

(١) سورة الانعام الآية ٥٠ .

(٢) سورة الفرقان آيتا ٧ ، ٨ .

كفروا لَيَزْلُقُونَكَ أَبْصَارُهُمْ لَمَّا سَمِعُوا الذُّكْرَ ويقولون إنه لمجنون ﴿١﴾ وقال تعالى في سورة فُصِّلَتْ: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ (٢).

وفيما أنزل عليه من القرآن

كذلك جعلوا يُشَكِّكونَ فيما أنزل عليه من القرآن، ويقولون: إنه ليس من عند الله، إنما يستمليه محمد ممن يجالسهم من أهل الكتاب؛ واتخذوا من جلوس النبي إلى بعض نصارى الروم شاهداً على صحة ما يدعون. وقد حكى الله عنهم ذلك الإفك ورد عليهم بما أفحمهم وأخزاهم، فقال تعالى في سورة الفرقان: ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراء وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً﴾ وقالوا: أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً * قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض، إنه كان غفوراً رحيماً ﴿٣﴾ وقال تعالى في سورة النحل: ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون: إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحظون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين﴾ (٤).

(٣) الآيات ٤ - ٦

(٤) الآية ١٠٣

(١) الآية: ٥١

(٢) الآية: ٢٦

وفي الدين الذي جاء به

ولم يكتفوا بهذا... بل جعلوا يتهمون بالدين الذي جاء به، ويغرضون مبادئه عَرْضُ المستهزئ الساخر، يريدون بذلك أن يشككوا الناس فيه، ويصرفوهم عنه: ﴿وقال الذين كفروا هل نَدُلُّكُمْ على رجل يُبَيِّنُكُمْ إِذَا مَزَقْتُمْ كُلُّ مُمَزَقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾^(١)... ﴿أَلَمْ تَنَاوَلْنَا آبَاءَنَا وَنَبِّئُكَ أَنََّّهُمْ مُنْكَرُونَ وَجِوَافُهُمْ أُتْرُقْنَ لَهُمْ سَائِرُ النَّاسِ * فَيَعْبُدُونَهُمْ هَدْيًا مِنَ آبَائِهِمْ إِنَّهُمْ أُمَّةٌ مُعْتَدِلَةٌ عَلَيْهِمْ إِنَّا لَمُبْصِرُونَ * وَكَانَ كَذِبًا عَنَّا أَنَّا لَمُنْعَوْتُونَ * أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾^(٢)... ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا لَنَا لِمُنْشَرِّينَ * فَأَتَوْا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣)... ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذَرٌ مِنْهُمْ، وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ * أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾^(٤)...

وهكذا جعلوا وكدهم أن يشككوا في نبوة محمد ﷺ، وفي الدين الذي جاء به، وفي القرآن الذي أنزل عليه؛ يريدون أن

(١) سورة سبأ آيتا ٧، ٨.

(٢) سورة الصافات آيتا ١٦، ١٧، وسورة الواقعة آيتا ٤٧، ٤٨.

(٣) سورة الدخان آيتا ٣٥، ٣٦.

(٤) سورة ص الآيات ٤ - ٨.

يقضوا على فكرة الرسالة، وأن يحوها من أذهان الناس. ولكن هذا السلاح لم يُجِدْ عنهم شيئاً، وظل أتباع الرسول يتكاثرون، وظل أمر الإسلام يتشعّر ويظهر؛ وكان إسلام حمزة وعمر من الأسباب التي شجعت الخاطئين والمتريدين، فجعل الناس يدخلون في دين الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء، ومن المستضعفين والأقوياء؛ فازدادت حيرة القوم، وبدءوا يفكرون في سلاح آخر، يقضون به على هذه الدعوة الخطيرة.

المقاطعة

عجزت قريش عن مقاومة الدعوة

رأت قريش أن كل ما استعملته من وسائلها مع النبي وصحبه، من المسالمة والإغراء، ومن السخرية والاستهزاء، ومن الإرهاب والتعذيب، ومن الدعاية والتهويز.. لم يجديها نفعاً، ولم يصرف الناس عن دعوة الإسلام، ولم يَحُلْ بينها وبين الظهور والانتشار. ورأت أن دخول العناصر القوية فيها قد زادها ظهوراً وانتشاراً، فقد عزَّ المسلمون منذ أسلم حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب، واستطاعوا أن يستعلنوا بصلاتهم بعد أن كانوا يُسِرُّون بها، وأن يصلُّوا عِيَانًا في حرم الكعبة بعد أن كانوا يستخفون في شعاب الجبال؛ واستطاعوا كذلك أن يُجَهِّروا بالقرآن على مَسْمَع من قريش بعد أن كانوا يخافتون به.

رَوَى دِخْلَانُ فِي «السيرة النبوية والآثار المحمدية»: «أن أصحاب الرسول ﷺ اجتمعوا يوماً فقالوا: والله ما سمعنا قريش القرآن جهراً من رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فمن

منكم يُسمعهم القرآن جهراً؟ فقال عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه: أنا. فقالوا: نخشى عليك منهم؛ إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم. فقال: دعوني، فإن الله سيمنعني منهم. ثم إنه قام عند المقام وقت طلوع الشمس، وقريش في أنديتهم، فقال: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم - رافعاً صوته - الرحمن * عَلَّمَ الْقُرْآنَ *...﴾ واستمر فيها فقالوا: ما بال ابن أم عبد؟ فقال بعضهم: يتلو ما جاء به محمد! ثم قاموا إليه يضربون وجهه وهو مستمر في قراءتها، حتى قرأ غالب السورة. ثم انصرف إلى أصحابه وقد أذمت قريش وجهه. فقال له أصحابه: هذا الذي خشينا عليك منه. فقال: والله ما رأيت أعداء الله أهونَ علىّ مثلَ اليوم! ولو شئتم لأتيتم بمثلها غداً. قالوا: لا، قد أسمعتم ما يكرهون.

فلجات إلى المقاطعة

«وجدَ النكير بين المسلمين والمشرّكين، واشتدَّ نَعْيُ محمد على قومه وعِيَّه آهَتُهُمْ، وأنزل الله من القرآن آيات وسُورًا كانت تَدْمَغُ قريشًا وتؤذي كبرياءها أشدَّ الإيذاء»^(١) وكان لأبَدَ لقريش أن تقبل هذه الإهانات أو تردّها إن استطاعت، ولم

(١) على هامش السيرة جزء ٣ ص ٩٦

يكن في استطاعتها أن تردّها بالقول، ولا أن تدفع الحجة بالحجة أو تدمغ البرهان بالبرهان؛ فقد كانت حجج القرآن من القوة بحيث لا تقوم لها قوة في الأرض.

المقاطعة والحصار

وحارت قريش في أمرها، وظلّت تغلّ وتنفور أمام هذه الحجج الدامغة، والبراهين التي لا قبل لها بها، والتي لا تستطيع لها ردّاً ولا دفعاً. وكل ما كانت تستطيع أن تفعل أن تصب غضبها ونقمتها على ضعفاء المسلمين، حتى استنفدت كل ما في طوقها من وسائل الإرهاب والتخويف، ولم تبلغ شيئاً مما كانت تريد. فلجأت إلى سلاح آخر، هو سلاح «المقاطعة»، فلعله أن يكون أمضى

قال ابن إسحاق: «فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلدًا أصابوا به أمنًا، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم، فكان هو وحمزة ابن عبد المطلب مع رسول الله وأصحابه، وجعل الإسلام يفتش في القبائل... اجتمعوا واثتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب، على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم^(١)، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يتاعوا منهم. فلما

(١) لا ينكحوهم: لا يتزوجوا منهم ولا يزوجوهم.

اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتوائقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم. فلما فعلت ذلك قریش المحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، فدخلوا معه في شِعْبِهِ^(١) واجتمعوا إليه، وخرج من بني هاشم أبو لهب - عبد العزى بن عبد المطلب - إلى قریش فظاهروهم^(٢).

آل أبي طالب في الشعب

وَحَصَر بنو هاشم وبنو المطلب بنسائهم وأطفالهم في الشعب، لا يتصل بهم أحد من القوم ولا يتصلون بأحد، ولا يصل إليهم طعام ولا شراب ولا شيء. وأحكمت قریش عليهم الحصار، فنصبت عليهم العيون والأرصاد، وبالفوا في قسوتهم عليهم حتى قطعوا عنهم الأسواق، فلم يتركوا طعاماً يقدم مكة ولا بيعاً إلا يادروهم إليه فاشتروه بأضعاف ثمنه، كي لا يصل إلى أيديهم منه شيء. وكان أبو لهب وأبو جهل هما زعيمى هذه الحركة؛ فأما أبو لهب فكان يحرص التجار على أن يُغَالُوا عليهم في الثمن حتى يعجزوهم عن الشراء، وكان يقول

(١) الشعب: شق في الجبل يشبه الغيب.

(٢) ظاهروهم: ناصرهم على بني هاشم.

كلما قدمت العير مكة : «يا معشر قريش التجار، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئاً، فقد علمتم حالى ووفاء ذمتى !» فيزيدون عليهم فى السلعة أضعافاً مضاعفة، حتى يرجع الرجل منهم إلى أطفاله وهم يَتَضَاغُونَ^(١) من الجوع، وليس فى يده شئ يُعَلِّمُهُمْ به^(٢)، ثم يغدو التجار على أبى لهب فيُزِيحُهُمْ ويضعف لهم... وأما أبو جهل فكان دائم القسطة والنشاط لإحكام الحصار، حتى يؤدى إلى غايته التى قدرتها قريش، وهى أن يتخلى بنو هاشم وبنو المطلب عن رسول الله ﷺ فيسلموه إليهم فيقتلوه، أو يتخلى رسول الله عن دعوته فيُقْضَى عليها.

أذاعت المقاطعة أمر الدعوة

واستمرت هذه المقاطعة نحواً من ثلاث سنين، وبنو هاشم وبنو المطلب محصورون فى الشعب، حتى اشتد بهم البلاء وبلغ منهم الجهد، حتى أكلوا الحَبَطَ^(٣) وورق الشجر، وُسْمِعَ صراخ أطفالهم من وراء الشعب... وذاع نبأ هذه القطيعة فى الناس،

(١) يتضاغون : يصرخون.

(٢) يعللمهم : يصبرهم به.

(٣) الحبط : ورق ينفض بالهابط ويخفف ويطحن ويخلط بدقيق أو غيره ويمزج بالماء ١
متعافه الإبل، ولعله شئ يشبه «الكسب» الذى تلعف به البهائم الآن.

وتسامع بها العرب الذين كانوا يقدمون مكة في موسم الحج،
فأخذوا يتساءلون عن خبر هذه الدعوة التي أخرجت قريشاً عن
وقارها، وألجأتها إلى أن تفرض هذه العقوبة الشنيعة على بنى
أبيها، وأن تقسو عليهم هذه القسوة التي لم يُسمع بمثلها في
العرب قط وأدرك العرب أنه لا بد أن تكون هذه الدعوة شيئاً
خطيراً، فجعلوا يتسقطون أنباءها، ويتعرفون حقيقتها وأغراضها،
فكان ذلك سبباً في ذبوع أمرها بين العرب. وانعكس التقدير
الذي قدرته قريش، فانتشر ما أرادت أن تخفيه من أمر هذه
الدعوة، وخرجت أنباؤها عن نطاق مكة، وتسامعت بها قبائل
العرب البادية والحاضرة.

ورأت قريش أنها لم تصل إلى غايتها من هذه المقاطعة وأن
بنى هاشم وبنى المطلب قد «صبروا للمحنة كراماً»، واحتملوها
أعزةً كُفماً^(١). وكأنما أحست قريش أن العرب قد استنكروا منها
هذه الشناعة، واستفظعوا هذا النكر، فخشيت أن ينال ذلك
من كرامتها وسمعتها بين العرب.

اختلاف قريش في أمر المقاطعة

وشعر رجال من قريش بسوء ما صنعت قريش، فجعلوا

(١) على هامش السيرة ج ٣ ص ٩٦.

يتداركون الأمر سرًا، ويمدون هؤلاء المحصورين في الشعب بما يستطيعون من الطعام. وكان من هؤلاء هشام بن عمرو العامري؛ فكان يأتي بالبعير قد أَوْقَرَهُ^(١) طعامًا، ثم يخرج به ليلا حتى يستقبل به الشعب، ثم يخلع خطامه^(٢) ويدفعه إلى الشعب، فيدخله بما عليه من الطعام، حتى علمت به قريش، فأغلظوا له القول وهوا بقتله؛ فقال لهم أبو سفيان بن حرب؛ «دَعُوهُ...! رجل وصل أهله وَرَجَعَهُ... أما إن أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل لكان أحسن بنا...!».

ومن كان يصلهم بالطعام أيضًا حكيم بن حزام، فلقبه أبو جهل مرة ومع حكيم غلام يحمل قحًا، يريد به عمته خديجة زوج النبي وهي معه في الشعب.. فقال له أبو جهل: «تذهب بالطعام لبني هاشم؟.. والله لا تذهب أنت ولا طعامك حتى أفضحك بمكة»! فحضرهما أبو الْبَخْتَرِيِّ بن هشام فقال لأبي جهل: «مالك وماله؟ طعام كان لعمته عنده، أفتمنعه أن يأتيها به؟ خل سبيل الرجل».. فأبى أبو جهل؛ حتى تشائما ونال أحدهما من الآخر؛ فأخذ أبو الْبَخْتَرِيِّ كُمِي^(٣) بعير فضرب به أبا جهل فشجّه، وَوَطِئَهُ^(٤) وطئًا شديدًا؛ فانكفت عن ذلك.

(٣) كُمِي: عظمًا من عظام الفك.

(١) أَوْقَرَهُ: حمله.

(٤) وَطِئَهُ: داسه بقدميه.

(٢) الخطام: الخيل الذي يسحب به.

صحيفة المقاطعة تأكلها الأرضة

قال ابن سعد في الطبقات : « ثم أطلع الله رسوله على أمر صحيفتهم، وأن الأرضة^(١) قد أكلت ما فيها من جور وظلم، وبقي ما كان فيها من ذكر الله عز وجل.. فذكر ذلك رسول الله ﷺ لعمه أبي طالب فذكر ذلك أبو طالب لإخوته. وخرجوا إلى المسجد، فقال أبو طالب لكفار قریش : إن ابن أخى قد أخبرنى - ولم يكذبنى قط - أن الله قد سلط على صحيفتكم الأرضة، فلحست كل ما كان فيها من جور وظلم أو قسوة رَحِمٍ، وبقي فيها كل ما ذكر به الله؛ فإن كان ابن أخى صادقاً نَزَعِم عن سوء رأيكم، وإن كان كاذباً دفعته إليكم فقتلتموه أو استحييتموه. قالوا : قد أنصفتنا. فأرسلوا إلى الصحيفة ففتحوها، فإذا هى كما قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فسقط في أيديهم ونكسوا على رؤوسهم^(٢). فقال أبو طالب : عَلَامَ تُحْبِس ونحصر وقد بان الأمر؟.. ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة والكعبة فقال : « اللهم انصرنا من ظلمنا، وقطع أرحامنا، واستحل ما يحرم عليه منا... » ثم انصرفوا إلى الشعب.

(١) الأرضة : العثة.

(٢) نكسوا : نلموا على ما سلموا به، ورجعوا فيها وافقوا عليه.

وحزّ هذا المنظر الأليم في نفوس ذوى المروءة من قريش، وعز عليهم أن يعود إخوتهم إلى الشعب مغلولين، وأن يظلوا في هذا الحصار حتى يهلكوا جوعاً. وتمثلت لهم صورة هؤلاء الإخوة وهم يقاسون عذاب الحرمان وعذاب القطيعة، وأطفالهم يتصايحون من حولهم يَنشُدون الغوث والنجدة، فلا يستطيعون لهم غوثاً، ولا يجدون منهم منجداً ولا مغيثاً. فجعلوا يتلأومون على ما صنعوا بهم، ويتأمرّون على نقض هذه الصحيفة الظالمة، وإنهاء هذه القطيعة التي لا تتفق مع المروءة، ولا مع الشهامة ولا مع الشرف.

رجال يسمعون في نقض الصحيفة

قال صاحب السيرة النبوية والأخبار الحمديدية: «عند ذلك مشّت طائفة من قريش في نقض تلك الصحيفة، وهم هشام ابن عمرو بن الحارث العامري، وزهير بن أبي أمية المخزومي، والمطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف، وأبو البختريّ ابن هشام، وزمعة بن الأسود؛ فشى هشام بن عمرو إلى زهير ابن أمية فقال: أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتكبح النساء، وأحوالك حيث قد علمت؟ فقال: وبحك يا هشام! ماذا أصنع؟ فإنا أنا رجل واحد؛ والله لو كان معي رجل آخر

لَقِمْتُ فِي نَقْضِهَا ! فَقَالَ : فَأَنَا مَعَكَ ؛ فَقَالَ : ابْغِنَا ثَلَاثًا^(١). وَمَشَى جَمِيعًا إِلَى الْمَطْعَمِ بَنِ عَدَى فَقَالَا لَهُ : أَرْضَيْتِ أَنْ يَهْلِكَ بَطْنَانِ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ وَأَنْتِ شَاهِدَةٌ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا أَنَا وَاحِدٌ فَقَالَا : إِنَّا مَعَكَ ؛ فَقَالَ : ابْغِنَا رَابِعًا. فَذَهَبُوا إِلَى أَبِي الْبَخْتَرِيِّ فَقَالَ : ابْغِنَا خَامِسًا. فَذَهَبُوا إِلَى زَمْعَةَ بْنِ الْأَسْوَدِ فَوَافَقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ. فَفَعَدُوا لَيْلًا بِأَعْلَى مَكَّةَ، وَتَعَاقدُوا وَتَعَاهَدُوا عَلَى نَقْضِ تِلْكَ الصَّحِيفَةِ، وَإِخْرَاجِ بَنِي هَاشِمٍ مِنَ الشَّعْبِ، وَقَالَ لَهُمْ زَهِيرٌ : أَنَا أَبْدُوْكُمْ وَأَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَتَكَلَّمُ. فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَوْا إِلَى أُنْدِيَتِهِمْ، وَغَدَا زَهِيرٌ - وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ^(٢) - فَطَافَ بِالْبَيْتِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ : يَا أَهْلَ مَكَّةَ، أَنَا كُلُّ الطَّعَامِ وَنَلْبَسُ الثِّيَابَ، وَيَسُرُّ هَاشِمٌ وَالْمَطْلَبُ هَلْكَى، لَا يَتَتَاعُونَ وَلَا يَتَنَاضَعُونَ مِنْهُمْ... ؟ وَاللَّهِ لَا أَقْعُدُ حَتَّى تَشَقَّ هَذِهِ الصَّحِيفَةُ الْقَاطِعَةُ الظِّلْمَةَ !! فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٌ : كَذَبْتَ !! وَاللَّهِ لَا تُشَقُّ... ! فَقَالَ زَمْعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ : أَنْتِ وَاللَّهِ أَكْذَبُ ! مَا رَضِينَا كِتَابَتَهَا حِينَ كَتَبْتَ ! فَقَالَ أَبُو الْبَخْتَرِيِّ : صَدَقَ زَمْعَةُ. فَقَالَ الْمَطْعَمُ بْنُ عَدَى : صَدَقْتُمَا وَكَذَبَ مَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ ؛ نَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ مِنْهَا وَمَا كَتَبَ فِيهَا... ! فَقَالَ

(١) ابغنا : اطلب لنا ثلاثاً.

(٢) حلة : ثياب مناسبة للموقف. ولعل هذا كان من عاداتهم عند التصدي للأمور العظيمة.

هشام بن عمرو مثل ذلك؛ فقال أبو جهل : هذا أمر قد قُضى
بليل.

واضطرب الأمر بينهم وكثر القيل والقال، فقام المطعم بن
عدى إلى الصحيفة فشققها. وفي رواية : قام هؤلاء الخمسة
ومعهم جماعة فلبسوا السلاح، ثم خرجوا إلى بنى هاشم والمطلب
فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم، ففعلوا». .
قال ابن سعد في الطبقات : فلما رأت قريش ذلك سَقط في
أيديهم، وعرفوا أنهم لن يسلموهم.. وكان خروجهم من
الشعب في السنة العاشرة.

أفهرس

الصفحة

٥	تقديم
٧	إهداء
١١	تمهيد
١٦	بلاد العرب، البيت الحرام
١٩	أرض الحرم - إبراهيم وسارة
٢٠	إسماعيل وهاجر
٢١	في أرض مكة
٢٢	حيرة هاجر
٢٤	نجد السماء
٢٧	بناء البيت - إبراهيم وإسماعيل بينان الكعبة
٢٨	إبراهيم يدعو إلى الحج
٣٠	الحجاج يأتون من كل فج
٣٢	سدانة البيت - كانت خدمة البيت شرفاً عظيماً
٣٣	قصي بن كلاب
٣٦	قصي يجمع أطراف الشرف
٣١١	

الصفحة

دار الندوة - رفادة الحجاج وسقايتهم	٣٧
كشف زمزم - كانت السقاية مهمة شاقة	٤٠
رؤيا عبد المطلب	٤١
حفر زمزم	٤٣
نذر عبد المطلب	٤٥
الاحتكام	٤٦
فداء عبد الله - الوفاء بالنذر	٥٠
استنباء القداح	٥١
مكانة عبد الله	٥٢
حكم العرافة	٥٣
رحلة القافلة - الصهر الكريم	٥٦
رحلة الشتاء والصيف	٥٧
عودة القافلة	٥٩
أين عبد الله	٦٠
موقف عصيب	٦١
مولد الرسول - أحلام أمنة	٦٢
بين الشك واليقين	٦٣
نور يضيء المشرق والمغرب	٦٤

الصفحة

٦٦	فرحة عبد المطلب
٦٨	الرضاع - مراضع البادية
٦٩	حليمة
٧١	النسمة المباركة
٧٣	بركة في كل شيء
٧٥	البادية - العودة إلى البادية
٧٦	رعيان الغنم
٧٧	ليالي البادية
٧٩	حرص حليمة على رضيعها
٨٠	حفظ الجميل
٨٣	شق الصدر - قلب حليمة
٨٤	الحادث الخطير - الرسول يصف الحادث
٨٨	مخاوف حليمة
٩١	وفاة آمنة - وحشة الغريب
٩٣	الامتزاج بالوطن
٩٤	إلا الأصنام
٩٥	محمد يزور يثرب
٣١٣	

الصفحة

٩٧	الحادث الأليم
١٠٠	يتم عبد المطلب - رعاية اليتيم
١٠٢	قلب عبد المطلب
١٠٣	سمو الطفولة
١٠٦	تبادل المواطف
١٠٨	في كفالة أبي طالب - اختيار أبي طالب
١١٠	الركن الأمين
١١٤	النفس العالية
١١٥	راهب بصرى
١١٧	رعى الغنم - الحس الدقيق
١١٩	رعى الغنم
١٢٠	رعيان مكة
١٢١	كان الله يحفظه
١٢٣	عمد في قومه - كان مثلاً للكمال الإنساني
١٢٤	سموه الأمين
١٢٦	عصمة الله
١٢٨	كان يشارك في معالي الأمور - شارك في حرب الفجار ...
١٢٩	وشارك في حرب الفجار

الصفحة

وشارك في بناء الكعبة	١٣٠
وشارك في أعمال التجارة	١٣١
خديجة - مكانة خديجة	١٣٣
رغبها في محمد	١٣٤
كانت تمزج له العطاء	١٣٥
السفر إلى الشام	١٣٦
إرهاصات النبوة	١٣٧
زوجان سعيدان	١٤٠
صدق الوفاء	١٤٢
بشائر النبوة - الرسول الخاتم	١٤٥
صفته في الكتب السماوية	١٤٧
هو محمد بن عبد الله	١٤٨
أحاديث الأحبار والرهبان	١٥٠
قصة سلمان الفارسي	١٥٢
أحاديث الكهان	١٦١
قصة سواد بن قارب	١٦٣
قبل البعثة - ظهر الفساد في البر والبحر	١٦٧
كان العرب أسوأ الناس حالاً	١٦٨
	٣١٥

الصفحة

أشركوا في عبادة الأصنام	١٦٩
استقسموا بالأزلام	١٧٠
أشركوا الأصنام في حرثهم وأنعامهم	١٧٣
جعلوا الملائكة بنات الله - آمنوا بالخرافة	١٧٤
قامت حياتهم على الظلم	١٧٦
جعلوا المرأة نوعاً من المتاع	١٧٧
كانت الدنيا قههم	١٧٨
العنصر العربي	١٧٩
أين دين الحق ؟	١٨٠
العقلاء يبحثون عن دين إبراهيم	١٨١
ليلة القدر - هموم العظم	١٨٥
كان يحزنه حال قومه	١٨٧
أين الطريق	١٨٨
غار حراء	١٩٠
ليلة القدر	١٩٢
اقرأ باسم ربك	١٩٣
خليجة تبشر الرسول وتثبته	١٩٥
فترة الوحي	١٩٦

الصفحة

رحمة الله برسوله	١٩٩
مطلع الفجر - المهمة الثقيلة	٢٠٢
كيف يدعو قريشًا إلى الحق ؟	٢٠٣
البدء بالدعوة	٢٠٧
الرعي الأول	٢٠٨
سادة قريش - المجتمع المكي	٢١٢
سيادة قريش على العرب	٢١٣
العبيد والإماء	٢١٤
المساواة في الإسلام - الإيمان بالآخرة	٢١٦
عقيدة التوحيد	٢١٧
خطر الإسلام على سيادة قريش	٢١٨
الجهل بالدعوة - الحذر من قريش	٢٢١
دار الأرقم	٢٢٢
دعوة العشيرة	٢٢٣
أبو لهب	٢٢٤
موقف أبي طالب	٢٢٧
عداوة أبي لهب	٢٢٩
	٣١٧

الصفحة

٢٣٠	وامراته حمالة الخطب
٢٣٣	الجهر بالدعوة
٢٣٤	صيحة الصفا وأثرها في قريش
٢٣٧	أبوطالب وقريش - أحاديث قريش عن الدعوة
٢٣٩	إقبال المستضعفين على الإسلام
٢٤٠	استهانة قريش بالرسول ودعوته
٢٤٢	قريش تحس خطر الدعوة
٢٤٣	قريش تسعى إلى أبي طالب
٢٤٤	العزيمة الصادقة
٢٤٦	بنو هاشم يتعصبون للرسول
٢٤٨	الاضطهاد والتعذيب - غيظ قريش
٢٤٩	انتقام قريش - تعذيب المستضعفين
٢٥٠	بلال - آل ياسر
٢٥٢	خباب - صهيب
٢٥٣	علمر بن فهيرة - أبو فكيهة
٢٥٤	لبينة - زنيرة
٢٥٥	التهديد - أم عنيس
٢٥٦	الرسول يثبت أصحابه

الصفحة

٢٥٧	لم يقتصر التعذيب على الضعفاء
٢٦٠	الهجرة إلى الحبشة - خاف النبي على أصحابه الفتنة
٢٦١	السعي بالمهاجرين عند النجاشي
٢٦٢	النجاشي يأبى أن يردهم
٢٦٥	النبي يبادل النجاشي عواطفه
٢٦٧	حزن قريش لإخفاقها في سعيها
٢٦٨	نتائج هجرة الحبشة
٢٧٠	إسلام حمزة
٢٧١	إسلام عمر
٢٧٦	ضربة قاصمة
٢٧٩	حيرة قريش - أخطأت قريش حقيقة الدعوة
٢٨١	وتحيرت في أمر محمد
٢٨٢	أخذت تساومه لتعرف مقصده
٢٨٥	أدركت قريش أن محمدًا صادق في دعوته
٢٨٧	وأنه يدعو إلى الحق
٢٨٨	زعماء قريش يسترقون السمع
٢٩٠	كان من موانع الإيمان بمحمد الحسد
٢٩١	وحدثة السن
٣١٩	

الصفحة :

- ٢٩٢ وقلة المال
- ٢٩٤ وأنه بشر مثلهم
- ٢٩٥ قريش تشكك في نبوة محمد
- ٢٩٦ وفيما أنزل عليه من القرآن
- ٢٩٧ وفي الدين الذي جاء به
- ٢٩٩ المقاطعة - عجزت قريش عن مقاومة الدعوة
- ٣٠٠ فلجأت إلى المقاطعة
- ٣٠١ المقاطعة والحصار
- ٣٠٢ آل أبي طالب في الشعب
- ٣٠٣ أذاعت المقاطعة أمر الدعوة
- ٣٠٤ اختلاف قريش في أمر المقاطعة
- ٣٠٦ صحيفة المقاطعة تاكلها النار
- ٣٠٧ رجال يسعون في نقض الصحيفة

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliothèque d'Alexandrie

١٩٨٧ / ٣٩٣٥	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-٢٠٥٩-٠٠	الترقيم الدولي

١ / ٨٧ / ١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

٢٨٠٩ / ٠١

٢٠٠